عبدالستار ناصر

مختارات قصصية

الكتاب: مختارات قصصية

الكاتبة: عبد الستار ناصر / كاتب من العراق

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

ناصر، عبد الستار
مختارات قصصية/ عبد الستار ناصر
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
.. ص، .. سم.
الترقيم الدولي: ٩ – ٣٨ – ٥٧٧٢– ٩٧٧
أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٣١٧ / ٢٠٠١

مختارات قصصية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الإهداء

"مرة أخرى..

إلى عبد الستار ناصر..

الوحيد الذي رماني إلى التهلكة"

"المبدع يشبه الحيوان البري، كلما طارده الصيادون كتب أفضل"

"جان كوكتو"

المقدمة

ما كنت أميل إلى "مقدمات"، ولا رأيت فيها يوما ما يشغلني عن المحتوى الذي أكتب من أجله، حقا ما كنت أحب المقدمة في أي محتوى في طفولتي أو صباي، كنت أنظر إليها على أنها حجارة في الطريق أتركها جانبا وقتما أشاء، وأمشي إلى صميم الكتاب.. وهكذا بقيت أمامها لسنوات..

حتى جاء الوقت الذي اكتشفت فيه "جان بول سارتر، ودينو بوتزاني، وآستورياس، وليرمنتوف، وريتشارد باخ".. كنت أغادر بيت الصبا والطفولة نحو "استيفان زفايخ وراي براد بري، وجاك لندن ورينستويفسكي وأنطون تشيخوف، وكونستانتان جيورجيو، وآرنست همنغواي، ويوسف إدريس".. يا لها من متعة عظيمة أن ترى نفسك فجأة.. وأنت تناقش "شوساكو أندو، وإيتماتوف، وشولوخوف، وغارسيا ماركيز"، ثم تنام مطمئنا أنك في الصباح سترى "سكوت فيتزجرالد، ويوكيو مشيما، وجورج أورويل، والطيب الصالح".

رأيت وأنا في بيت هؤلاء الكبار، أن المقدمة ليست مجرد كلمات تسبق أصل الرواية أو تسابق القصائد والقصص القصيرة، إنها بهذا المعنى

حالة اكتشاف صغيرة يتبرع بها المؤلف، احتراما لقارئه، وأنها تأتي عن نيابة عن شمعة كان لابد من إشعالها في طريق القارئ..

قد لا تقول الكثير في أية مقدمة، لكنها كما "التحية" عندما تمضي يدك للسلام على صديق في بغداد أو ترفع قبعتك احتراما لسيدة في "يوركشاير"، أو هي ربما ابتسامة حلوة في طريقها إلى رجل يمشي قرب الدانوب الأزرق، إنها بهذا المعنى أقرب ما تكون إلى عقد زواج بين رجل من طوكيو مع امرأة في بيروت..

سأعترف.. أنا الذي كتبت حتى اليوم أكثر من عشر مقدمات سبقت أعمالي.. أنني لا أدري سر لهفتي ولا أفهم حقيقة مشاعري أن أكتب هذا المقدمة التي أكتبها برغم أنفي، لكن العباقرة الذين أحببتهم طوال ما فات من عمري أرغموني على تكرار هذا الفعل الجميل في كتاب يرى النور في دمشق أو القاهرة أو بغداد أو بيروت أو المغرب العربي، حتى صار الكتاب الذي يصلكم دون مقدمة مني يشبه الجسد العاري الذى لا ثياب تحرسه من الصيف أو الزهايمر..

المهم،

عساني أعطيكم في هذا الكتاب الصغير بعض ما كنتم تحلمون به..

وعزيز على قلبي – والله – ما تحلمون به...

عبد الستار ناصر

٢٠٠١

آخر أفلام شارلي شابلن

١

لا أدري إن كنت أخاف منه أو أخاف عليه؟ كان ينبغي أن أعيش بين يديه، عساني أعرف الجواب على ذلك السر الذي أحتفظ به حتى انقلب عليه.

٢

مد أصابع يده اليمنى، ثم كورها، وضرب الحائط كان يقول لي وهو يخفي عينيه صوب الجدار:

– لا أريد أن يكسرني رجال محلتي، إنهم يتربصون بي وأنت وحدك صديقي ليس أمامي غير إقناعك بما أخبرتكك به.

قلت له وقد احترقت في عيني نصف غابات الدنيا وزهورها:

– لكنك مؤمن بالله، وما تريده مني يا بشار لا يفعله سوى..

ضرب الحائط مرة ثانية وهو يحرق غابات الدنيا، ويقلع ما تبقى من زهورها، إذ يقول:

– ما أريده منك سوف يذبحني، أنا أعرف هذا، لكنها مشيئة الله، ثم قال بصوت موجع وهو يستكين مثل قطة:

– نعم، صديقي يا مهند إنها مشيئة "عذابي أصيب به من أشاء"!

وقد أصابني بما أراد!

نظرت إليه، شعرت ذات لحظة باهرة أن صديقي بشار صار أصغر حجما، كيف بي أصدق ما أراه مني، أنا أعرف هذا الرجل منذ طفولتي، أعرف الغضب الذي يمشي بين غضاريف جسمه، والنار التي تسري على ضلوع قامته المنتصبة، كيف به يعطيني زوجته حتى أبعث فيها ما يعطيه طفل يسمى باسمه!

من أجل من؟ لئلا ينكسر – كما يقول – أما أبناء محلته؟ كيف يفكر هذا الرجل الذي عرفت عنه القوة وفرض القرار، وحفظت عنه لسانه بالمزيد من آيات الله؟ بل علمني وهو يمشي – كيف أمشي – وعلمني – وهو يكابر في كل شيء – كيف أكابر في كل شيء.

٣

كنت أقول في سري:

– "لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون".

ثم استغفرت ربي ساعة ارتبط قوله "سبحانه" بما يفعله صديقي بشار. مشيت مسافة متر واحد صوب الباب، لم يتحرك بشار، ثم فتحت الباب وخرجت من غرفته، لا أدري ماذا جرى في رأسي ومعدني، شبح يمشي لصق جلي، ويحك جسمه بثيابي، كنت أريد الوصول إلى باب البيت، لكن الباب صار أبعد من جسدي بمسافة تمتد كما الزئبق.. كنت أسمع صوت زوجته وهي تقول:

– العشاء جاهز منذ ساعة، ألا ينتهي الكلام بينكما أبدا؟

لست أدري من الذي أكل الطعام نيابة عني..كيف شبعت وماذا قلت لزوجته، لكنني أتذكر باب البيت، أفتحه بيدي وأقول:

– كان طعاما شهيا.

أتذكر أن بشار قال أيضا:

– أراك غدا يا مهند، أرجوك أن تأتي مبكرا، وأن تفكر بما أخبرتك به.

٤

ذهبت إلى بيته في السابعة قبل أذان العشاء بنصف ساعة، زوجته قالت: "إن بشار في طريقه إلى البيت"، وقد أخبرها أن يتأخر عشاء الليلة حتى نحتسي من خمرة أحضرها صديق دمشقي.

نظرت في عيون زوجته كوثر وفكر بشيء من اللذة والغضب:

– هل تراها تدري بما يريد بشار!

قلت "كلا" هذا وجه طاهر بريء، ملامحه الصبا والطفولة، لا يمكن أن يسقط محض رغبة أو جريمة يفرضها هذا الزوج مهما كانت فوائد رغبته أو خيرات جريمته السوداء التي ينوي إشعال نارها في جسدينا معا.

نسيت نفسي وأنا ما زلت أحدق في عيون زوجته حتى سمعتها وهي تبتسم في وجهي – تقول وهي نمشي:

– ماذا جرى يا مهند؟ أنت بالنسبة لي أشرف الناس، ماذا دهاك الليلة؟ هل نسيت أنك وحدك من يدخل هذا البيت في غياب زوجي؟

ثم قالت وهي تفترب من التليفزيون:

– لا تزعل إن قلت لك بأنك ممثل فاشل، والحمد لله إن أدوار الخيانة لا تناسبك مطلقا.

أنقذني الماضي – أيامه، نكبائه – إذ رماني فورا إلى حالة من الضحك وأنا أصغي إلى زوجة بشار التي رمت على رجولتي أبشع ما سمعته طوال عمري.. وفورا قلت لها بصوت منتشج عالٍ:

– الليلة يشنقني بشار يا سيدتي كوثر.. أنا يا مولاتي رجل مسكين لا أستحق الموت بهذه السرعة.

وفجأة أيقنت حجم السخف الذي لبسته فوق جلدي، حجم الحماقة التي لا أرى كيف دارت حولي ثم اختفت بين ضلوعي ومساماتي.. ماذا تراني فعلت؟ أي أحمق هذا الذي كنت أسمعه يهذي قبل قليل؟

رحت أسمعها – وهي تفتح باب البيت – تقول هادئة وحزينة:

– تفضل يا سيد مهند، يمكنك العودة إن شئت عندما يرجع بشار.

كان المفروض أن أسقط حجلا، أو أعتذر منها، أو أسكت، لكنني مشيت صوب باب البيت كما يمشي رجال الشرطة، ثم نظرت إليها أنا أمد سبابتي وأقول:

– أشكرك جدا، هذا أفضل ما تفعلينه مع كلب مثلي، أشكرك يا كوثر على إنقاذي من النار التي يرى زوجك أن يرميني إليها.

وقبل أن يتحرك جسمي صوب الباب رأيتها ترفع يدها تمنعني من السير، جبل يسقط فجأة على منبع ماء ويغلقه تماما، ثمة فم عطشان يلهب مرعوبا وهو يحدق في الجبل الذي أغلقه نبع الماء، رأيتها تنظر إلى سقف البيت، ثم تسأل بخوف:

– أنا لا أفهم كلامك يا مهند، ولا أدري ماذا دهاك؟، لماذا تشكرني على إنقاذك وأي إنقاذ هذا؟ أنا أعرفك منذ تزوجت بشار، وأنت الوحي الذي يثق به زوجي لكنك الليلة تنطق بكلام غريب، غريب جدا.

٥

كانت المسافة بيني وبين باب البيت، تطول وتمتد أريد أن أهرب فعلا، سقطت في جب بلا قرار، أكاد أشم غضاريف جسمي وقد احترقت لا أعرف ماذا أقول.. واقف بين البيت من شماله الشرقي وتسحبني عيون كوثر

نحو جنوبه الغربي، أسمعها تضربني على رأسي بكلام يأتي مثل جوفه من العقارب:

– أخبرني مهند أنت تخفي أسرارك نبض القلبك، وسوف تقتل نفسك بيديك.. فسر كلامك الله يخليك، ماذا يريد منك بشار أنا أعرف أنه وحده السبب وراء كل كلمة نطقت بها.

اقترت منها، من كوثر زوجة بشار، أنا أطول منها بشر واحد، لكنها في ذلك المساء العجيب، كانت أطول مني، شهية ناعسة طرية صغيرة عصية المنال يبكي.. أو حنجرة تريد أن تبكي فورا:

– زوجك بشار ذبحته السياسة، يريد أن يربح الدنيا وما فيها، وأنا بدأت أخاف منه حقا.

لا أفهم – نفسي –كيف تسرب السواد على غلاف البيت كله؟ وأرت مصابيحه تخف، هل كنت أبكي؟ "كيف فسر هذا الغشء المبللل بالسواد، يمنعني من رؤية زوجته التي كادت تسقط.. حسنا كيف رأيتها تسقط، وكيف تمكنت من رفعها على يدي وكيف وصلت إلى فراشها؟ من يطرق الباب؟

هل كام ثمة من يطرق باب البيت؟ نعم فتحت الباب كان الظلام قد تسرب إلى زقاق المحلة، لا أحد هناك.. أغلقت الباب، لكنني رأيت من يدفعه ويقول:

– ماذا دهاك أي مهند؟ أنا بشار.

كان – إذا دخل– اهتزت بيوتها وغنت قلوب بناتها، مغمور ببركات النساء، هذا اللعين الذي كان صديقي، ضباب يمشي أو سحب بيض تلامس جدران البيت، البنات ينظرن إليه من خصائص النوافذ والنساء ندم عميق إذا ما تربصن به عند بوابهن – تذكرن أزواجهن – تاركات ملامحهن تحت حذائيه إذا ما شاء أن يأخذ أي واحدة منهن.

هل كنت أحسه على ذلك النعيم، لا يتمتع به غير الملوك والسحرة؟ كنت أحسد هذا الرجل المعشوق طوال طفولتي وصباي، والآن يريد مني – هو نفسه المغمور بالركات – أن آتيه بطفل يسمى لئلا يعرف الناس عقمه وينثلم رأس التمثال الشامخ..؟

– ماذا بك يا مهند؟ هل أنت مريض؟

كنت أسمعه، لا أعرف ماذا يقول، رأسي مزحوم بهذا الصوت الذي لا يهدأ مطلقا.. لكنه عندما صرخ بي، مهند ألا تسمع ما نقول؟ كنت قد سمعته وابتعد الصوت، راح يأخذ نصف حالاتي، فقلت بنصفها الثاني:

– لماذا تصرخ بي؟ أنا بخير.

فورا، كان الضوء قد عاد لي البيت والزقاق والمحلة كلها، كما رجع الضوء إلى رأسي وأنا أسمع زوجته تقول:

– لماذا تأخرت يا بشار؟ أراد مهند أن يترك البيت، لكنني أقنعه أن خمرة اليوم لا تشبه خمور البارحة، إنها من دمشق.

٦

ماذا جرى أكاد لا أصدق ما رأيت، أنا أخذتها إلى غرفت ورميتها بنفسي على فراشها، ما يزال إحساسي بجسها يغزو أصابعي وأنا أغطي لحمها بهاتين اليدين.. ماذا حدث لي؟ رفعت يدي اليسرى صوب المكان الذي جاءت منه، ثم رفعت اليمنى صوب رأسي أمسكه بقوة، ما إن رآني بشار الذي حتى أقترب مني وقال:

– أنت مريض فعلا يا مهند عليك أن ترتاح.

شعرت به يخلع حذائي وجوربي، ثم يفتح حزام بنطلوني أطفأ النار بعدها وأغلق الباب واختفى.. كنت أسمعه يقول:

– سأتصل بصديق طبيب يفحص.

بينما سمعتها تهمس:

– هل كان يعاني من شيء كهذا في السابق؟

ثم وليت وجهي شطر كابوس، ذهبت في طياته رأيت نفسي مع مئات الخراف في طابور يمتد مع الكاظمية حتى باب الشقة في طريقه إلى مسلخ آلي مبتكر لا يحتاج الخروف الواحد غير نصف دقيقة، كانت تكفي سلخ

جسده وتقطيع جسه ورمي الفضلات، ثم خروجه نظيفا جاهزا للبيع في علب صغيرة.

صحوت من كابوسي لحظة كان رأسي يدخل في آلة السلخ المتبخرة، صرخت بلا صوت، وأنا أرى نفسي عاريا تماما في غرفة بشار وزوجتهه تنام على صدري.

٧

عود كبريت واحد يمكنه أن يحرق غابة، ماذا تفعل أنثى كل مسامة من مساماتها غابة من كبريت؟ من رماني قرب هذا الجسد الذى يمطر؟

كان المفروض أن أقول "نعم" قبل أن يعطيني بشار زوجته، لكنه أحرق المسافة التي تربط بين عنادي ورغبتي وسمح الوقت الذي أحتاجه لفكرة وجاء وأعطاني زوجته برغم أنفي.

ماذا تراني فعلت في المسافة التي أحرقها بشار؟ في الوقت الذي مسحته من زماني؟ هل لبيت ما أراد مني؟ ضباب كثيف حول رأسي، أكاد أرى من الدنيا غير أجزاء صغيرة قاسية، صرير أبواب كانت مغلقة من أين الصبا؟ وهذا الصديق يلعب في أيامي ويمرح بين جروحي.. وأنا هيكل مشقق لإنسان لم يستطع أن يكون كما أراد، جنت الخسارة، وأعطيت أعوامي لهذا الرجل تسحره السياسة والشهرة والمجد والتاريخ.

لكنني قبل أن يسقط علي في كابوس ثالث ورابع، أيقظني بشار وبرأفة راح يسأل:

– كيف أصبحت الآن؟

رأيت ثيابي فوق جلدي ليس من شيء تحرك في هذا الجسد الذليل غير كوابيسي وصدى حرمني وخوفي:

– أنا بخير يا بشار، كم الساعة الآن؟

كان يبتسم في وجهي وهو يردد:

– ما شأنك بالوقت؟ تعال، الخمرة الدمشقية تنتظرك منذ ساعتين، انهض يا رجل، كوثر تسألني عما جرى وكادت تبكي عليك.

لكنني مثل طفل تائه رجعت أسأل عن الوقت، أريد أن أسأل عن أي شيء كيفما أخفي هذا القلق الذي راح يقرضني في كل جزء من جسدي.

– إنها العاشرة والربع، خذ امسك الساعة لئلا تسألني مرة أخرى.

ثم ابتسم ثانية:

– أنا خائف عليك يا مهند، بدأت أخاف عليك فعلا.

غسلت وجهي ويدي ورميت الماء على شعر رأسي، كانت قطرات الماء أعذب ما أحببته طوال ذالك اليوم الجزين خمرة الساعة العاشرة، نظرت إلى بشار وأنا أحتسي الكأس الثالثة، ودون وعي سألت:

– أين كوثر؟

أجابني فورا:

– في المطبخ، عشاء الليلة مفاجأة حلوة يا مهند.

لا أفهم سر إحساسي بأني مجرد "عبد" كأمور إذا جلست في حضرة هذا الصديق، لا شفيع لي أمام عينيه، يمكنه أن ينقلني من الصيف إلى الشتاء إذا ما نطق بسر من أسراره يحرقني كما يشاء ولا سلطان لي عليه مطلقا.. كان يحدق في وجهي وهو برقع كأسه ويسألني بهدوء:

– هل فكرت بما أريد؟

٨

تساعدني البلاهة التي أفتعل لخيوطها، في أنها تعطيني بعض الوقت أتهيأ فيه على سؤال مجرم كهذا، لكن البلاهة – وأنا أمام عينيه – ظهرت مني وأهملتني وحدي:

– يا بشار، أنت السبب في المرض الذي أصابني الليلة، أنا لا أستطيع أن أصدق ما تريد.

ضرب كأسه بكأسي، كادت كأسي تسكر، ثم راح يضحك:

– لا أريد أن أكرر عليك ما تعرفه عني، هذا البلاء الذي أنا فيه هو الورقة الرابحة الوحيدة التي يملكها أعدائي.

ثم بلع ما بقي من خمرة في كأسه، وقال بفورة غضب أخذته إلى حالة تشبه البكاء:

أنا الوحيد الذي انتخبوه كاتما للسر، وها أنا أعطيك سري يا مهند أربع سنوت وربما ثلاث وأكون على رأس أقراني أفعل ما أشتهي.

– وسوف تفعل أنت ما تشتهي.

إنه يفهم كمية أحطائي ويعرف حجم ضعفي، لم أكن شريفا بما يكفي للسكوت على أنثى يشتهي الهواء منها، وتسكت النساء بين يديها قبل أن يشهق الرجال.. قلت مثل عبد إلى المفضلة:

– وكيف أفعل ما تريد؟ زوجتم أقوى مني ومن عشيرتي، ولا يمكن أغتصبها أبدا.

في تلك الساعة انكمش العالم كله في زاية أصغر من مليمتر واحد وأنا أسمع بشار يخبرني دون أن يهتز جرف واحد من حروف فمه الداعر:

– اطمئن يا مهند هي تدري.

٩

هي تدري إذن يا بشار؟ زوجتك تعلم بهذه اللعبة؟ أنتما على حق والله، أنا المغفل الوحيد، فقد تعلمت القرآن على يديك وتعلمت كيف أمشي كما تمشي، وأفعل ما تأمرني وأنا سعيد أكثر منك بما تأمر.

نظرت إلى بشار، كنت أريد أن أحتسي خمور الدنيا كلها، علني أموت في هذا البيت العسلي.. من أين جاءني هذا الشرف المضحك في ليلة

عرسي، من أين تدخل بكتريا مخي وتزاحمني وتفرض رأيها ورغبتها عليّ؟ لا أريد هذا الشرف الظالم الذي يحرمني من أشهى ما في تاريخي.. سأدخل الليلة وأحتسي الندى، إنها ليلتي:

– اطمئن يا مهن هي تدري!

١٠

تربصبي وجه كوثر، طاردني في صحوي وانقلب ذئبا يمشي لصق جلدي، بدأت أفهم سبب إغمائي والرعب الذي أحاطني.. هي تدري بما يريد زوجها مني وسنها، أي نوع من البشر كنت أعيش في بيته وأنا تحت مؤامرته.

ولماذا تراني أكذب الليلة على وسواسي؟ أنا لا أصق – ولا في حلم عابر – أن تكون زوجته ملك يدي، أمرح معها وأشرب حبات الحليب من أسرارها.. لماذا أكذب؟ أنا أرى هذه المرأة التي استورد الله لحمها من بيوت الجن وأضاف عليه من بهارات الأبالسة ما يجعل جلدها يفرز رائحة يظفر قربها ثلاث ساعات.

ماذا أول؟ أنا لا أدري من غلق فمي ورماني مجرد إنسان أهبل ينظر إلى فراغ..

كـت أريـد أن أنطـق بـشيء، لكـن الرمـل غطـاني والـصحراء أخـذتني وجـف مـاء النهـر، تيـبس جلـدي ولـساني وبقيـت وحـدي أدور فـي صـورة نـم ضباب كثيف.. لم أخرج من تلك الصحراء إلا مع صوت بشار يخيرني:

– أنا أعطيك أغلى ما أملك يا مهند، أعطيك أخطر أسراري.

زوجتي ومستقبلي وكبريائي، وأنا أعرف أنك وحدك من يحفظ سري.

ثم خرج من البيت – مذبوحا – بعد أن أخبر زوجته بما أخبرني وتركني وحدي مع سيجارة كنت أدخنها مرعوبا لا أدري ماذا أقول وكيف أبدأ..

كانـت زوجتـه تبتـسم خلـف أصـابعها الخمـسة التـي سـترت ملامحهـا، وفجـأة، شـعرت بالـذل أمـام ابتـسامتها أصـابني حمـاس عجيـب، أن أحفـظ رجـولتي، اقتربـت منهـا وسـحبتها بهـدوء إلـى غرفـة النـوم، لكـن كـوثر أشـارت بأصابعها إلى غرفة ثانية، كان الضباب قد تسرب عن رأسي وبدأت أرى.

١١

نزعـت ذل عـام واحـد وأنـا أمـد أصـابعي إلـى حـذائي، خلعتـه بغـضب، ثـم نزعـت ذل الـسنة الثانيـة مـن خجلـي وأنـا أرمـي جـواربي إلـى حيـث لا أدري.. تخيلـت تمامـا عـن سـت سـنوت مـن الـذل وأنـا أنـزع قميـصي الأصـفر الـذي لطختـه بكارتي ونعاس أعوامي.

اقتربت نصف متر من شرشفها الناعم، مضت ثلاثة أعوام من زمن الذل وأنا أنزع الحزام لأتركه يتلوى مثل أفعى، عشرة أعوام من الذل نزعتها فورا أمام الذهول الذي أصابني قرب الفراش، نظرت إلى عينيها، لم أستطع الصبر، كنت أمضي إلى الفردوس، يكاد شيء في جسدي يبكي من فرط اللذة.

١٢

أين كنت أعيش، أنا المخذول الذي يحتسي الخمرة كل يوم، أي حياة كاذبة رضيت بفقرها وسكونها وجلالها المزيف؟ كيف أعطاني بشار – هذا المخبول السياسي الداعر– أجمل كنوز الدنيا من أجل أن يحتفظ بكرامته أمام الجيران؟ ما قيمة جيران الأض والسماء أم فخذ واحد من فخذيها؟

تمنيت والله أن أصعد فوق سطح الدار أصرخ بملء حنجرتي وجرماني القديم، أرى أن يظفر من قصباتي ذلك الهواء المدنس بالقناعة والرضا، كيف تراني أمضيت أيام عمري دون هذا المكان الدافئ الذي لا يباع بصحراء الكرة الأرضية كلها ولا يوازيه عمق شعابها ولا يساويه جمالا كل غاباتها وجبالها والماء النازل من ينابيعها وثغورها؟

لم أبتسم يوما في وجه امرأة طوال عمري، لم أضحك أبدا مع النساء، لكنني ساعتها شعرت بالصبا وأيام المراهقة تدور حولي، قلت لها وأنا أضحك أمام جدارها الذهبي:

– أنا حمار وحشي يا كوثر، لكنني أريد من يخطط جلدي.

كنا نضحك على أسخف نكات الدنيا، والوقت يمر بسرعة، برتقالة واحدة كانت قرب الفراش، أكلت منها نصفها وأعطيت النصف الثاني إلى أخطر امرأة في تاريخي.

لا تدري كيف انتهت بيننا ثلاث ساعات، وكلانا يلهث عن عطش رهيب، جاء بشار يطرق الباب علينا وهو يقول:

– تعالي يا كوثر أخبريني بما فعل مهند.

١٣

لا أفهم سر الخوف الذي شلني وأنا أصغي إلى نبرات صوته، كنت أريد أن أهرب من البيت لئلا يراني .. نظرت إلى كوثر وأنا أرتعش مثل طفل، لكنها نهضت وأعطتني ثيابي:

– تلك كانت رغبته وأوامره.. ماذا دهاك يا مهند؟

نعم، لابد أن أتذكر فورا، أن ما فعلته محض رغبة كان يفرضها علينا، ودون وعي مني، رفعت الفراش عن الأرض وتركته في زاوية من زوايا الغرفة ثم هيأت عقلي ولساني للرد عليه.

ما إن رآني بشار – وخلف ظهري كوثر – حتى ابتسم، ثم ابتعد عنا مسافة تعطينا فرصة أن نمشي إلى غرفة النوم، وهناك سقط على أريكة من

خشب البلط لم تنكسر برغم سقوطه عليها، لم يستطع النظر إلى وجهي، لكنه تمكن بعد وقت قصير أن ينطق بصوت مبحوح منكسر:

– أرجوك أن تترك البيت يا مهند، سوف أراك في وقت آخر.

١٤

عند رأس الزقاق رميت زفيرا تكوم في صدي، أحرقني طوال الزمن الذي قطعته في حضرة زوجها.. ثم فكرت فيما جرى.. لم أكن أرى الطريق غير الفراش مبسوط عل الأرض كنت أضرب الجدار، والبشر مجرد رجل أعمى لا يرى الممرات غير جسد أنثوي يلهث.

لم أذهب إلى بشار في اليوم التالي، كنت أكتفي بفراشي الذي ما زال على غرفتي، أي إبليس يعيش معي؟ صار وجه كوثر يطاردني في كل شبر من وسواسي في كل جزء من لحمي.

عند التاسعة ليلا جاءني بشار وأرغمني على احتساء الخمرة الدمشقية في بيته، كنت أريد أن أبكي طربا وأنا طوال الطريق أفكر في كوثر سوف أراها، يلتهب جلدي أمام ابتسامتها وبقية أسرارها.. ذلك يعني انفلات هذه الطاقة الجهنمية من ضلوعي.

جاء الخمر الدمشقي من كومة من المزات والثلج المغمس بالثأر، أين ولت كوثر؟ كنت أريد أن أسأل، لكن بشار كما عرفته منذ طفولتي يسبقني إلى الجواب:

– كوثر في بيت أهلها أبوها يحتضر.. ربما يموت الليلة.

جاء الخمر الدمشقي ولم تحضر كوثر، شيء قرب نبض القلب أخبرني أن بشار كاذب لعنة الله على أب يموت إلا في هذه الليلة، لماذا جئت بي والبيت خال منها؟ أنا أعرف أي عذاب ترميني إليه يا صديق طفولتي، أيها السياسي المحنك أنت بدأت لعبة الثأر مني بعد أن أعطيك أطفالا من صلبي.

– هل تري أن نذهب إلى بشار وتأتي بها؟

نظرت إلى بشار، لا أريد أن أفهم سر هذا الكلام الفاجر، رميت الخمرة في بلعومي وابتسمت كاذبا:

– ساعدها الله ليس من السهل أن ينتظر الإنسان موت عزيز عليه.

الخمرة الدمشقية تمشي في دمي، كان دمي قد تسرب من لحمي عاد الضباب يلف جمجمتي، بدأت أخاف هذا الصديق يهتز تحت حذائه أسفلت المحلة اهتز أمام عينيه مجرد لحم مجوف يمكه إذا شاء قتلي، أنا الرجل الوحيد الذي دنس لحم زوجته:

– ماذا دهاك يا بشار وهو يعطيني صحن زيتون صغير.

– لا أريد أن تحبها، هذا يفسد كل شيء أنا أعرفها، إنها تكرهني منذ وقت بعيد، لكنني مرغم على..

فجأة راح بشار يكسر كأسه على جدار الغرفة، اضطرب الجزء الخلفي من ضعفي وأنا أقول:

– أرجوك أن تهدأ أحتاج إليك الليلة وأنت هادئ.

ثم مشيت إلى المطبخ أحضرت له كأسا وأنا أفكر في الرجوع إلى بيتي مبكرا، منذ طفولتي أخاف هذا اللون من الغضب الذي يوجع أعصابي فورا، لكن ما أجعني وأنا أغسل الكأس بأصبعي – أنني كسرته حال شعر بزوجته تحدق بي من أعلى سلالم البيت.

١٥

رجعت إلى مكاني، جرح خفيف رآه بشار في أصبعين من أصابعي، اعتذر مني بنظرة بريئة من عينيه ثم راح يحتسي الخمرة هادئا، بينما رحت أسأل نفسي ماذا يريد مني بشار؟ لماذا يكذب؟ لماذا أخفى زوجته في الطابق العلوي من البيت؟ لماذا لا يريدها أن تراني أو أراها؟ إلى أين يمضي بنا؟ وماذا يريد منا فعلا؟ ماذا أفعل؟ وكيف أحمي نفسي من هذه البلوى التي لا أدري حجمها؟ أنا أعرف بشار من أيام الدراسة في القشلة، كا يذبح الدجاج بدلا من أبيه، ليس ثمة تلميذ لا يخاف من يديه، تكفي نظرة واحدة من عينيه يخرس بعدها تلاميذ الصف الرابع.. هو نفسه المشاكس الذي تحرر من سلطة أهله، ولم يكن غير أعوام عشرة.. كيف أحمي نفسي وقد صار بشار رجلا من رجال النظام، في بيته سلاح يكفي عشيرة، وأنا بين يديه

مجرد إنسان أعزل، لا أملك غير حفنة من عواطف لا أعرف أين أرميها ولمن أعطيها .. سمعته يقول:

ماذا بك يا مهند؟ هل تؤلمك الجوارح؟

جرح واحد كان يؤلمني: أنا أعرف ماذا حل بكوثر؟ ماذا قالت عني؟ لا أريد أن أكذب أو أخطئ في حضرة هذا الرجل الذي تآمر ضد رجولتي وأغراني بمتعة أعرف أنها لن تتكر، وأنني سوف أحضر بقية عمري وأنا أعيش في الساعات الثلاث التي أمضيتها بين ضلوع كوثر ولحمها الطري ورائحة الشيكولاتة التي تفرزها.

نظرت في عينيه حاولت أن أجمع – تلك النظرة –كل ما بقي عندي من شجاعة تهرأ نصفها في حضرته:

– الجروح التي تؤلمني يا بشار، أنا لا أدري لماذا كذبت عليّ كوثر في البيت وقد رأيتها بنفسي.

ودون أن يفلت إلى سلالم الطابق الثاني راح يكرر:

– اشرب يا مهند اشرب، الخمر الدمشقي أحلى خمور الدنيا وأنت سيد السكارى.

تمنيت أن أضربه فورا، لكنني رحت بقية ما في الكأس ثم نظرت إلى عينيه وقلت:

– لماذا كذبت يا بشار أخبرتني أن زوجتك في بيت أهلها..

– وماذا هناك يا مهند.. ماذا هاك؟

وقفت غاضبا، ثم مشيت مسافة مترين وأنا أصرخ:

– إنها هنا في الطابق الثاني من البيت وأنا رأيتها بنفسي.

تحرك بشار صوب الطابق العلوي وهو يمد يده كمن يريد أن يسحبني ثم تسلق السلالم، وهو يلتفت ويبتسم في وجهي:

– تعال يا مهند، تعال معي أنت ترى ما ترى أن تراه وأنا أعرف بأنك أحببت أكثر فتعال..

لم أصدق تلك النبرة التي تسربت من حنجرته، مشيت خلفه – طوال حياتي – كنت أمشي خلفه – وعند الطابق العلوي راح يفتح باب غرفته عند نهاية السلالم وهو يقول:

– انظر.. تعال بنفسك وانظر يا مهند.

ثم فتح باب الغرفة الثانية ةباب سطح البيت، وأنا أنظر في كل شبر أمام عيني هل تراني جئت، فعلا أنا رأيتها وانكسر الكأس بين أصابعي، فهل بدأ الوهم أم عاد الضباب يلف رأسي ويخدعني؟

١٦

رجعت مخذولا ورحت أحتسي الخمر الدمشقي، وأنا أملك الكأس بأصابعي كلها، من يدري ربما أحببتها فعلا، وربما أخذتني من المراهق وصارت تلف ماضيها على حاضري وتقتلني وتهزأ بي.

أنا أعتذر يا بشار، أتعبني هذا المشروع الذي رميتني إليه.

قال بشار:

– أريد منك نسيان ما جرى، لابد من ذلك يا مهند، إنها حياتي وأنا وحدي مسئول عن أخطائي لا أريد أن تعذبني بين يوم وآخر.. هذا لا يناسبني أبدا.

في الثانية، لم يبق على المائدة أي شيء من الخمر الدمشقي لم أسكر، نظرت إلى بشار ولم أفهم سر تلك الرغبة الجامحة في قتله..

ماذا يريد منه لا شيء، أرى الخلاص من خوفي وعبوديتي، أريد نسيان هذا الجزء من حياتي الجزء الضعيف الخانع الذليل، سمعت صوت بشار يأتي من حنجرة لا جرس لها، صدى باهت لرجل قوي:

– أريد منك شيئا آخر يا مهند، أنا مؤمن أنه لا صديق سواك في هذه الدنيا.

قلت هادئا:

– أريد خمرا خمرتك الدمشقية لم تسكرني يا بشار.

نهض من مكانه جاء بخمر من الشمال ابتسم في وجهي وقال:

لا أريدك أن تسكر.

رفعت عيني إلى عينيه وقلت كما الرجال:

– أنا لا أسكر يا بشار شيء في جسي يمنعني من نشوة السكر، لكنني أحذر عظامي حتى أتمكن من النوم ثم سألته: ماذا تريد مني؟

صب خمرته وراح يحتسي بعضها وهو ينظر إلى عيني:

– سأعطيك كوثر، أنت تستحقها، لكنني أريد منك شيئا آخر.

لم يخطر على مخيلتي أي شيء، كنت أعرف أن هذا السياسي المحنك الخطير لا يشتري زوجته بدرهم واحد – يمكنه أن يأخذ النساء جميعا فما أهمية أن يأخذ امرأة واحدة – لاشيء في حياته غير المجد وأسطورة اسمه وسمعته، لعبة الدخول في التاريخ، الضمائر التي سوف تصفق بإشارة من سبابته أو بحركة خفيفة من رأسه الجميل.

١٧

رميت رأسي على يدي وأنا أهز جمجمتي ذات يسار وذات يمين أصغي إلى بشار، صديقي الذي قال:

– ما فعلته مع زوجتي أخبرتني به، قالت عنك أشياء غريبة جدا.. هل كنت كذلك فعلا يا مهند؟

لم أفهم ما كنت أريد ان أفهم ماذا تراها قالت عني؟ شربت ما بقي في كأسي من خمرة الشمال ونظرت إلى فراغ بعيد لا شيء أمام عيني سوى كلام أسمعه، ولا أريد أن أفهمه أبدا كان بشار أقوى من بغي سافل ينطق الكلام بلا خجل ولا ندم ولا وجع ولا تردد:

– اسمع يا صديقي مهند، سوف نكون أنا وزوجتي طوع يديك وقت ما تشاء..

سكت لحظة، ثم اقترب مني وراح يهمس بصوت مومس:

– شرط ألا تخبرها بما تفعله معي.

كان الفراغ أمام عيني، يسابقه ضباب كثيف أسود كأس لخمرة تسقط من بين أصابعي، أسقط في حجرة سوداء مكبل بحديد من أوهامي لم يرفع الحديد عن رسغي سوى بكائي موع تسقط على نبض قلبي أخسر الماضي والحاضر في ثانية باهرة من عمري، وأنام على رشفة أخيرة من خمرة الشمال.. رشفة تركتني مشلولا حتى الصباح.

١٨

صحوت على شرط ألا تخبرها بما تفعله معي، عن السابعة والنصف، كان بشار يبتسم في وجهي ما يزال يحتسي حمرة الشمال.. لم أصدق هذا الثور العقيم: كيف به يشرب حتى الصباح؟ سمعته يقول:

– أنت رائع يا مهند زوجتي على حق فيما قالت، أرجوك أن تحفظ هذا السر.

أي سر يا بشار؟ ماذا جرى؟ شيخ يتعرى، أتذكر شيئا كهذا، ثمة شرشف أبيض يشبه خيمة، رميت نفسي عليه، هل كانت كوثر؟ نظرت إلى عينيه إلى بؤبؤ عينيه أسأل عما جرى؟ لكن صديقي بشار راح يقول هادئا بلا خجل ولا ندم ولا وجع ولا تردد، كما هو منذ عرفته في طفولتي:

– أنا أثقلت عليك يا مهند أنا آسف، أرجوك أن تعذرني أنت الآن تعرف نصف أسراري وما عاد من شيء يمنعني من طلب ثالث وأخير.

١٩

كان بشار قد غطاني وقت غفوت في مكاني ما إن رفعت البطانية عن جسمي حتى رأيت نفسي عاريا .. خجلت – أنا – من نفسي لكن بشار كان يضحك مني، بينما راح يكرر:

– أنت صديقي وكاتم أسراري وأنا أحبك فعلا يا مهند.

قلت مخذولا يائسا محترقا بما جرى:

– قل ما تريد يا بشار لم يعد بيننا ما يستحق الكتمان.

عندها رفع بشار قامته بكبرياء –كيف يرفعها بمثل هذا الكبرياء وأنا الذي نام في شعابه وأسرار زوجته في يوم واحد؟ وراح يمشي بين جدران غرفة الضيوف، بطيئا قويا شامخا متألقا حازما، ثم قال:

– الآن يا مهند عليك أن تنتمي إلينا، حزبنا لا يستغني عن أمثالك مطلقا.

لم أسمع.. يشهد الله أن ما قاله لم يسمعه أبدا، نظرت إليه وأنا أقترب من فمه عساني أفهم ما راح يكرره:

– نعم يا مهند أنا أخبرت "الرفاق" بأنك خير من يناضل معنا.

٢٠

ضحكت عاريا، ومشيت في ممرات البيت عاريا، لم أضحك طوال عمري كما ضحكت في ذلك الصباح، ثم، وبرغم أنفي..

انتميت "إليهم"!

٧ حزيران ١٩٨٩

المربع الضوئي

انغمست بين الدخان، مع نوع جديد من البشر لم تقع عيناي من قبل على واحد منهم، لم أعرف ما أفعل بينهم، تحاشيت عند دخولي أن أضحك أو أعارض.

كنت قد دخلت إلى قاعة واسعة، رأيت الدخان بتموجات تنث من ثغرات لحمية معلقة في رؤوس أجهل سره، متناثرة في ممرات القاعة على هيئة عميقة، لم أع جيدا قوة يقظتي، فقد أنكرتها مع نفسي، خلت بأني مجرد أكذوبة في حلم، وأن هذا لن يرد صوب عقلي إلا في الكوابيس وأطياف الطفولة.

القاعة التي كنا فيها قادرة على أن تخيف أي واحد مثلي، فهي من طراز غريب لم يمر على مخيلتي، مما زاد في حذري، لكن ما سمعته عن طريق الصدفة بين لي بأني موجود ضمن قائمة مخطوطة من قبل سنين عديدة لم تمر بها ذاكرتي، ولم أر ما يعنيه مسلكها أو ما تريد فرضه عليّ كفرد من الناس، لكني جدير بالوجود بينهم، حيث إنني كما قال أحد السادة – دفعت قسطا غير قليل من المساعدات الماضية المقطوعة من راتبي مع أني، وتلك

حقيقة لم أقلها بعد، لم أكن أعي أن شيئا من نقودي مهما يكن ضئيلا يؤخذ مني شهريا رغم أني قطعت من وظيفتي ما يقرب من خمس سنوات.

.....

كانوا يدخنون بشراهة

انغمست بين تموجات وسخة أرد نفسي إلى الوراء أو أردها إلى الشمال الغربي من القاع دون أن أتخلص، وشعرت كما لو أني أصبحت محور هذه التضحيات الخانية في القاعة بين هذه الكمية من البشر المحمومين على قضايا لم أفهم بعد مجراها لم تكن ذات أهمية بالنسبة لي، ولم أتوصل إلى التدقيق بها أو بطبيعة جريانها، كل ما شعرت به حفنات من الدخان التي أكلت شيئا ليس بالقليل من أعصابي.

.....

تهيأ لي أننا بانتظا شيء لم يعلن عنه، ولما رجوت صديقا لي أن يبين ما يدور، وهل أستطيع الخروج من هذا الجو الكالح المحشو باللحم والدخان أجاب أن خروجي لن يعينه بالمرة أنه ممكن فيما يتعلق به شخصيا، أجاب أن خروجي لن يعينه على خير إذا رآني واحد منهم، وكان يشير إلى أعضاء القاعة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وكأد لي أنهم ذو أعصاب خشنة يتمكنون بفعل انسحابي عنهم إلى شحن حملة شعواء على جسدي.

كانت القاعة ذات خارطة خاصة تساعد على تفاقم الخوف..

قلت لصديقي:

– ماذا تعني؟

_ عليك أن تبقى إلى نهاية الجلسة.

– ولكن، نحن واقفون منذ ساعة؟

– انتظر سرعان ما تعي كل شيء.

أدركت دون أن ألتفت إلى جهة من القاعة أو إلى عين من تلك العيون الغارقة في الدخان بأني لم أفهم من قبل منطق سيطرة ولم أع أبدا قدرة البعض على إيقافي.. بقيت في نفس مكاني مرتخيا على أصابعي مغموسا بين الدخان وبين الصخب الذي لم يكف والدائرة كدبيب النمل في أجزاء رأسي.

تمر في أذني بين ثانية وأخرى عبارات ذكية قادرة على جذبي لها جرس يستحوذ على جزء كبير من جلساء القاعة، لكنني أحسها من الداخل مسمومة سيئة، ولن تغني أي شيء، بل إن صديقي الذي جئت برفقته يتحرك بآلية مغرية وتمثيل صلب، حيث تحركت يده اليسرى إلى أعلى رأسه، بينما أخذت أهداب عينيه تغلق وفمه الدقيق يتسع.

ثمة من يصغي في قرارة نفسه أن ما يقوله صديقي ليس مقنعا، مع أن سامعيه يصغون إليه بكل طفولة، البعض منهم يحدق في كفيه، وكيف يلتصقان ثم يفتحان على كلمة جديرة يخط نطقها ويرميها على آذان سامعيه،

فتصيب النفوس كالسحر، بحيث إنني ربما لغبائي أو لفرط طيبتي – تصورته نبيا يغط مجموعة من العباد الموهومين بالنصر.

كانت جوقة المستمعت تهز رأسها بشطارة، ثم وجدت أن عدد المستمعين إليه يزداد واحدا بعد الآخر، مما أتاح الفرصة للحديث عن كل ما يريد.

ووجدت صديقي أن يعلمني عما يمكنه أن يفعل في جو منخنق كهذا وبالنسبة لي حسب؟.. رجوته أن يسهم في خروجي من هذه البؤرة التي تزفر الدخان والثرثرة كأننا في قاطرة مهووسة خربة تدخل في نفق؟ قلت له كل شيء عن نفسي وكيف أني أضيق بأجواء كهذه.

راح يضحك مني يربت فوق ظهري كطفل لم يع بعد الخفايا الدنيا ولم يدرك فواجعها واندفاعاتها لم يعرفوه أين حدود نفسه بين بقية الحدود وكيف عليه في مجتمعات كهذه أن يفطن إلى حقيقة التي بين يديه وكدت أسقط من قمة رأسي.

تحركت يداي وبعض أوردتي وانزلقت بين الدخان والكلمات التي أتعبتني، سمعت صديقي وهو يدور إلى جهة ثانية من زوايا القاعة استقبلته العيون بحفاوة حسدته عليها، وبدأت مثل بقية الرهط أسمعه من جديد نفس الكلمات مع ما فيها من عذوة حرفا، إثر حرف ولم ينتبه إلى وجودي، بل تحرك في حدود نفس الركات المسرحية، مع شيء من تسليط قدرته على

عيون مستمعيه – وراح يحكي كيف انحدرت سلبيات الساسة وكيف غزا الفكر العلماني سلوك البشرية، ولماذا أخذت عقلانية العلم والمخترعات أولوية القيادة العالم متحضر.. وكيف أنه شخصيا قد استمد وجوده من التخطيط الحذق لكل النظريات التقمية السائة في المجتمعات الفطنة التي تسبقنا نحن المتخلفيون بمئات الأزمنة المضيئة.

أما عن السعال الذي يطلقه مع الكلمات، فكان شبه كليشة تسند كل عبارة جيدة يقولها.

مع كل ما أثاره من لغط وأسئلة حوله، كان علي أن أخرج ولم أدرك أين الباب، كانت القاعة من السعة والزوايا والمنحنيات والمتعرجات ما يجعلني أدور في نفس مكاني بين هذا الحشد المشحون بالدخان والبنطلونات العادية ذات الطبقتين والسعال، وتبين لي بأنني قد خذلت، وأن عليّ أن أفعل أي شيء من أجل هواء أشمه بنقاء وصمت.

لكن ما يدور في رأسي يعيدني إلى صديقي بحكم وجودي بين مجموعة لا أعرفها، كنت بحاجة حقيقية إلى طاقة هائلة تدفعني لتخطيط فكرة أو ترفعني عاليا كي أصرخ في ممرات القاعة، سيما وقد أدركت أن دواخلي تتأزم بفعل انسحابي وحيدا وفائضا كأنني مغترب من عنصر غير مألوف حتى بات وجودي مخطوءا بل ودون معنى.

بعد قليل فوجئ بإرهاصات معوية تنطلق وكأنهم تقيأوا شيئا مرا في وقت واحد، وغرقت بين نقاشات غريبة طفحت بالتحذيرات والشروط، مما لم يكن مناسبا والجو الذي اعتدناه في البداية، وتركت الأمر غاضبا لم أحاول طرقه على مسامع صديقي، فقد تأزمت فيما بينهم ولم أع مكاني في هذا كله.

انكفأت على الجدران تنقلوا ما شاء لهم في بحر ثوان قليلة، مرت أجسادهم تحتك بي وأنا على الحائط أشكو من حرارة أنفاسهم ودخانهم جماعت من الغاضبين تروح تجيء وأنا بينه أشكو، وفجأة تقررت أمورهم كي تناقش في وقت غير هذا ربما في وقت أكثر سرية من الوقت الذي كنا فيه، وشعرت كأنهم يعنون بهذا ضرورة إبعادي لئلا أفضح سرا أو أكتشف عيبا لم أتكهنه ولم أفكر فيه.

كنت بينهم أعجب نفسي

أيقنت أن وجودي –كهيكل عظمي له أصابع وأطراف وجمجمة سليمة – أشبه بالندبة المريضة، حاولت كأي مؤدب خجول أن أسحب نفسي وأتوب عن هذه القناعات التي أوفدتني إلى هذا المنزلق.

همست في أذن صديقي أن يخرجني إلى الهواء ويسلخني ككيان غير مرغوب فيه عن قاعته الخائفة، وبالتالي أن يرفض إيداعي بين نفثات دخانه وأفواه ترغي، أكدت له أن بقائي لن يزيدهم ثقة بما يفعلون وأن وجودي فأنا

مهما كنت ومهما ساهمت فليس من الطبيعي أن أختنق أوردتي بين زوايا ومنحنيات هذه القاعة المأزومة.

قلت له: أرجو أن تفهم.

لم أزد عن هذه الكلمات الموجزة التي أجد من حقي أن أقولها أينما كنت، بل وفي كل بقعة، لكن صديقي بدا متوترا مختنقا، لم أفطن إلى يده وكيف ارتفعت عاليا لتسقط فوق عيني وأني.. كان سقوطها عنيفا جارحا، كأنه استخدم كل أظافره في تشريح ملامحي، بل أقول الحقيقة، كنت قد رأيته لكني لم أستطع الفرار مما تهيأ لي أنه هزار عابر، أما تكون طيبا في أحلك ساعات عمري!

أعجت بفعل انعكاس الضوء المتسلط فوق عيني صور مخطوءة للقاعة..

هنا أجد السقف حيث رؤوس الرجال، وانبعجت بفعل الضربة كل المرئيات، وجدت نفسي غارقا في متاهات شبه رملية أتحسس العرق والحرارة والخجل.

نزفت فتحة منخري اليسري شيئا من الدم.

لم أع السبب الذي من أجله جذبوني إلى مكان آخر أسفل تلك القاعة، حيث مررنا بسلم عمودي ذي عر درجات في أسفله.. بينما غمرتني

الدهشة والفزع، تهيأ لى أن عيني لن ترَ بعد شيئا من الضوء، ثم بقيت وحدي.

هبط الخوف عند قمة رأسي مرة واحدة.

ثمة ما يشبه القهر يدغدغ أعضائي، كأني دخلت أول خيوط الجنون، كدت أنتقل بفعل انغماسي في العتمة، من حالة إلى حالة، وأرست في تلك الظلمة سفينة أوهام عشقت أن أهاجر فيها إلى أبعد نقطة عن جسدي، غنيت حزني مثل طفل. وكدت أن أزيد آخر مقطع مما غنيت – غير أن لساني أكمل أغنيتي وقد أحاطت بي الرهبة من كل زواية، ذقت مئات من البكتريا، انحسرت بين جفوني وشعري وثيابي.. عرفت من جراء الحك والعرق أن بقائي هنا هو المستحيل، ليس لي أن أعتاد على مثل هذا الجرم الفاحش، بل إن الدقائق التي مرت على هنا – يجب – بحكم القوانين التي تضمن حماية الإنسان كجمعية "الرفق بالحيوان والطيور" – أن تعوض في واحد من البشر المذبين بحقي، وإن اقترفت أية خطيئة أو جرم بحق صديقي "احتفظ بهذه التسمية للعلم والإشارة على طريقة التعريفات الوظائفية" لهو أمر طبيعي للغاية.

ومثل طفل شبعان بقيت أغني.

لكن هذا كله لن يوفي ألمي، فأنا لا أطمع في شن نقمي على أحد، أريدهم أن يتركوني، فهناك في عالمي مجموعة نظيفة من السناء، يمكن أن

أخلق منهن السعادة، وهناك أشياء من البساطة والعطاء بحيث تكفي كل الناس في كل مكان.

لماذا جرت العادة إذن، على وجود هؤلاء السادة في متعرجات القاعة وليس من شيء يستحق البقاء، ماداموا كلهم يعرفون ما يقال، ويستمعون بإصغاء مهذب لكل ما يدركونه، بل يمهتنون معرفته بلباقه وكبرياء.

إن هذا كله يشبه المسرحية التي يفشل مخرجها – لعجز في وعيه – لكنه تحت خضوعه للعادة وخوفه من الجمهور يضطر إلى إكمالها حتى مشهدها النهائي، والسادة الجالسون عند أعلى رأسي الذين يتمشون أو يدخنون، الذين يضحكون بإفراط، يعرفون سر وجودى بينهم، يشبهون إلى حد ما مخرج المسرحية، وهم في القاعة بانتظار شيء كلهم يعرفونه بدقة، وها هم يتساومون فيما بينهم، على أبسط المنافع، وليس من هموم لهم سوى الخضوع التام لما جرت عليه العادة، من أن يجتمعوا ويدخنوا ويرفعوا أنوفهم ما شاء لكل واحد الرفع، وإلا، فليس ثمة مبرر لكسب الرواتب التي أحس كميتها من خلف ملايين الكلمات.

أدركت أني قد تعبت من حقدي، لذلك انفجرت صارخا وأنا أدق على أقرب الجدران أعض على يدي، خلت أني قد انتقلت نهائيا إلى الحالة الثانية.

سرعان ما عللت كل شيء يمر بي على أنه حلم بائس، وأن ما يدور حولي ليس غير إشارة إلى حالتي المقبلة، لكن رطوبة المكان وراءه البول كانتا توحيان لى أن ما أحسه لم يكن حلما وليس إشارة.

قد أقول بأني عدت إلى بعض صبري وهدوئي. فتشت في مكاني عن كل الفراغات، فلم أجد منفذا إلى شيء، إن ما أراه الآن وما أشمه إنما هي أشياء موجودة ضمن إحساسي الدموي بوجودي، وأن الدم الذي يسيل من أنفي حقيقي جدا.

وأدركت أن الدم لم ينقطع، وأنه عليّ أن أركن في زاوية من الزوايا وأرمي برأسي إلى الخلف في نقط النزف.. وتأملت الظلمة جيدا.

بعد وقت قصير، فوجئت أن عيني قد تفرستا في المكان، رأيت أخشابا ومسامير ورمادا، وأعقاب سجائر وثلاثة أسنان دون قاعدة، مكسورة من جذورها.. قلت إنها ليست بأسنان طبيعية، وأنني في هذه العتمة المخنوقة اتهيأ كل شيء دون حقيقته.

لكن هذا كله شدني إلى خوف مبهم دون إشارة باهتة.

ثم مشيت إلى السلم، بينما قطرات الدم لم تزل تسيل، أمسكت نهاية اللم بكل أصابعي كى أتأكد من هيئته، وبالتالي كي أجمع قدرتي على تسلقه.

ثمة ما بين صدري وعنقي، التواءات جعلتني أحس أن موتي يقترب مني، وأن النهاية قد بدأت تتضح ثانية إثر ثانية مع أني كنت أحس – خارج حدود مكاني – بعشرات المطامع الدنيوية الجميلة التي جمعت من أجلها حفنة من المال (؟).

ولما تاكدت من قدرتي على تسلق السلم، كان هذا لم أفعله، ولم يكن السلم طبيعيا.

وصلت إلى نهايته. وتخيلت أن يدي لو دفعتها بغلظة، فسوف تفتح المربع الذي فطنت إلى أبعاده من خلال الضوء الساقط بين حدودى أهدابي، لكنني لم أفعل، وتركت أمرا كهذا حتى يحين انصراف المحتشدين في القاعة التي كانت فوق مكاني تماما.

نقشت – وأنا في حال لم أعتدها من الخشوع والرهبة – على أرضية المكان، عبارات غير منظورة كانت قد تجمعت في زوايا مريضة من عقلي، لم أستطع بطبيعة الحال أن أعي عدد العبارات.. فطنت إلى أنها تراكمت في بقعة واحدة، وأن الكلمات المحفورة قد صنعت حفرة صغيرة، سرعان ما وجدت في داخلها أظافر معوجة أو ملتوبة يحوظها دم فاسد تمكنت من تعيين زمانه رغم العتمة، ولم يكن الدم قد جف، ولم يكن قد تكلس – بعد – بين الشقوق.

رميت الأظافر في الحفرة ثم ردمتها من جديد على ما فيها من عبارات سخيفة وأظافر مقلوعة، ثم كدت أبكي، فقلت لنفسي:

– ماذا كانوا يفعلون؟

بدأت بين ثانية وأخرى، أهمس في أشباح المكان، أتهيأ أى وجه أبحث عنه فأصنعه بدقة بين الخفايا الظلمة، واستمر في الحديث إليه، حتى آمل منه فأصنع آخر غيره، وهكذا، تعودت أن أحكي وأهمس مع أشباحي ونفسي:

– ولكن، إلى متى يمكن للظلمة أن تشملني بهذا الرعب الهادئ الوقور؟

ومرت (صديقتي) مع أشباح الغرفة، تلتها أغلب نساء العالم المشهورات، ابتداء من (آن مارغريت) التي أحببتها في طفولتي وابنتهاء بـ(دوريس داي) التي غمرتني في أحد أفلامها المجسمة بقبله خاصة.

وأدركت أني قد جننت.

تساءلت: فيما إذا تهيأ لنوعية من البشر – أنا من بينها – أتتحرك لرد هذا الطوفان المر المغموسين به حتى العنق، فماذا يمكن أن تفعل؟ مع أن هذه المجموعة – المعينة – من البشر لم تع بعد أول الخيط ومدى صلابته أو شفافيته، بل تجد السوء في تشويهات مخططة مسبقا، حتى أني –كمثال ليس غير – أجد الرعب في مجرد التمحيص فيما يحدث أو فيما حدث، سواء من كوني أخاف على وظيفتي وعلى مخصصات غلاء المعيشة، أو أن

أكون خائفا على أعصابي ولحمي وأظافري وأسناني، وبالتالي على حريتي من أن يقلعوا كل ذلك عن، وأنا الطيب الذي أعرف عن نفسي أدق ما يعيه كل إنسان عن ذاته.

هل يمكن أن أغل وأحتمي بهذا العجز الصبياني المضحك..

– ماذا هم فاعلون يا ترى؟

– لكن المهمة التي يديد أن أدخل في تنفيذها ليست معروفة بالنسبة لي، فإننا ضمن سياق الحوادث التي أحسها وأحس مرارتها التي أمر بها مجرد (واحد) قد أردك بفعل إهانات بعض الناس: إن السوء والرهبة تسوران عيني ويدي وشراييني من كل جانب، حيث أقف وأتحرك وأنا دون أساس ودون جذور طبيعيه في شن حرب من أيما نوع. وهذه هي الخاتمة بالنسبة لي وليس بعد هذا ما يستوجب الضحك من نفسي أو عليها، مادمت موقنا بالذي يجرب لاحقا وبالذي جرى أمامي سلفا.

– وإن تمكنت أن أجعلها البداية، فذلك وحده المستحيل بالنسبة لرجل يملك أعصابي ومقدرتي الساذجين، وبالنسبة لي أيضا، أجد أن عظامي ليست صالحة للتهشيم أو العض أو التقطيع، فأنا رغم حقدي في هذه الساعة لن أحتمل إهانة أعضاء القاعة الوقورين المحتشدين زرافات ووحدانا فوق مكاني المعتم هذا، وحيث بدأت بفعل اعتيادي على عتمة المكان وسكونه أسمع بعض ما يقولونه – وصديقي بينهم كما يبدو – عن الترهات

الحضارية التي تشنها القوى الرجعية المنسحة للتخفيف عما استحقوه من ضرب في المدة المنصرمة، وكيف أن هذه القوى المتطرفة تشن حقدها على التقدميين الحقيقيين في كل مكان، وكيف أن الجدل المتعمد حول القضايا الراهنة لس من هدف له سوى إبعاد الجمهور عن أزمات الحكم الغامضة.

كنت أظن – وهذا ما كان يطمر إحساسي بقوتي – أن اكتفائي بما أسمعه ليس تبريرا كافيا لحقدي، بل إن عجزي عن إدراك ما يقال يوقفني تماما عن الرد حتى على امتهاني في هذه البقعة الدامسة، وأن على قبل البدء في إعطاء حكم معين على وجهة ما، وأن أعي ما يقال أولا، وهذا كما يبدو أضعف أنواع الإيمان بالشيء!.

– لكن مشكلتي وحدها، هذا النوع الغريب (وربما الطبيعي)، من الناس بل كنت أجد أن بقائي في هذه العتمة هو اللعنة الحقيقية التى تطرفوا في فرضها على، وأن ما يجب فعله يتخلص في الخروج من هذا المأزق المضحك الذي لم أتخيله من قبل ولم أظن إليه مطلقا.

– إن وجودي هنا حكاية خرافية، لم تخطر على بال أحد وإن حكيتها – وهذا ما أرجوه – فليس هناك من يصدق منها حرفا، إنها من الحكايات السرية – جدا –التي لم ترد في ذهن أحد من أفراد عائلتي أو من أصدقائي .فكرت، وقد تبين لي أنهم تشاحنون فيما بينهم – على أشياء غير مفهومة لأنها غير مسموعة بشكل جيد – إن شيئا ما ينكسب في دواخل السادة،

وأهم بين ما تهيأ لي من خلال المربع الضوئي، قادرين على مغادرة القاعة فيما إذا أصابوا خيرا لكل منهم، وذلك عن التقريرات التي قدموها التي أشك بأنهم قد سبق وقدموها بأسلوب ثان في وقت سابق لهذا.

– من يدري؟

– ربما كنت واهما وربما كنت على حق؟

انطفأ المبرع الضوئي، وتأدت بأنهم قد خرجوا نهائيا من القاعة، لذا كان عليّ أن أبدأ، وأخذت من جديد أتسلق درجات السلم العمودي، وفوجئت هذه المرة: أن صعودي تصحبه تشنجات مضنية وحادة في مفاصلي، وأن حرارتي –كما بدالي – أشد مما كانت.

اخترقت ما يشبه الرائحة الزنخة، في ممرات هوائية صادفتني عند بعض الدرجات، مما جعل صعودي إلى أعلى مصحوبا باشمئزاز طفولي لم يصادف أن عانيت منه قديما، لكن ما كنت أعرفه إلى تلك الدقيقة لم أنسه بمرور الوقت هو أن الدم لم يزل يتقاطر من فتحة أنفي ولم ينقطع تسربه منذ إصابتي.. لكنه أخذ منذ ثوان قليلة يتسرب ببطء ولزوجة، ثم في أن آخر كالنذير المتصاعد من أرض وسخة، حتى سئمت من طبيعة أنفاسي، حيث اختلطت بتلك الرائحة الزنخة التي تجري في تموجات هوائية خاصة التي تبعثرت عند مناطق لا أدري مكانها ولا أعرف لون ما فيها.

سحبني خوف أعمق.

غمرتني ذكريات سخيفة ما كان لها أن ترد على مخيلتي، أقلها في لحظات متوترة كهذه، حيث عدت إلى الوراء قبل شهور طويلة، كيف أسافر في قطار الركاب الجديد، مع مجموعة من النساء تتفاوت درجة جمالهن من نسب مئوية مرتفعة إلى نسب مئوية أعلى، وكيف أن أصدقائي تساءلوا بحرارة عن سر أسفاري، بل إن صاحب الفندق كان يراني في كل مرة مع أنثي جديدة دون أن يسألني عن السابقة، حيث أوهمته عدة مرات بأن الجديدة هي نفسها التي كانت معي في المرات السابقه، وأغلقت ذكرياتي لدقيقة.

لكن حين وصلت إلى منتصف السلم تراءى لى بأنني سأقع من جديد على نفس مكاني، كنت أعرف أن سقوطي هذه المرة لن تشفعه أية محاولة في الصعود، لذا حاولت بكل ما تبقى في جسدي من دم ولم يسل بعد وبكل ما في أعصابي من تحمل أن أصعد.

واعتقدت في ساعة يأس سبقتني، أن الدرجات المتبقية لم تزل بحاجة إلى تعب مضاعف، وأن هذا ما يبعث على خوف أعمق وعلى إعادة ذكريات أعتق، وهذا ما لم أكن أريده لنفسي أبدا.

تمكنت أن أصعد إلى نهاية السلم.

كنت مختنقا بمزيج حاد من الكآبة والخوف، وتاه عني جزء مني، أصبحت العتمة بالنسبة للمكان بأجمعه – خارج وداخل مكاني – مثل غلاف أسود داكن.

كان الظلام أسوأ ما صادفته منذ بدء حياتي.

استقامت بين خلايا رأسي نثارات مضحكة من وقار الماضي وطبيعته الساكنة الجامدة، المعتمدة على النساء والبطر البرجوازى اللبن الممتع الفارغ في الوقت نفسه، ورأيت أني مغلف الساعة بحياة حقيقية دامية قد أثبت فيها جدارتي أو انتهائي إن شئت.

وجدت نفسي مغلقا بأشياء صعبة، وأنني بتفاوت الدقائق أتقعر في منزلقات عجيبة غير مألوفة، كانت الظلمة القاسية قد غلفت المكان، بحيث لم ينفع حتى اعتيادي على أى منها حتى الأشياء البارزة، وهذا ما كان يوجعني في أدق أعصابي، وحين مررت بأصابعي في بعض فراغات السقف خلت أني قد وجدت مكان المربع الذي وصلني من نثارات الضوء المتطقع، لذلك حاولت بكل جهدي أن أرعه إلى أعلي ما استطعت، وإذا به صلد ومتين قد يحتاج إلى أكثر من اثنين ليدفعاه عن موقعه.

وانتهيت إلى وجع هائل بسببه اليأس.

إن تراكمات الذكريات التي وفدت على رأسي في تلك الساعة، وتراكمات الخوف من أعضاء القاعة، ومن صديقي جعلتني أفقد السيطرة على تنسيق أموري بخفة واتزان.

كان ذلك يشبه إلى حد ما، فاجعتي يوم فقدت وظيفتي الأولى وعشيقتي في ليلة واحدة ونهار مقفر.

لم أكن أتخيل كل هذا بدأ، فأنا قد تمكنت من رفع المربع إلى مسافة عشرة سنتيترات أو أقل، وقد أستطيع جمع قوتي في حركة شبه انتحارية وأدفع المبع إلى أعلى نقطة، ثم أترك يدي في الفتحة التي أتمكن من أفارغها أو أتركها إن اتسعت الفتحة – رأسي الغض ابتداء من الفكين، ثم بعدها من جديد أرفع المربع نهائيا كي أخرج.

هذا كله يشبه التوصية بالموت، فها أنذا أوجد لنفسي فرصة الموت بأسهل الطرق، لكني ربما أصل في النهاية إلى ثبات قدرتي على النجاة من هذا الوجع الذي فرض على، ثم بالتالي أثبت لنفسي على أقل تقدير بأن (إنسايتي) لم تهدر ببساطة، كأن يتركوني أسفل القاعة كي أموت بسهولة ليجعلوني مجرد (تابوت) يحملونه إلى مقابرهم بسهولة أيضا.

وتلك هواية مضحكة ومضمونه الجانب من أغلب الوجوه.

كان هذا وحده هو السبيل إلى خروجي – ولتكن ملامحي هي الضحية – فلم أكن أفكر في شيء آخر، قم قاومت بحركة انتحارية فعلا ثقل السقف المربع الذي أخذ يرتفع، وقاومت بحركة طاحة بالحرقة كل ما تبقى من المربع، وسمعت وأنا في شدة انفعالي، صوتا يشبه صوت الحديد المكور وقد انزلق عن المربع متد حرجا عنه إلى بقعه ثانية خارج حدود المربع.

همست في ذاتي: أن تلك الحركة جديرة باحترامي.

كان المربع عاديا وخفيفا باستثناء الثقل الموجود فوقه الذي لم أتخيله في عقلي بعد، ثم انفتح المربع، وخرجت.

تلمست ذلك الشيء الذي انزلق عن المربع – حسبما حدست – حديدا من الصلب أكثف وأصلب من الحديد العادي، وحسدت نفسي على عنادي وجرأتي في مقاومته، وعلى تلك القدرة التي جعلتني أتخلص من ذاك المكان المتعفن مع أني في الوقت نسه كنت قد وقعت منكفئا على ظهري من التعب، ومن المرارة التي اجتاحت بعلومي.

والآن، أصبحت في القاعة.

بحثت عن أزرار الكهرباء كي أضيء المكان وأرى من أية ثغرة أستطيع الخروج، لمست الجدران بدقة، والتويت مع التواء كل جدار، ثم عثرت على زر واحد، بعد ثانية كان المكان قد أضيء من جديد دون دخان ودون أحد.

كانت القاعة هي فارغة، منظرا لم يأت على خاطري "أن اعوجاجها وهندستها أغرب منها حين كانت مملوءة بالناس والدخان والبنطلونات ذات الطبقتين"، إنها مدينة صغيرة داخل مدينتنا.

بحثت في زوايا القاعة، في منحنياتها، فلم أجد الباب، ليست ثمة نافذة، أعدت البحث مئات المرات ملتويا في المرات، منبعجا على هيئة إنسان محدودب في المنحنيات، أخفض رأسي ثم أرفعه أنظر في كل الثغرات

الطبيعة منها وغير الطبيعية، لعل ثمة ما يوحي بالخلاص، لم أجد منفذا إلى الحرية والهواء والشمس.

لم أفطن إلى دمائي التى تزفت من منخري الأيسر على طول وعرض القاعة كأنها تبين للقادمين الجدد – من بعدي – أنني بحثت قبلهم عن منفذ ولم أجد، لكن هذا ليس معناه اليأس، فربما جاء بعدي من يحمل في ثنايا لحمة أو ثيابه الداخلية سكنيا يثقب فيه منفذا إلى الحرية، أوي قتل فيه أحد أعضاء القاعة، وبعدها يموت وهو يضحك عن بعد هائل بصلة عن نسائه وعالمه الهادئ النظيف، يضحك للحرية التي سلبوها، التي رآها في القتل، يضحك للنساء وقد أحب منهن العشرات، يضحك للهدوء حيث امتهنوه دون ذنب ودون أن يجدوا في عينيه الطيبتين أيما خطر منه.

يضحك حيث بكيت أنا، يقتل حين عجزت أنا، ويصرخ حيث أرتميت صامتا.

إذن لم يعد هناك مستقبلي، لم يعد لي بيت أسكن فيه وأنتظر الفجر بين جدرانه اللينة العزيزة التي توحي بالعشق والحرية، لم تعد لي أسفاري في قطار التاسعة، فها هي خطواتي تتجزأ في محيط محدود، أعاني من غربة ليست موجودة – لصغرها وضالتها – على خارطة العالم، يتسمر خيالي علي كل ما قلت دون أن يكون له رد فعل ساحر على قلبي الذي سجنوه الذي لم يعتد على عتمه السجون وحقاراتها.

مطروح من عدد هائل، ساقط من أعلى كبريائي، يضحكون أو يكذبون أو يدخنون، وفى كل الأحوال أجدني مهملا ومغفلا ومهانا حد النسيان، لم أعد أملك أى شيء، أجد النهاية أكثر وضوحا، تبين لي أن حياتي على شفا بركن هادر، سرعان ما يقتلعني من جذوري فأنقطع من حماوته إلى نثارات كريهة الرائحة.

هنا، يتسلط فوق وحش مجهول، لم أتبين ملامحه بدقه، يغلق وجهي عشرات البحار والنساء والنخيل، يغلق عن عيني الرايح والحب والمطر، يمنعني من رؤية حبي وعائلتي وهوائي، بل يدخل في أحشائي ويمتصها ليجعلني أجوف دون قلب، دون إرادة، وبالتالي دون إحساس ودون عاطفة، تلك قد تكون المهمة الطبيعية بالنسبة له؟

أحس هذا الوحش في أعماقي، دون أن أجد في ذهني أو مخيلتي ملامحه الحقيقة :"إنه العتمة التى غرقت بها، الكبت الذي حولني إلى حيوان مقهور، الرعب الذي نزل في أدق شريان في جدي، إنه كل ما يسيء وما يقتل إنسانا مثلي".

يعشق هذا الوحش أن يراني خاضعا لما يرتئيه من سلوك، يعممه على كل الناس، وأنا وحدى هنا، أحس أن مئات من البشر كانوا قبلي، ممن قلعوا عنهم الحريات والأظافر والاسنان، وممن نزفوا كثيفا من مناخرهم ومن مسامات أجسادهم على طول وعرض القاعة.

إننى أحلم لما تبقى من حياتي، أحلم بخشوع ورهبة غائمتين عند أعلى رأسي، أحلم حيث لم يعد من شيء آخر.

خلت أني قد ركعت على أرضية القاعة، وتبين لي أن دمي قد جف نهائيا من جسدي، وأنني بحاجة إلى كمية مهما تكن قليلة من الدم، أمد بها أوردتي المخشبة، فربما استطعت الخروج – لاحقا – من هذا الجو الخانق الغريب.

وحدي.. وربما أشرقت أية شمس من أية ثغرة؟

وحدي.. في أيما بقعة من المساء والكون، وحدي.. ربما استطعت على هداها أن أكون في نقطة الضوء كي يراني أصدقائي فيوقفوا النزيف الدموي الرهيب.

وحدي..

وربما تخلصت من ترهات وذكريات هذه الرحلة الخاسرة في خلايا ومرئيات وثقوب الظلمة الخانقة.. وربما.. ربما.. رب.. ما.. أ..

بغداد ١٩٧٤

قشور العنب

منذ خمسة أيام، وهذا الطرق على باب البيت، أسمعه وحدي، ما إن أمضي لرؤية الطارق حتى تسألني زوجتي:

– ماذا جرى لك يا مهدي؟ أتنتظر شخصا أم تسخر مني؟

– لم ينقطع الصوت الذي يتسرب نحوي، إنه يضرب رأسي، ما إن يطول الوقت حتى أقطعه وانهض صوب الباب الخشبي، بعد أن كسرت بنفسي الجرس الكهربائي الذي كان (يرن) بقوة ويذبح أعصابي، بل، يشلني إذا ما جاءني ضيف أو زبال أو جارنا (عطية) المقرف.

– نبرة أحس بها، تمشي من تحت جلدي، لها رائحة أشمها، وأنا أقطع أمتار البيت نحو الباب، لا أحد يصدقني، إذ حكيت القصة عشرات المرات، أنسحب منهم على ذبذبه كما المعدن، تصع وجداني، طبول وأمواج بحر تطاردني، أقرب الناس إلى أوردتي – أطفالي – يقولون:

– بابا يسمع الشياطين تطرق الباب، وماما نائمة لا تدري بهم.

– فى الليل، أرى الغيوم كما البشر، أجلس في الحديقة، قرب الباب، لئلا يطرقه أحد، ربما كان جاري، وهو يعرف كم أقرف منه، يأتي بسرعه البرق يطرق الباب ويختفي، أو يطرقها من بعيد بعصا، أو حبل، أو حجارة، لكن (ابنه) أخبرني صباح اليوم أن أباه قد سافر منذ يومين ولن يعود قبل أسبوع آخر.

– أنظر إلى الغيوم والسحب البعيدة، أرى آلاف الوجوه تكبر مرة وتذوب مرة وتبكي مرة، إذا ما نزل المطر هادئا على أصابعي.

بهاء زوجتي، لا تصدق أن البشر بعضهم منذ آدم حتى اليوم كيف أنعها بما أصغي إليه، هي التي يأخذها النوم –كم أحسدها – ما إن ترفع رأسها الجميل على (المخدة)..

الواحدة ليلا، الزقاق فارغ، كلب واحد، نباحه ممتع، كنت أحب الكلاب وأمشي بينهم بلا خوف وبلا قشعريره، أطفالي يخافون من نباحهم وأسنانهم، لم يطرق الباب إنس ولا جان، وعندما انتهت الواحدة كلها، قررت النوم، سأنام هادئا وربما سعيدا، منذ وقت بعيد لم أحلم، قد أحلم الليلة وأرى بعض (أمنياتي) العجيبة، تحققت في حلم سريع عابر، شيء رائع حقا أن نحقق رغباتنا حتى إن جاءت في أحلام باهرة ستنتهي في الصباح.

ما إن رميت رأسي – مبتهجا فرحا – على مخدتي، حتى مسني هاجس كما الكهرباء (هناك من يطرق الباب) لن أخرج، مهما كان الطرق

عنيفا وجارحا، لن أخرج، أحتاج لى إرادتي وذكائي لئلا أجن ويضحك مني أطفالي وزوجتي.. والطرق يخفت، لم أعد أسمعه أبدا، ممتاز، كم هو رائع ومثير أن تحتفظ بهذا الجزء الخطير، من المخ.

أنام كما الصغار، ليس من طرق على باب البيت.

هناك رياح خفيفة، هواء أعذب من طفولتي، يأتي من نافذة الغرفة، كم أحسد البشر على نومهم الثقيل الساحر، ملايين لا تنام بلا طرق ولا كوابيس ولا هموم.. نباح الكلب مازال يطارد البيوت، يملأ الزقاق بالأمان، ربما أعثر على كلب نظيف وجميل، أريد كلبا كثير النباح، يغطي بصوته على أبواب الدنيا كلها، الكلاب.. أفضل حل لهذا الوسواس الذي يفترس أعصابي كل يوم.

ينبغي أن أختار اسم الكلب الذي سيعيش معي، في هذا البيت، سوف يعتاد أطفالي عليه وأرغم زوجتي على العناية به، ماذا أسميه يا تري بوبي؟ أم ساري؟ أم كشكش؟ كلا، يناسبه، مادام في بين محترم أن يسمى: باشا، أو شيري.

سأترك الكلب عند باب البيت، أو عند سياج الحديقة، هناك أفضل، لئلا يضرب الباب بذيله، لا أريد أن أسمع طرقا على الباب، أهلكني ما مربي، من هجوم وعواصف.. كم الساعة الآن؟ أي غول كان يأتي إلى بيتي؟ كيف يهرب في لمح البصر، يمزق رأسي يتركني مخبولا ومحترفا؟

رماد في السحب البعيدة، أراه من خصائص نافذتي، كانت السماء نقية قبل نصف ساعة، ما هذا الدخان الذي يرى هذا البركان يشع في الكون، هل أخبر هذه المرأة بما أرى؟ أعرف أنها لن تصدقني، هي لا تريد أن تري ما أرى، ولا تريد أن تسمع ما أسمع، جزيرة من العظام والنخيل والجنون.. تلك صفاتي، اسمها على لساني، وأضحك، كيف تربط العظام بالجنون، وما شأن الجنون بالنخيل؟

الطرق على باب البيت، أحس به مرة أخرى، ألا تكفي هذه السحب الداكنة المحروقة؟ حبوب الفاليوم بين أصابعي، لكنني أريد امتحان جلدي سأرفض أن أبلع هذا الدواء الخبيث، مزق الكثير من خلايا جسدي وتناثرت مساماتي ذات الشمال وذات الخراب، لكن، من يرحمني الساعة، وأنا أسمع هذا الطرق الفاجع يزداد قوة؟ كيف تمر هذه الغيوم على سطح بيتي ومتى يهدأ البركان المبلل بالرعد والبرق والرماد؟

لا أحد يسمع هذا الصوت، عطية المقزف ينام كما الحمار، هذا رجل سعيد، رأسه من حجر، إذا كان قد سافر منذ يومين، شخير من أسمع في الليل إذا؟! هل جننت؟ زوجتي تقول كلاما كهذا وتضحك من ملامحي التي أصابتها التجاعيد والحفر العميق، أنا لا أرى ذلك في المرأة، مازال وجهي كما كان منذ عشرين سنة، أحتفظ برأس جميل وأسنان بيضاء وأنف روماني

ساحر، صحيح أن لحتي طالت ولم ألتفت إليها، لكن، لي ثمة ما هو أسهل من قطفها والتخلص من أشواكها فورا.

أدري أن زوجتي لا تحبي، أنا على يقين أن الزواج محنة مضحكة، لا توجد في الكون كله امرأة تحب زوجها، وإلا، كيف نفسر الخيانات التي صار شكلها أكبر حجما من سجلات الزواج، كنت أعمل في محكمة شرعية، يأتي سبعة للطلاق واثنان – فقط – للزواج، والسبب هو نفسه لا يتغير: الخيانة والضجر.

الطرق يخفت الآن.

منذ خمسة أيام والطرق على بابي طبول حرب صاخبة، لم يهدأ كما هو اللحظة بل اختفى، جسدي يهدأ عندما يختفي الطرق على باب البيت ربما أنام.. . ربما.. بدأت.. أنام، نباح الكلب يساعدني على النوم، غدا.. غدا.. سيأتي (باشا أو شيري) إلى البيت.

غدا، أتخلص من زوجتي مادام (شيري) سيأتي إلى البيت، لا يمكن أن أحتفظ بكلبين في هذ المنزل الصغير.

شيء واحد حدث في الصباح ما زالت – صراحة – لا أفهمه أبدا، من هم هؤلاء الذين أرغموني على ترك البيت بعد أن طوقوني بهذه الثياب البيض الضيقة، يترجونني – امام أطفالي وزوجتي وجاري عطية – بسيارة بيضاء مغلقة (أما قال ابن عطية بأنه مسافر؟).

أتذكر بأنني كنت هادئا، عندما غادرت بيتي، بيتي الذي لم أعد إليه بعد ذلك اليوم أبدا، فقد أعطوني غرفة نظيفة، أنام فيها وحدي، الجميع يطرق باباها، يسأل عني، وأعترف بأنني لم أتعب من فتح الباب، أسأل عمن هناك؟ لم يكن من أحد – أبدا – خلف الباب، لكنني مازلت أفتحها وأسال: من يكون الطارق؟

مرة واحدة فقط، كان هناك من يسأل عني خلف الباب – وهو يطرقها فعلا – كم يؤسفني أنني لم أره مطلقا، إذ لم أعد أتمكن من فتحها، مع أنها كانت أقرب إلى وجهي من.. يدي..

تشرين أول ١٩٩١

صديق بابا

بين بابا بيته وشباك غرفته ليس غير متر واحد فقط إذ رآها تمشي في الزقاق، يمكنه أن ينزع بيجامه ويرتدي بنطلونه وقميصه الوردي في دقيقة واحدة، بعدها سوف يمشي خلفها، يرى مفاتنها ويحلم – معادته منذ خمسة أعوام – كيف سيأخذها إلى فراشه؟

لم ينطق أبدا ولا بحرف واحد منذ أول يوم رآها فيه، كيف يمكنه أن يقول أى شيء في حضرة هذا البهاء الساقط من أعلي السماء؟ ثلاث سفن محملة بالشوق لا مكان لها غير قبله، لم يكن أكثر من عشرين سنة، ولم تكن غير غصن من السيبان عمره سبعة عشر عاما فقط برغم أن خطوط خذيها ودورة نهديها وخضرها الذي يُرى، كان يعطي فكرة واحدة: أنها في العشرين، بل وأكثر من ذلك إذ كان حجم الفخذ الواحد يوزاى ما تملكه (بتول) مسؤولة الواردة والصادرة في وزارة العدل التي يعمل فيها.

تمزق الحلم الذي عاش فيه، فهو يخسرها يوما بعد يوم، من أين لها الجبل الأخرس أن ينطق أمام عينيها؟ وفى المكان الذي تنتظر فيه (الباص)

كان يحدق بها دون أن ترمش عينيه، حتى تصعد وتغيب دون أن يفكر مرة واحدة في الصعود خلفها أو التحرش بها، فهي بالنسبة له، ذاك الكائن الذي لا يمس ولا يسال عن أى شيء، هي نبض قلبه الذي تفتت عن شبق وجنون وحب عارم.

فى ذاك الصباح الغريب، قرر أن يخبرها بما يشعر به، سوف يقول بأنه (يحبها) بل يريد الزواج منها، وأنه سوف يعشقها إلى آخر أيام العمر...

كلا، سوف يقول بأنه لا يمنع نفسه أن يكون خادما لها، وأن واحدة في جمالها أو نصف ما تملك عن إغراء وعذوبة لتستحق أن يفعل المستحيل حتى ينالها أو ينال أصعبا من أصابعها، كان يعرف الحب على أنه نوع من الموت إذ ما أراد الحبيب ذلك.

نعم سوف يعترف اليوم بما كان يحس به من شوق وهواجس وفواجع وأحلام عاش فيها آلاف الساعات دون أن تدري به تلك التلميذة التي اسمها (زينة) التي ما رأى (بتول) مسؤولة الواردة والصادرة في وزارته تذكر فورا حجم الأمة وشهوته وحجم دموعه التي لا تريد أن تنكسب على خذيه ليهدأ.

كان يفكر فعلا في الاعتراف بين يديها مهما كان جوابها ومهما كلف أمرها، لكنها اليوم مرت على باص المصلحة وفارقته مسافة أمتار، رأى رجلا في الستين، يبتسم لها،ثم يفتح باب سيارته، بعدها انطلقت بهما سفينة الخيبة تاركه خلف دخانها شبحا في العشرين من العمر.

– من يكون هذا العفريت الذي راحت معه زينة؟ بينه وبينها ثلاثة أضعاف عمرها من السنين.. ربما كان عمها أو قريبا غائبا غائبا عاد إلى أهله بعد حين؟

– لم يذهب إلى وزارته، لم يستطيع ان يرى سوى ابتسامة ذلك العفريت الذي سرق الشمس من أمام عينيه، وعند نافذة البيت، بيته الفقير، ترك رأسه يفكر في كل شيء إذ لا شيء في الدنيا كلها بات يستحق أن يفكر فيه بالنسبة له، كانت زينه ليست مجرد حب يغزوه، أنها أول ميناء سينزل فيه وآخر ميناء سيأوي إليه.

بعد الواحدة ظهرا رآها من شباك غرفته، تمشي ببطء يوحي بإراق لا يناسب عمرها، كانت تحمل فوق رأسها جبلا من الدخان، يلتوي عنقها تحت حرائق كاد أن يشم رائحة اللحم الذي يشوي الآن أما عينيه، ماذا تراها فعلت مع ذاك العفريت الثخين الذي تورم جلده من المال والشبع والوجاهة التى أحس بها خلف سيارته الثمينة؟ ماذا فعلت زينة في هذا الوقت الذي امتد من مسلخ يأويه إلى مسلخ يذبحه، من غضب أحمق كاد يطغي عيه؟

فى لحظة باهرة من زمن المسلخ الذي عاش فيه، من الغضب الذي مس رجولته وشل عله، خرج من البيت، ربما دون إرادة، اقترب منها، يريد أن يعرف ما جري، تمكن أن يقول بغضب جارف:

– زينة.

وما إن أدارت رأسها إليه، حتى انقلب الغضب الجارف إلى خوف عجيب طمس فيه إلى عنقه وهو يتمتم:

– عفوا، أنا آسف.

ثم عاد خائبا خائفا لأي فهم سر ما جري في تلك السماحة التي لا حساب لها في الزمان، كيف عله بعد اليوم أن يظهر في الزقاق إذا ما مرت فيه زينة، وماذا عليه أن يقول – هو الجبل الأخرس – إن ما سألته، هي نفسها، عما أراد؟ أي كابوس هذا الذي يصنعه بيديه ثم يدخل فيه، نظر من وراء النافذة إلى آخر خطواتها قبل أن تختفي في الزقاق الذي كان بيتها أول بيت فيه عنها، أصابه فزع مراهق خبيث لذيذ عندما وقفت زينة عند رأس ذاك الزقاق، وراحت تحدق صوب المكان الذي هو فيه، يعرف لأنها لا يمكن أن تراه لكنها – ليس من شك – تسأل عن ذاك السر العابر الصغير الذي جاء به خلفها بعد خمسة أعوام طاردها فيها ولم نطق بشيء سوى البلاهة والسكون، تماما كما يفعل أى تمثال من خشب مبلل!

وبما، لما يكن هو غير هذا الخشب المبلل بالآهات، لا منتقد سوى الليل الذي ينام تحت أحلامه، تحت كتلة ذاك الشبق المكتوم الذي يناجيه على فراش مبلل بالحسرات والهمس الممتع تسمعه زينة على مسافه مائة متر من رأسه الذي يطير به أنى يشاء!

لماذا لم يفكر أبدا في الكتابة إليها؟ إنها أرحم الطرق في تفسير هذا الحب الذي ينهش فيه، ماذا سيقول في رسالته؟ إنه لا يفهم كيف يمكن للكلام المكتوب أن يحكي نصف ما يفكر أو يشعر به، سحنا، ماذا سيكتب عن الرجل الذي رآه؟ ذاك الذي أعادها عند الظهيرة حافية من القوة، تسحب خلفها جيشا مهزوما معفرا بالتارب والهموم؟

لم يسطتع أن يكتب سوى سطور، قراها أربع مرات ثم مزقها ورماها فوق كومة من وساوس أخرى، لا نفع في هذا الكلام الذي لا يرى فيه شيئا من آلامه وانفلات أعصابه.

رغبة وقحة في أن يمسكها غدا ويصرخ: من كان هذا الرجل الذي أعادها في الواحدة ظهرا بعد خمس ساعات من الفواجع التي أجهزت على نبض قلبه؟ لكن بأي حق يمسكها ويصرخ بها؟.. ليس من رابط بينه وبينها غير زقاق يعيش فيه، مربوط بزقاق آخر بعيد وتقطعه زينة في ذهابها ورجوعها إليه، وغير هذا لا شيء سوى أوهامه وخيالاته، اضطرب أيامه وليالله، وتلك مسأله تعنيه فقط.

فى الرابعة ظهرا، بعد ثلاث ساعات من عودتها بعد ثلاثة براكين عصفت برأسه وتسرب نارها إلى عظامه ودمه، رآها عند رأس الزقاق، في ثياب أنيقة لا تشبه ملابس الصباح، معها شقيقها الصغير الذي يعرف أن اسمه مروان، وقبل أن تصل زينه إلى منطقة الباص، تمكن أن يرتدي ثيابه

أجمل وأغلى ما يملك في دولابه الخشبي الفقير، لكنه قبل أن يغلق باب البيت، تذكر ما جرى، رغم هذا لم يستطع منع ساقيه من السير نحوها.

وهناك على بعد أمتار، شاهد المعجزة بعينيه!.

كانت زينة تبتسم وهي تنظر صوب المكان الذي تسمر فيه، ثم راحت تداعب مروا قبل أن تصعد سلالم الباص إلى طابقه العلوي وهي تبتسم لم تزل، هذه المرة لم تكن ثمة أسرار في ملامحها، إنها تبتسم له، ودون أن يدري أيما سبب لما راح يفكر فيه، صار يقارن بين هذا الجسد الشهي الطاهر الموجع الذي يراه كل يوم في غرته الوظيفية، عندها جرجرة – جون غراجته – هاجس وقح داعر مفاجئ: إن هذا اليوم هو نفسه اليوم الذي كان ينتظره منذ ألف وثمانمائة ساعة أو تزيد..

تسلق سلالم الباص، جلس خلفها . تماما خلف عطرها الذي تسلق بدوره سلالم الروح، صار يشم لحمها الطري الذي غطى على أحلامه طوال ملايين السنوات، وبعد معجزة أحس بها ند رصيف الشارع، جاءه المستحيل على أصابع تمتد نحوه بتذكره سعرها درهم واحد، كانت زينة بنفسها هي التي أعطته تذكرة المستحيل وقالت: تفضل!.

نظر إلى أصابعها، لا يدري كيف مد إليها نصف زمانه ونصف دموعه ونصف آلامه؟ كانت الدنيا تطير شمالا، مطر ينزل من آخر السماء، لكنه لا يصل الأرض، مطر يتسرب في ثيابه ولحمه دون أن يراه أيما كائن سواه،

أحس بميل طارئ إلى بتول، لن يتمكن أبدا من البقاء تحت جبة هذا القديس الذي صار يمشي معه، لا يريد أن يكون أمامها هذا الوقور المحترم البغيض، من كان في عمر (زينة) لا يحب النمط الرزين من الرجال، وهو لا يريد اليوم أن يخسرها أبدا بعد أن رأى المستحيل يجلس هادئا بين يديه، بعد أن صارت المعجزة طول أصابعه.

هذا يومه الذي كان يحلم فيه طوال خمسة أعوام من الذل والذبول والشوق والجنون، ينبغي الآن فورا، أن يقول كلاما تسمعه زينة، أى كلام فيه نبرة صوته، سيقول: أشكرك يا زينة، كان المفروض أن أجلس أمامك حتى أدفع تذكرة الباص، بدلا منك.

لكنها قالت، ربما كان ثمة طائر آخر ينطق معها أو ينطق نيابة عنها:

إنها أول مرة تصعد فيها الباص معي، يا منذر، وهذه مناسبة لابد أن أحتفل بها (كان الطائر يكرر الكلام ثانية وثالثة: إنها أول مرة يا منذر، وهذه مناسبة لابد أن نحتفل بها)..

راح يفكر: إنها تعرف اسمه، وتدري أنها أول مرة يصعد فيها الباص فهل تراها تعرف شيئا آخر عن حياته وأهله أو بعض طقوسه وأخباره وعشقه الطافر من عينيه؟ ماذا تدري أيضا؟

مد جذعه من خلف رأسها، وراح إلى فخذيها، خلسة، كم يشتهي النوم عن تلك السحب البراقة، الغيوم البيض التي تشبه أحلامه القطنية الناعمة،

كانت زينة تضحك في سرها، فقد رأته دون أن يفطن إلى الزجاج السميك البعيد الذي رسم رأسه الممدود عاليا بأسلوب مضحك مخادع، فجأة، راحت تسأله عن المكان الذي ينوي النزول فيه، وهى مازالت تبتسم على هذا البهلوان الطريف الذي يريد أن يوحي بهدوئه والرزانة، عندها لملم نفسه وهبط بجذعه واستقر على مؤخرته وقال:

– بصراحة، أنا لا أدري إلى أين سأذهب.

هذه المرة كانت زينة تدري تماما أن (السنارة) قد سحبت ضحيتها إلى المكان الذي تريد، فقالت وهى تبتسم بإغراء مرسوم:

– ما رأيك أن تأتي معنا، أنا ومروان، إلى كورنيش العظيم؟

وهذه المرة سوف تخسر أنت ثمن الكرزات.

معقول؟

يا لهذا الغباء الذي عاش فيه، مذ كان عمرها أصغر من أحلامه، كان يخاف منها، بل يرتجف هلعا إذا ما أحس هبوب عواصفها رب بيته العالق لصق خطاها، ماذا جرى؟ لد خسر أيامه ولياليه على حلم كان طوع يديه ماذا ينتظر؟ سوف يسأل الآن عن الرجل الذي أحبته الصباح، وعليها أن تطفئ النار، نار غيرته التي ذبحت شرابينه ومرت بنارها على كل قطعه لحم في جسمه الشرس المخبول، قال هادئا، لم يكن هادئا حين قال:

– رأيتك صباح هذا اليوم مع...

– كانت تبتسم وهى تقطع الكلام بإغراء طفولي ساحر:

– صديق بابا، إنه صديق بابا، يزورنا كل خميس تقريبا، وهذه أول مرة أراه فيها خارج البيت.

– صديق بابا؟

كان مروان الصغير يصغر إلى حوار بائس ليس فيه أى شيء من طعم الشيكولاتة التي ينبغي أن يتذوقها الآن، راح يسحب ذيل فستانها، يسأل عن وعد قطعته زينة بشرائه الكثير من الشيكولاتة.. تلك كانت فرصة منذر في أن يغلق حكاية العفريت الذي رآه لحظة راح يشتري ثلاث قطع من أفضل أنواع جوز الهند المبروش المخلوط باللوز والفست والسحلب، جاء بها جوابا على فرح ظاغ، كمن انتصر الآن على ذلك العدو المترهل المسلح بالمال والشبع والوجاهة.

كانت زينة – وهي تلتهم أغلى نوع من الشيكولاتة – أيقنت فعلا أن (الفخ) الجميل المنصوب منذ وقت بعيد، قد جرجر الفريسة من فمها وأطرافها إلى بيت الصياد!.

كان نهر دجلة يمشي مع منذر صوب أحلامه بلا مدى، على خطى زينة التي حققت حلم العفريت الذي قالت بأنه صديق بابا، كذلك راح النهر هادئا فرحا مع جوز الهند المجروش يملاء وجه مروان الذي أعطي مكانه لهذا المخلوق الذي سلب منه أخته وأعطاه الشيكولاتة ثمنا لها، قالت زينة:

– رأيتك غاضبا ظهر اليوم وأنت تصرخ بي؟

– ابتسم منكسرا وهو يداعب رأس مروان، مخذولا لم يقل أى شيء، أخذت منه زينة دور الحاكم وأعطته ملامح المحكوم، رجلا كانت زينه تمازح أنثى تقطع المسافة التي رسمتها مع ذاك العفريت بسرعة..

– يمكنها الآن إنجاز اللعبة بضربة قاضية وفى يوم واحد بعد أن أعطاها (صديق بابا) فرصة عام واحد، وبما أكثر من سنة إذا ما توفر الذكاء أو الظنون أو الشك لهذه الفريسة التى مازالت تنتظر إلى النهر، مخافة أن ينكشف ضعفها، أما زنية التي رمت سحرها عليه مرة واحدة وبلا أى رحيق من الشفقة.

مسكين هذا الشبح الذي انزلق إلى بئرها العميق، ليس من أمل في النجاة، سيما إذا سألته زينة:

– أنت مختلف تماما عن أولاده المحلة، بصراحة، ليس من أحد يملأ العين مثلك، أنت صامت ومؤدب جدا.. هل أنت كذلك في البيت أيضا؟

سبحان هذا اليوم الظافر دون سواه عن بقية أيام العمر، ماذا يفعل فيه الكلام الذي يسمعه قرب دجلة؟ تمكن منذر أن يقاوم نفسه التى صرعها الحب والشهوة معا، عندما عاند جيوش الكون كلها وراح ينظر إلى زينة وهو يقول بصوت سعيد مجروح:

– أنا أحبك جدا، وأريد، أريد الزواج منك.

ممثلة من طار مستعمر يلهب الدماغ، عشرات المدن المظلمة أعطت نورها وأسرارها خفية إلى أنثى تفهم هذا النوع من المراهقين، متى تعلمت وعمرها ليس أكثر من غصن تائه في مزرعة مخبولة؟ ذلك أن زينة أخذت شقيقها الصغير، واختفت عن وجه النهر عزالا تطارده الدنيا بأسرها، تاركة خلف إصرارها وغموضها رجلا في العشرين – طفلا في العشرين يغزوه الفرح الباهر – أوهمه ذعرها وأرهبوها فجأة من أمام عينيه، إن زينة بها خجل أطول من طولها، وأنها اختفت تداري هذا الفرح العظيم، وهل من فرح يمتد في جسد الصبايا مثل عثورهن على زوج في عمره وشكله وطيبة قلبه؟

لم تخسر زينة أية لحظة من الوقت الذي منحوه في البيت، فقد ذهبت إلى صدى بابا فورا، وأخبرته بانتصارها على ذلك العاشق الأبدي الذي سيأتي للزواج منها، دخلت معه إلى غرفة نومه بعد أن تركت باب الثلاجة مفتوحا أمام شقيقتها الصغير يأكل ويشرب لئلا يشعر بالوقت الذي قطعته في فارش العفريت! و.....

تزوجها منذر.

أعطى كل ما يملك من مال وكل ما تملك عائلته من أمال ودنانير وطوق نجاة للغد، كيما يتزوج ابنها الوحيد .

لم يكن ثمة في البحر أو البر أو السماء كم كان أسعد منه عندما تزوجها، ربما كانت زينة أسعد منه قليلا، فهى لن تخاف أبدا، بعد اليوم، إذا ما أنجبت من "صديق بابا".

آذار ١٩٩١

مدينة كاووش!

لم تكن غير قاعة حمراء بساط من الدم يمتد من الباب نحو ثلاث نهايات: واحدة عند الممر، وثانية عند خيوط العنكبوت، وثالثة هناك حيث الجثة التي رسمها وقد تدلت ساقها اليسرى فوق الجمهور.

أحمر كل شيء في تلك المدينة المنسية، أرضها، سقوفها، جدرانها كذلك حارسها الوحيد، بدلة حمراء بأزرار حمر وقميص أحمر ورباط عنق يسيل كما الرمان ينتهي بحزام أحمر وحذاء على شكل كرز عتيق.

عند الباب العريض، عباءات حمر، ينبغي استئجارها بدينار واحد، لئلا تخسر المدينة هيبة الدم المراق في الثغور والشعاب والمصابيح الحمر، لا يحق لك الكلام خلال زيارتك المدينة، انظر هذا الشبح المخنوق تحت سيقان النساء، حدق إلى ذلك الشاعر يقرأ قصائده وهو يغطي رسغه بالسكين. هنا بقرة تسرح في شارع مقفل، هناك جسر مقطوع ورجال تقطع النهر على شجر مذبوح، عمارات متبورة، أطفال يتناثرون شمالا وغربا. في مدينة كاووش لا يحق لك الكلام، هناك من تكلم نيابة عنك، من يحلم نيابة

عنك. وإذا ما سطت على جبينك أو على يديك بعض نقاط من الدم لا تجزع، فعند خروجك من سفح المدينة يمكنك التطهر بالذكري ومسح الجريمة بماء الشاي الساخن، احذر أن تمضي نحو ذلك المكان أكثر من مرة واحدة، تلك مدينة يجب الحفاظ على أسرارها، وزيارة وحده تكفي، وإذا ما تكررت الرغبه في المضي إلى هناك، تمتع بكوابيسها وحدك لا تطرق باب القاعة مهما كلف الأمر!

انصرم الشتاء، وانقطع المطر. مدينة كاووش لا يناسبها الصيف، ربما يسيل الأحمر إذا انقطعت الكهرباء، وبرغم الخوف من زلزال قد يأتي على حين غفلة، بقيت ركان المدينة تستقبل صعاليك الشعر (موديل ٩٣) وتجار الفن وبضعة أغبياء يطلقون على المدينة أسماء غريبة: أيام الاثنين يسمونها واحة الحلاقين وأيام الجمعة "مقهانا"، وعند المساء يحتسون الخمرة لص "سلفادور دالى" وهو يقطع الوقت بالسكين!

تدخين إلى فم عجوز، وحده الحارس من يملك هذا الحق، فهو الذي سوف يخسر بعد الغموض. دخان السيجارة يعطي – في العالم كله – فكرة أن الأشياء لا تتغير: الكرسي للجلوس عليه، الفم للتدخين، النهر للسمك، النساء للحب، الجوع للأذكياء.

هنا يتدخل صديقه الشاعر ليقول: "كف عن التدخين يا كاووش، إن أعظم الأسرار هي تلك التي يموت أصحابها"، لكن الدخان يتطاير لم يزل،

في بحر مساحة لا تزيد على ثلاثين مترا هو طول المدينة، أما اعوجاجها فهو لغزها منذ أول حجر فيها، يمكنك – مثلا – رمي حجارة على زائر مزعج ويمكنك ربما – بقليل من الشجاعة – إن تيوس امرأة على عجل.

اعوجاج المدينة غريب ومضحك. وربما لهذا السبب اختارها كاووش وراح يرسم فيها أول مشروع للفوضى والجنون: نظيف هذا المكان ومخدر بالصمت أيضا. راح كاووش يفتش عن شبر يطفئ فيه جمرة سيجارته. صديقه الشاعر كان يدري أن كاووش سيحتفظ بالنار والدخان بين أصابعه، اقترب منه وقال:

– أنت خربت المدينة بهذا الدخان، ألا يمكنك الصبر على مجرد سيجارة؟

– أجاب كاووش:

– إنها مدينتي أنا، وأنا وحدي من يملك الحق في حرقها أو إغراقها أو ما شئت أن أصنع فيها.

– دم في العروق، أو ما يشبه الموج، يصعد في جسد الشاعر:

– ومن قال إن للخالق الحق في قتل مخلوقاته؟!

في التاسعة مساء كان أهل المدينة يتسللون منها إلى البارات البعيدة.. هناك حيث يحتسي الرأس ما يشتهي من خدع صغيرة. لم يعد في القاعة غير الشاعر ينظر إلى "لحم يتكدس في صندوق القمامة"، بينما في الجانب الثاني، أو على وجه الدقة قرب العرش الذي جلس عليه السيد

"كاووش"، ما بزال سلفادور دالى يقطع الوت بالسكين وهو يلحس شاربه على مشارف حفنه من أفخاذ "ما هود أحمد" (*) الذي شارك في كرنفال المدينة بواحد من أحلامه المحرمة.

الآن، لا أحد هناك في المدينة، غادرها الخالق والشاعر، يقطعان الطريق صوب الليل، باتجاه بار رخيص ربما، إذا لا أحد منهما يملك ثمن تلك المتع الأرضية الناعمة، لم يستطع الشاعر الصبر، كان عليه – منذ نصف ساعة – أن يقول:

– ماذا كسبت من هذه المدينة يا كاووش؟

لا أشك أن ثمن "الأحمر" الذي أغرقت به الشوارع والممرات يزيد عشر مرات على ما تملكه في عام واحد.

راح يدخن. لم يلتفت إلى كلام صاحبه، يدري أن المستقبل إنما هو شيء آخر غير ما نرى اليوم، وكان عليه أن ينتظر بضع سنوات حتى يفهم هذا الشاعر كيف يبني هذا النوع من المدن الخارفية العنيدة.

فى البار كان عليهما بيع خاتم فضي ليشربا. لعل أغرب ما جرى في تلك الساعة، هو أن صاحب البار لم يأخذ الخاتم، بل قدم الشراب مجانا في صحة أجمل المدن التي رأى.. ولم يقل صاحب البار سوى عشرين كلمة:

(*) ما هود أحمد: فنان عراقي مهم.

– عندما كنت في عمرك يا كاووش، كنت أحلم في رسم مدينة كهذه، وها أنت أول من حق ذاك الحلم الظافر القديم!

التفت كاووش إلى صديقة الشاعر، وأيقن – مرة ثانية – أن المستبل مازال على قيد الطفولة والجنون. ولا يدري كاووش – حتى اليوم – من الذي راح يردد خلفهما بصوت سكران:

– يا كاووش، يا كاووش، ألا تدري أن الأشجار ذبلت، لأنك لم ترسمها؟[*]

مدينة بلا بشر، غادرها النهار والشعراء والجميلات والمطر، ولم يبق فيها سوى كاووش يفتش بين الليل والرعد والغيوم عن كمية خساراته..

ومع ذلك فقد استطاع أن يبتسم!

---

[*] السطر هكذا، مقطع من قصيدة للشاعر حميد قاسم

باب السيف

كنا على يقين، بعد عام من العذاب، أننا نسمع – وهن في المقهى – بموت (عزيز رفعت) الذي غادرنا ولم يزل في الخمسين من عمر يشبه صندوقا يحتر في بركة من الماء، ما عرفنا أبدا، كيف نواسيه، كنا نخاف عليه، نعلم أنه سيموت قبل أن يتمكن من الثأر أو يأخذ بحقه من القاتل الذي تمكن أن يطعنه ليلا ويتركه على رصيف المحلة غارقا في دمه ثلاث ساعات، بل أن يراه مؤذن (باب السيف) وينقذه من الموت في ذلك الفجر العنيف القاسي.

ما كان من أحد يدري سر هذا الرجل الذي جاء المحلة منذ عشرة أعوام، عاش فيها غريبا لا يقترب من أحد ولا يسلم على أحد من أهلها، عابس الوجه برغم وسامته، نظيف الهندام على ما يبدو – جليا – رخص ما يرتديه، بدلة سوداء ومعطف سميك في الشتاء، قميص أسود وبنطلون رمادي فاتح في الصيف، ثمة انحناء خفيف في جذعه، ربما تعمد ذلك لئلا ترتطم عيناه بأهل الزقاق، لا يريد أن يكون بينه وبين البشر رباط من أى نوع.

أنا وحدي الذي اقترب منه، كنت أعرفه منذ طفولتي، أيام كنا نعيش في محله "الطاطران" بيت أهلي لصق دراهم، أنا أكبر منه بأعوام ثلاثة، لم يكن هذا أبدا، كنا نلعب بعنف وفرح، يشترك معنا عند الظهيرة (عبد الزهرة) و(عثمان) النحيف (عزيز رفعت) يكسر النهار وجزءا من المساء دون أن يمسه الضجر أو يتسلل التعب إليه شيء واحد كان يمنعه من اللعب كثيرا ما تككر بيننا، وأشفقنا عليه خوف أن نصبح مثله ذات يوم "يظفر الدم من منخريه، مكذا على حين غفلة، وهو يعرج معنا في شعاب المحلة وزواياها التي لا يعرفها سوى أطفالها".

لم أطرق الباب عليه، ولم أنتظر مروره قرب مقهى (باب السيف) ربما كنت أبحث عن سبب أو أفكر في أسلوب يساعدني على التقرب منه، ثم أرغمته أنا على السؤال والبحث عني، وربما اللجوء إلى بعد صمت لفه طوال السنتين التي مرت واندثرت خلفنا.

مرة، وكما يفعل الصغار، تركت تحت بابه ورقه كتبت فيها (الطاطران تسلم عليك، أرجو أن يكون انفك بخير) أطارد ذاكرتي، أجمع خلايا رأسي في كف صغيرة عساني أتذكر نشوة الطيش الجميل التي عشناها ولم نحسد أنفسنا – بالغباء – على شذاها وسحرها المغمس في عسل البراءة، ومرة ثانية، كما يفعل شرلوك هولمز، رميت قرب غرفته علبة سجاير رسمت عليها (سوبر مان) وكتبت عند رأسه (عزيز مان)، كما كنا نسميه في طفولتنا، وثالثة

بعثت إليه – مع طفل أخرس –كتاب (ماجدولين) أول ما قرأ في حياته وبكى حرقة عليه ثم تركته يسأل، يتخبط، يدور في المحلة، بين الصابين وباعة الطرشي وأفران الخبز، عساه يرى هذا (الماضي) الذي يركض خلفه ويغازله ثلاث مرات في شهر واحد.

نظرت إليه من طرف في المقهى وهو يمشي صوب بيته – في السادسة من مساء السبت – يلوي عنقه شمالا على غير عادته، يريد أن يعثر على طفولته التي غادرها منذ زمان بعيد. يريد أن يرى هذا الشخص الذي يمازحه وهو في الخمسين، أضحك – عفوا – على رجل كان من أفضل وأشرس أبناء محلتي، منطويا على نفسه لا أدري أى شيء عن حاضره الغريب ولا سبب انزواء ذاك الحماس الذي كان يلبسه ليل نهار؟

تركت قطار البصرة، ولم أسافر، قائلا : أنت خائف من السفر؟

قلت: يا عزيز، أنا لا أريد أن أسافر، ثم لماذا أرى البصرة، هل تراها أجمل من بغداد؟ كنت في الثامنة عشرة وكان أصغر مني يسخر من رعشة جلدي وأنا أغادر المحطة، وعندما عاد من البصرة قص لى حكايتي مع شط العرب والسفن العملاقة التى رآها والقطار الجميل الذي قطع الليل إلى هناك، بكيت على نفسي، كنت أحسد هذا العزيز الرفيع الذي غلبني وصار يشفق على ضعفي.

اليوم، ربما، بعد سهو ومواسم وغبار كثيف، سحب من الذكريات، بعد عشيرة من أشباح مرت قرب فراشي، قطعت خلفها نصف أحلامي ورميت عليها نقمتي وبعض انكساري، أريى (عزيز رفعت) الذي انتصر على فرق السنوات الثلاث التي بيننا وصار أكبر مني، يحكي لأطفال الطاطران عن (فلاش جوردن) وسماء مزحومة بالنجوم والنيازك والبروق، وما كنت أعرف أيامها غير (الزناتي خليفة) وبعض ما أخبرتني به (شهر زاد) حتى عافني أطفال الزقاق، يتسابقون إلى (عزيز رفعت) يريدون اكتشاف سماوات أبعد ونجوم أغرب وأجمل ونيازك يسألون أين ستسقط؟

وبقيت مع (الزناتي) أمزق أوراق ألف ليلة، ثم على غفلة من الجميع ذهبت إلى (فلاش جوردن) رأيته في سينما (الفردوس) سرقت ثلاثة دراهم من أبي، وشعبت من النجوم والنيازك والبروق، لكنني لم أتمكن أبدا من سحب أطفال المحلة إلى حكاياتي، مع أنني عرفت (جوردن) أكثر من (عزيز رفعت) ثلاث مرات.

أبتسم وأنا أشرب الشاي في المقهى، على جبل من الصمت، جاء ينط بعد دهر من الوحشة والغرابة، إذا جلس قربي يحدق إلى وجهي بين شهيق وشهيق، ثم قال:

– مازلت تذهب إلى هناك.

– نعم، أنا أحبها وأشتاق إليها.

– وكيف هي اليوم؟

– قلت له بحماس طفولي:

– الطاطران كما هي منذ مئات السنين، لن يغيرها أحد، وأنت، كيف حال أنفك المسكين؟ كان "عزيز رفعت" قد ابتسم بعد غيبة دامت ألف سنة، وربما أكثر من ذلك بالنسبة لي، من يعرف أي حزن رأى، وأي كوابيس يعيش؟ أجاب هادئا:

– جسدي كله بخير، وأنفي كذلك (راح يبحث عن شيء يخفي به رعشة أصابعه وارتباك عينيه)، ثم قال: مازلت تتذكر الماضي كله، لا أحد يعرف أنني (عزيز مان) سوى ثلاثة، أنت واحد منهم، بل الوحيد، فقد مات عثمان في حريق سينما البيضاء، واستشهد عبدالزهرة في ديزفول.

– قلت بحزن كبير:

– أعرف كل شيء، أنا حريص على زماني القديم.

– قال بهدوء:

أنا مثلك تماما، لكنني (مطلوب)..

قلت له: لا أفهم معنى هذه الكلمة، فقال كمن يضحك:

– يريدون قتلي، أخطأت مرة وأنا في طريقي إلى عملي، دهست طفلا بسيارتي وهربت، أهله يبحثون عني، وأدري سيذبحونني ذات يوم.

سقط الشاي على ثيابي، لم أعد أرى "باب السيف"، تسرب السمك الميت على فراش الأمير، ولا أدري من قال نيابه عني: إنها إرادة الرب.

قال عزيز رفعت بعد أن سقط الشاي على ثيابي والسمك العفن على فراش الأمير:

لا أحد يقول هذا منهم، لا أحد يفهم أنها إرادة الله، الطفل كان وحيد أمه وأبيه كما سمعت، جميل جدا، من الصعب نسيانه أبدا، كان في الرابعة، أحلي ما في المحلة من أطفال، أنا والله، أكثرهم حزنا عليه لكن من يصدق؟

نظرت إليه، شبح من أرض لا مخلوقات فيها، مهمل، لا أحد يسأل عنه، ضحية خطأ عابر عجيب، رأيته ينهض، تركته يدفع الحساب عني، بقيت بعده في شرك من الرعب، تسرب إلى رأسي دفعة واحدة، ولا أفهم كيف تسلل الدمع إلى مساماتي وعيني وأصابعي.. وقبل أن يشعر بي زبائن المقهى، رميت نفسي إلى الزقاق، دمعة أخيرة كانت قد سطت على بنطلوني، رأيتها وأيقنت كم ذرفت من الدموع.

شهيق سريع مربي، أريد أن أعثر على زفير يخفف عني ما رأيت، كان (عزيز رفعت) قد اختفى عن المقهى والزقاق وعاد إلى بيته، رجعت بذاكرتي إلى أيام (العساكر والحرامية) أجمل لعبة في الطاطران كيف كان (عزيز) هو العسكري الوحيد بينا، وكنا جميعا (مجرد لصوص) يطاردنا (عزيز رفعت) من فرع في المحلة إلى فرع من محلة مجاورة، يمشي خلفنا من بر إلى شبر ومن شعريرة إلى قشعريرة. وكان في كل مرة.. ياللعجب. يعثر علينا فردا فردا حتى

إذا اختفينا في برميل الزبالة أو رمينا التراب على أجسادنا النحيفة أو تسترنا بأبواب الجيران.

كنت أحس أن النار تأتي إلى جسدي وتحرق آلاف المسامات مني عندما يمسك بي هذا (الجن) الطالع من تحت طيات الأرض، كان يضحك على غبائي وأنا أخفي نفسي في عباءة أمي أو أترك فضلات المحلة فوق جلدي، ماذا أفعل؟ أنا أصنع المستحيل لئلا يراني (عزيز) ويكتشف أين مكاني، مع أنه في كل مرة يأتي بهدوء يمسك يدي، ويصرخ بقوة: لن يلتفت مني أبدا

وأعترف أن (عزيز رفعت) كان أذكى مني، من أطفال المحلة جميعا، تمنيت أن أكون مرة واحدة في طفولتي وفشلت عندما جعلوني (عسكريا) أطاردهم، يومها لصق نفسه مع الجدار بلا حركة، بعد أن لبس ثياب رجل عجوز مجني الظهر تركته ورائي، ولم أصدق أن هذا الشيخ المسن إنما هو نفسه (عزيز رفعت).

يومها راح يضحك منى ويقول بصوت بشع:

– أنت لا تفكر أبدا.

– جعلني أضحوكة أطفال الزقاق، وقررت منع نفسي من رؤيته واللعب معه، لا أحب هذا الغرور الطافح الذي يتسرب من عينيه، لكن مع من سأمرح في

الطاطران إذا كان جميع الصغار يتسابقون إليه ولا يلتذون بشيء – أى شيء – إذا لم يكن معه؟

ويوم أصابته الحمى تركنا الزقاق والثرثرة وسوبرمان، وروحنا نسأل عنه خائفين أن يصاب بأي مكروه، ذلك يعني نهاية أفراحنا إلى الأبد، لكنه عاد إلينا بعد أربعة أيام وقد تمكن من صرع الحمى والرجوع إلى مملكة الزقاق يسابقنا إلى اللعب والفوز والقيادة والفرح.

وهذه المرة لم يكن وحده الذي يمرح معنا، كانت معه في جيب (دشداشته) العريض (ماجدولين) التي صارت تأخذ منا يوما بعد يوم، أسأل نفسي كيف تعلم (عزيز رفعت) أن يقرأ تلك الكتب السميكة ولماذا أخذته منا، وصارت المسافة تطول وتشتد بيننا، ثم تمتد بسرعة أكبر وتطول بشكل نافر.. طيف يسابق حالة، ربما لغز يضحك من طفح بلا معنى، لكن "ماجدولين المنفلوطي سرقت منا" عزيز رفعت "وأنا أراه يبكي أول مرة، أصابنا فزع عظيم، إذا اكتشفنا ذات نهار: أننا كبرنا وصار علينا أن نترك طفولتنا على عتبة "الطاطران" فقد جاءها ودخل فروعها من هم أصغر منا.

الآن، وبعد أعوام من اللذه والنسيان والغبار الذي طاف على بغداد رأيته هنا في "باب السيف" بعد أن مر الحاضر نصف ذاكرة الماضي، بعد أن مس الخراب لب جلودنا وصرنا فوق الخمسين، عزيز رفعت، ذلك النمر الفارع العنيد، يعيش بين شعاب المحلة محنى الظهر، يخاف أن يراه النور أو

ينعمس عليه ضوء المركبات البعيدة التي نسمع أبواها من مسافة تزيد على ألف متر.. ليس هذا "عزيز رفعت" الذي كان (كان) ولا يمكن أن اربط حاضره بماضيه إلا كما أربط الغيوم بالمناجم، كما أربط نبض القلب بعاصفة من دخان، ليس هذا "عزيز رفعت" أبدا .

جاء خبر طعنه بالسكين حفنة من المسامير تنزل في أعماق لحومنا مع أن أهل المحلة لا يعرفون أى شيء عن هذا الكائن المنزوى الذي لا يعرف نصف أبناء "باب السيف" اسمه ولا مهنته ولا كيف جاء وعاش في هذا المكان البائس الذي نهش النهر فيه وعافه مجرد أطلال يسكنها الفقراء؟

وحدي الذى كان يبكيه بحرقة، بموته شعرت أن طفولتي قد ولت اليوم عن جسدي.. الخسارة كائن من رماد، رأيتها، رأيته يدخل عيني، يمزق هذا الجزء البليد الخفي من أحشاء الرأس، غادرني نقائي وبراءة قلبي وأنا أنظر إلى جثته تمشي إلى بر ضيق في مقبرة مهملة عافها أبناء بغداد من سنوات بعيدة.. نظرت إلى قبري، وبكيت أعواما لن تعود، على سمك عفن تسلل مع الليل إلى فراش الأمير.. لكن طفولتي انتصرت على غبائي وبراءة الماضي رفعت رأيه الجنين على جسد الموت وأنا أحدق من "عزيز رفعت" الذي انتهي.. انزلوه في القبر وأنا أبكي على أكثر من عزيز واحد.

قتلوه ليلا، طعنوه دون أن يسرقوا، تركوه على رصيف المحلة غارقا في دمه حتى الفجر (هذا العزيز الهارب الذي دهس طفلا بسيارته) مازلت منذ موته أسأل نفسي:

– من الذي ذبح "عزيز رفعت" إذا كنت أنا نفسي لم أقتله، هو الذي كان السبب في أكبر كارثة حلت في حياتي منذ أن دهس ابني الوحيد بسيارته.. مات؟

بغداد ١٩٩٢

السيد

أؤكد على أنه كان قويا جدا مع كونه في الثانية والستين، يملك مع حفنة الدنانير المخبأة في مكان ما من بيته، امرأة ناضجة وجميلة، وكان يخزن في داخله مع هذين الشيئين دهاء غامض أحسه يتناثر مع كل كلمة يقولها لى أو يميلها على – فأنا كاتم أسراره بحكم عملي كسكرتير ومختزل لما يميله على من أثمان السلع التي وردت إليه أو كتابه رسائله الخاصة بخط أنيق – وباعتباره الممول الشرعي عن لحياتي ومعيشتي فقد أظهر معي شيئا من الخبث كنت أود أن يكتمه، حيث إني لطيبتي وبساطة ضماناتي لم أكن محتاجا إلى شيء آخر منه، وهذا يعني أن رغبته في سكرتيرة مثلي لها قيمة خاصة، وعليه أن يكفل بقائي معه دائما، سيما أن شيئا ليس بالقليل من سيئاته كان محفوظا عندي بأمان وقهر.

لكن تراكمات الحقد في داخله أخذت ترهق أعصابي يوما إثر آخر، قد حزنت جدا وأنا أسمعه يتحدث إلى السيد شيت الفرحان بلهجة ملؤها

الغش، حيث إن البضاعة المحجوزة في الحدود قد توزعت على أفراد الشرطة، باعتبار أن المواد التي جاء بها لم يخط عليها عبارة "كالمعتاد مواد عادية"، مع أني كنت أعرف أفراد الشرطة هناك من خلال الرسائل التي كتبتها بنفسي، وهم أصدقاء جيدون للسيد الذي أعمل في مخبئه، وأعرف كل مخاتلاته العجيبة، وأن خطأ كهذا بالنسبة لتاجر معروف كالسيد شيت يسبب – إن لم أكن مخطئا – خسارة ألف دينار ثم بالتالي ربحا فاحشا – أو أقل مسروقا – بالنسبة لسيدي وارد العطشان الذي أعمل في خدمته ليل نهار الذي يجدني أني شاء وفى أية ثانية أراد، تماما كالصابون الرخيص.

كان طبيعيا أن يظهر على قسمات وجهي من الغضب، مع أني استطعت أن أضحك، وقد ظن سيدي بأني أوافق مبدئيا على غش فاحش كهذا، لذا وجدته يهمس في أذاني بلطف:

– هل لك في عملية صغيرة؟

كنت أعي تماما تعنيه تلك الحركة التي مارسها معي، فها هو السيد تأكد من وجود لص جيد في خدمته، وتأكد أن إيجاد فرصة لي تعد من جملة ما يقدمه من هبات طيبة لخادمه المسكين، وأعطيته فرصة أخرى ليقول لي ما يحسه من قذارات طرأت على رأسه توا، بمجرد أني ضحكت حزنا على شيت الفرحان، فقد قال فيما يشبه الوجد: الصندوق بما فيه من بضاعه تسلمه إلى أحد السادة عند حدود المدينة –كاف – وتطلب منه أن يسلمه

إلى شرطة الحدود وسوف يسلمونك عندها ثمنا غاليا ويعطونك بقشيشا جيدا، وترجع، كان علي أن أختار بين أمرين:

إذا ارتأيت الصمت على فعل كهذا، فسوف ينتفع السيد بمبالغ أكبر وأكون السبب في هيئة الجو السيئ الذي أمقته إلى جو أسوأ. وإن امتنعت عن تسويق نفسي إلى هذا الفعل الطائش، فهذا يعني بالنسبة لي طردي من العمل بحكم القرارت المتبعة من السيد، وبما أني لست مستعدا للطرد، نظرا لسوء الحالة المعيشية ولعدم توفر ضماناتي في مكان آخر، فقد قلت له:

– فى أية ساعة أبدأ؟

قال بضحكة لم تخضع للتوتر والشك:

– بعد دقائق تأتي سيارتي وتمضي بها إلى حدود المدينة بأقل من ست ساعات.

ثم خرجت من بيت العطشان مخلفا ورائي كل نظافتي، كان عليّ أن أخفي أحزاني أو أرفض البقاء هنا، بيد أني في تلك الثانية تلمست بين أصابعي مبلغا رائعا لم أمسه من قبل، وكان هذا من الإغراء ما يكفي لقهر أعزب مثلي، ينظر إلى حدود مدينته عن بعده، حيث ينتظر البقشيش التالي من يد الشرطة – تقهره أخرى تنتظر مجيئه بعد ست ساعات فقط.

أين تراني أذهب، من ترى يضمن لي عيشي في طول بغداد؟

الروتين الذي أماتني ذات مرة كي أصبح سائقا في دائرة حكومية نفسه الذي جعلني أهمل الوظيفة وأقنع بالعيش تحت سقف العطشان.

لكن ما أفعله الآن وما أنا فيه من ذل وفساد أشد سواء مما كان، فكيف لي أنا أقاتل ضميري وأرفع نفسي عن أرض هذا العالم التقي، ومن تراه معي ما يدور في داخلي من تعب؟

إنني غاضب على شيء ليس مجهولا بالنسبة لي، لكنه منسي في الداخل أو غامض بعض الشيء، فأنا أعيش بين يدي سيدي، وكل ما أشربه وأكله إنما هو من حسنات رسائله ومواده المباعة والمشرتاة، وكل ما تجده أعضائي من خيرات النساء إنما يحيله إلى سيدي بين أسبوع وآخر ليخفف من شأني أيضا.

أخذ كأساسا لمعيشة عادية من الصعب الحصول على سواها، وإن ارتضائي العيش هكذا كفيل بأن يورثني بمرور السنين أخس العادات وأرخص الخصال، بل إنني في ليلة ما حزنت على لون يدي الذي تهيأ لي بأنه تغير، كأنها ليست يدي أنا. وشيئا بعد شيء بدا لي أن رأسي الذي أحمله ليس رأسي، وأن كل شيء عندي أو كل شيء معي إنما هو ملك السيد الذي يحدق في عيني ويضحك منى سرا.

مشينا من البيت في سيارة العطشان، المكيفة بالهواء والمرقمة واحد، ثمة ما يوحي إلى بطعم الجنة، خلت نفسي وزيرا، خلت نفسي رئيسا

لجمهورية متخمة بالنساء، وكان طبيعيا أن أتخيل نفسي ممثلا قادما من هوليود وثمة مجموعة هائلة من النساء والرجال والصبيان تنتظر رؤيته بنفاد صبر.

تخيلت أشياء عديدة، شعرت بعدها أن خيالي فاسد جدا، وأنني أستحق أن أشتق من أجل ذلك، خلت وجهي وقد انقلب إلى وجه شبيه بالسيد، هل كنت في حقيقية نفسي منسوجا من نسيجه المتسخ، وإننى مخلوق من طينته أيضا؟

ماذا تراني أفعل؟

يمتد هذا النفس المريض في عروي، أنظر نحو الصحراء وقد رمتني إليها إطارات السيارة كأنني أنظر عبر كل متر مصيرا جديدا. كان السائق ينظر إلى وجهي في المرآة العاكسة عند أعلى رأسه، لم يستطيع الصمت فقال:

يبدو أننا سنبقى طوال الطريق دون كلمة؟

قلت له مع ابتسامة خفيفة:

إنني أفكر بأشياء كثيرة، اعتذر منك الآن.

رأيت السائق من خلف عنقه يشد يده على مقود السيارة بعنف، ويمرق في الصحراء، كان لي أن رأيت مؤشر السرعة يهتز عند المائة والثلاثين ومتجها إلى سرعة أعلى، لم أقل له أى شيء، بل بدا كل ما يفعله مقنعا وطبيعيا.

نزعت ثوبي وأبدلته بثوب آخر وأنا داخل السيارة، مع أن الثوب الذي خلعته كان نظيفا وجيدا، وسرعان ما وعيت بأني أتصرف تحت ارتباطات غريبة تشتبك مع خوفي وذلي تطلعي إلى ما سيجري في المستبل – البطالة والجوع – كأن رأسي هذا لم يعد يحمل إلا الخوف من كل شيء ومن كل فعل يبتغيه السيد العطشان.

ثم انتزعتني – بفعل الرتابة التي خلفتها السيارة – فكرة خاطئة: أين ترى يخفي السيد كل مبالغه تلك؟ كيف تعمد أن يهمل زوجته ويغفل عن تصرفاتها أينما ذهبت ومهما فعلت؟ فكرت توا أن زوجته قد تكون المنفذ المسلط على رؤوس الزبائن، بحيث إنهم يتعاملون مع السيد بغية إقناع السيدة الجميلة علها تجر إلى بيوتهم السرية!

كان مجرد إحساسي بوجود السيدة قد أحال برد السيارة وعطرها إلى نار تأكل أعضائي، إنها السبب الذي أقنعني بالعيش هكذا، فالسيدة التي كلمتها مرتين فط التي كتبت لها كل رسائلها بصمت التي رأيت أعلي فخذيها دونما تعمد، تكفي بحضورها أن تمنحني صبرا كافيا على البقاء كخادم كفؤ للسيد. كنت أجد في تخيلها سلوة لا حد لها، تصل في أحيان كثيرة إلى مستوى النشوة التي يحسها أيما رجل يضاجعها.. سيما بعد أن تهيأ لى أن شقيق سيدي لم يكن في زياراته – التي يحسب أوقاتها جيدا بحيث يكون مجيؤه عند خروج السيد العطشان – إلا نائما على سرير أخيه يمارس عطشا

رهيبا وجوعا ملتهبا، كدت في ليله ما إن أصعد السلم الخلفي من البيت وأرى ما يمكن أن يجري، وبينما حاولت أن أنظر إليهما من الخلف من البيت وأرى ما يمكن أن يجري، بينما حاولت أن أنظر إليه من خلف النوافذ، كان شقيق سيدي قد أسدل النوافذ الملونة المعتمة، مما جعل الشك عندي يأخذ لونا من الحدة والغضب، بل تحاملت عليها وكدت أخبر سيدي با يفعله أخوه، ثم هدأت خائفا، حتى هذه الثانية!

انبثقت تلك الهواجس في رأسي كأنها تفرض عليّ أن أجازف في لخبطة المسائل التي تخص السيد، فربما احتاجني وارتعب مني إذا ما حاولت فضح شئ من أساليبه الخفية، وربما فكر أن يمنحني زوجته الشهية؟!

طرقعت أصابعي عن فرح غامر، كنت قد نسيت السائق لولا وقوفه المفاجئ، وسمعت كأنه السيارة قد توقفت تماما، فسألته بغلظة:

لماذا توقفت؟

قال لي بطيبة حاول جهد إمكانه أن يجعلها مقنعة:

– يا سيد ناظر، أنت تعمل كسكرتير نظيف في خدمة السيد.

– وأين الخطأ؟ إنني أعجب من وقوفك فجأة؟

– سأقول الحقيقة فأنا متأكد بأنك لم تعرف كل شيء.

– هل تعرف أنت شيئا يستحق أن نعرفه معا؟

– هز رأسه بخبث وهو يضحك عن أسنان صفر:

– افتح الصندوق. سوف ترى أى فعل أسود وعدنا به السيد؟

– أوهمته بأني لم أعبأ بما قال، وتمنيت أن أتخذ منه إشارة إثبات إلى ما تفعله السيدة في تجوالها بهذه السيارة نفسها كل مساء فسألته بهدوء.

– من الصعب علينا أن نفعل ما نريد، لكن أخبرني إن كنت تعرف شيئا عن أفعال السيدة، فأنا أظن بأنك أول من يعرفها عن قرب.

– لم أع في تلك اللحظة ما الذي فعلته بقلب السائق، سألنى أن يهمس لي بعد ليل وبشيء من الخيبة:

– يبدو أنك مقتنع بالعمل الذي تفعله. أنت تؤكد أن الرجال متشابهون تماما، سواء أكانوا وزراء أم شحاذين وأرجو أن تعذرني..

ثم تأتأ بعد ثانية كأنه يزداد خيبة:

– أو لتقل: ليس مهما أن تعذرني، أنت مخطئ جدا، وهكذا يكفي ثم سرنا، بعد أن تنفس السائق بمرارة، واسودت الصحراء في عيني فجأة، لم أعد أعرف ما أفعل، أخذت أنظر إلى عنق السائق من زواية السيارة، أحس كأنه يشتمني، فانسحبت إلى رأسي غمامة من ألم قوي.

– ثم رحت أفكر بصفاء وأنا مازلت أحدق فيه، ولما كان بمستطاعه أن يراني عند المرأة المعلقة فوق رأسه فقد أمسك بها وأدارها إلى جهة أعلى كأنه امتنع نهائيا عن الاهتمام بي، وكان هذا كافيا لجذب اهتمامي إلى القضية

التي نحن فيها التي جرني إلى أسرارها، وكان عليّ أن أجازف – إرضاء له – بفتح الصندوق مع كل ما تحمله المجازفة من عقاب وخوف.

فالسائق على أسوأ احتمال: رجل من الطينة التي انتمى إليها، فالفقر تمناه بالثياب الرخيصة التي نلبسها معا. إننا ربان من بعضنا أكثر مما أنا قريب من السيد، لكن الشك أتعب كل خلية من جسدي، تخوفت من فضح سر بهذه الدسامة بين اثنين من رجال العطشان – يأكلان ويلبسان من خيرات يديه – وهما دونه شيئان منسيان مغبونان أو متسكعان في المقاهي، وهذا بمجموعة عيب ومخجل إضافة إلى ما يبعثه من ذل ينزلق الآن على رأسي فقط، فأنا المسؤول عن العملية ولم يكن السائق غير وسيط يأخذني إلى حدود المدينة كي أتفاوض على إنهائها، وأرجع.

خلت أني مثل طفل عاجز، أقف بين إيماني بما أرغب فيه – أن افتح الصندوق وأقنع السائق – وبين خوفي من الجوع والبطالة والتشرد، ثم أفطن إلى حل جديد، فقد عرفت قبل قليل أن السيد قد جعل من زوجته سلاحا سريا يستخدمه عند ارتباك شؤونه المالية أو تعرضه إلى مجازافات المهنة، فربما اضطر في حالة كهذه إلى أن منحني زوجته وربما استطعت أن أحتل مكانة جيدة في البيت الكبير.

ولكن: حين مددت يدي إلى الصندوق وشعرت كأني أمدها إلى عتق العطشان، وأعدت يدي بينما كان السائق يسخر في ذات نفسه، وبدأت

أحس بأنه يمتطي أعصابي ويلهث فوقي، حتى أني سألته بهدوء عما إذا كانت المسافة إلى الحدود لم تزل طويلة، فأجاب:

– كيف تراك تسألني عن السيدة؟

– سألتك عما تبقى من الطريق..

– أعرف هذا، قبله سألتني عن زوجة سيدي، أليس من العيب أن تسأل، إنها زوجة جيدة وشريفة، وربما تراها مخلصة أيضا باعتبارك عازيا وطيب القلب وشريفا مثلها.

اجتاحت جسدي نقاط من العرق، بيد أني تساهلت جدا. وكان عليّ أن أهمل شيئا من كبريائي، حيث بدا كأنه متعطش إلى فضح كل شيء كأنه ينام الآن من السيدة التي يشتهيها التي لم يحصل عليها، من يدري أية جرثومة تأكل في رأسه هو يقول:

– إن سؤالك قد أثارني ولكنى لم أقل أى شيء، فأنا أخاف الحديث عن هذه السيدة التي أحسها غامضة بالنسبة لي، ولم أعرف أنها من الخبث والدهاء بحيث جعلتني أتساقط عن جذور عائلتي وأقبل العيش تحت حماية سيدنا. الغريب فيما عرفت أن السيدة لم تفعل أيما شيء بوجودك بيننا رغم أن مجيئك مر عليه أكثر من عام واحد.

قلت له وأنا أحس بميل إلى إلفاظه المتوترة:

– إنه الشهر العاشر بالنسبة لي، ولكن ليس مهما، أكمل. أجاب بلهجة فوجئت بها:

– بل إن هذا مهم أيضا، إن عشرة أشهر في خدمة سيدنا تعني صفرا بالنسبة للسيدة، فهى تبدأ بعد أن تحس بأنك قد بعدت عن يد العطشان فتأخذك من يديك وأذنيك إلى زوجها وتهمس له:

جئت إليك بهذا الحمار ولسوف يعطيك منذ الآن، ولكن يبدو أن العطشان سعيد بوجودك بيننا، حيث إنك – واغذرني عما سوف أقول – حمار جاهز نقبل بكل شيء دون محاورة أو نقاش وهذا ما يريدانه منك، لو أنك عدت إلى السيد دون أن تسلمه ثمن البضاعة، فإنه لن يقول لك أى شيء خوفا من وشايتك به مع ما تملك من أدلة، واختصارا للطريق زوجته بذكاء غريب، بحيث تأتي إلى سيدنا مثل طفل شرير يعتذر من أبويه.

– من هي السيدة إذن؟

– إنها شيطاننا الأبدي نحن الفقراء المعمدون..

– لم أستطع الإصغاء إلى ما راح يقوله بعد.. فوجئت بهذه الحقيقة كأن شيئا مثل الدبابيس يتغرس في مسامات جلدي، وصرخت:

– هذا يكفي، أرجوك.

بدا لي وجه السائق بعيدا عن عيني كأنه يكلمني من مسافة أمتار طويلة، وساءني مجرد إحساسي بالذل، وتأكد لي أنه من الصعب أن أجد في طول بغداد وعرضها، واعتبارا من شمالها إلى جنوبها وظيفة عادية تحميني من سلطة هذا الفرد.

تسلط فوق رأسي إحساس يهمس لي أن كبريائي تذبل تحت حذاء السيد، وإحساس يقول بذكاء: إن هذه مهمتي وإن عليّ أن أغفل عن أعمال السيد – أن أعمل بصمت – أكتب رسالته وأحسب المواد المباعة والمشتراة، ثم أشرب الماء وآكل الطعام وأذهب إلى غرفتي وأنام. تلك هي القدرية المفروضة عليّ باعتباري من الطبقة المسحوقة التي لن تجد كفافها أبدا، وأن عليّ أن أكون قانعا بكل شيء.

تأرجحت بين تلك المشاعر، انتقل بينها كرأس أثقلها الأطفال بالهزء والمخاتلة، يجذبني من ظهري ماض من الجوع، عندها نظرت إلى السائق كأني أبتغي منه شيئا، وسألته، كان قد فوجئ بي:

– هل لك أن تحكي؟

– لكنك ترجو أن أصمت.

– كان هذا، بل ثوان حيث أصابني ألم فاتر عند رأسي.

– يا سيد ناظر، إن المسألة في موجزها لم تعد تستحق التعب.

– ما تعني؟

لم يجب عن سؤالي، سيما وقد أوقفنا دوريه تفتيش. قلت لهم:

مساء الخير، وأمروا السائق بالمرور، ثم قال السائق إن الحدود على بعد ثلاثة كيلو مترات . خجلت من شيء غامض تسرب في جسدي، ثم

تحسست أن الليل سيكون له أثر سيئ، ونظرت إلى السائق كأني أساله عما نفعله بعد قليل، لكنه قال كأنه ينقذني من هلوسات عقلي:

– حاول أن تكون لطيفا معهم.

– هل ثمة ما يستحق أن تقوله الآن؟

– كن طيبا فقط، حاول أن تجيب عن إيما سؤال باختصار ودقة.

توقفنا عند حدود المينة كاف، وجاءنا رجل طيب تشع ملامحه بالدفء. قال بعذوبة كأنه يستل بقية ما عندي من شكوك:

أنت السيد ناظر؟

– نعم.

فوجئت بكونه يعرف من أنا، مع أن العملية تمت مصادفة، فكيف يذكر اسمي؟ وتخيلت أن السيد اتصل به تليفونيا، بينما كان الرجل يسأل مرة ثانية:

– أين الصندوق؟

– فى السيارة.. سآتي به إليك.

همس بشيء من المودة وهو يجذبني من يدي لئلا أصل السيارة:

لا.. تفضل أنت واجلس، سيأتي به أحد الحمالين.

ثم أشار بإصبعه إلى أحد الرجال الموجودين على مقربة منا، فجاء بالصندوق ثم فتحه على بعد أمتار، رأى ما في داخله ثم ضحك بشهوة مخنوقة، وأغل الصندوق، ثم قال: إن البضاعة كاملة، وأنه يشكرني جدا

وأعطاني – وما صدقت عيني – بقشيشا دسما حقا، ثم طلب من أحد رجاله أن يرتدي شرطي ليجلس إلى جانبي في طريق العودة، وتأكد لي أن ما يفعلونه بي يشبه كا يفعله أى طفل في لعبة مجوفة يعشق أن يكسرها ليرى ما تحتويه في الداخل.

خجلت من نفسي: حتى أنهم لم يسألوا ما إذا كنت جائعا مع أن هذا شيء طبيعي بعد هذه المسافة، أما السائق فقد رأيته يلتهم الطعام دون أن يتحسس الورطة التي وقعت بها، غير أنى لم أستطع الصمت فقلت:

– لقد نسيتم أني جائع.

– إنني أعتذر، ستأكل طعامك في السيارة، هل اعتقدت بأننا نسيناك؟

كنت أعرف أن هذه الورطة التي مرت بسلام، لن تكون آخر ما يمكن إيقاعي به، ثمة ما أحسه في القريب، هانذا أرى نفسي صلبا من الداخل يكسرني السيد كيفما يشاء، حسبه أن يرى حقيقة هذه الدمية التي تغمض عينيها متى شاء لها، ثم تكسرت بصمت وتهيأت لها كنت قد ضاجعتها خمس مرات في ليلة واحدة، وفكرت بأن أقطع الليل عندها بمجرد انتهائي من عذابات هذه المهمة.

قلت للسائق بلهجة متزنة:

– عن إذنكما، سأنام حتى وصولنا، فقد أرهقني السفر.

قال الشرطي بينما صمت السائق.

كما تشاء.

ثم عفوت بسرعة عجيبة، تأكد لي وأنا بين اليقظة والحلم مدى التعب الذي عانيت منه، وغرقت في تهويات رائعة تفاوت بين نساء يتعرين ونقود تنزل فو رأسي، ثم فوجئت وأنا مازلت بين اليقظة والحلم بسيارة العطشان تقف على مقربة من تلة رملية معزولة عن الدنيا بأجمعها.

قال السائق بلهجة مهذبة:

– أنزل؟

قال الشرطي بلهجة خشنة:

– أنزل.

قلت بخوف تساقط فوقي دفعة واحدة:

– لماذا؟

قال السائق بينما راح الشرطي يجرني:

– أنزل بسرعة.

لم أجد في عينيهما ما يمكن إدراكه بسهولة. فنزلت خائفا بعد أن فتح لي الباب – أحاول أن أعي ما يدور حولي – حينها راح السائق يضحك والشرطي يخلع ثوبه الرسمي ويرتدي ثوبا مدينا، ويضحك:

– ابتعد عن السيارة:

كان السائق يعوي:

– أرجو لك خطأ جيدا.

لم أجد ما أنطق به، كان لي أن رأيت الصحراء أهول مما ظننت وسرعان ما أدركت أن السيارة قد خرجت عن الطريق المبلط، وأنها قد مرت على درب شبه رملي. ادزاد في حجم الخوف حينما سمعت محرك السيارة يدور بقوة، ثم مضت بهما إلى درب لم أتبينه جيدا، تخيلت بفعل الغربة أنني مازلت أحلم ثم تأكد لي جيدا أن الصحراء تحيطني من كل جانب وأنني وحدي بكل ما تعنيه الوحدة من رعب وجوع وعطش، نظرت إلى السماء ثم إلى الطريق غير المبلط، وعرفت أي وهم تناولته في سري حين ظننت أنهما يضحكان معي وأنهما لابد عائدان! لم أجد ما يوحي بالشك في أمرهما، لماذا إذن قاما بفعل كهذا سيما أن السائق كان وديعا وطيبا وكان كم طينتي من نوع المسحوقين الذين انتمي إليهم؟ لماذا يا ترى؟

مشيت مسافة أمتار طويلة، وليس من شيء يدلني على ما أنا فيه.

مشيت، مشيت، لوثني الذل والعطش، نزعت الجاكيته ورميتها فوق كتفي، ومشيت: خلت أن شيئا موهوما لابد أن يصلحونه في أعماقي. لم أكن أستحق هذا، لد رموني كنفاية. أهمولني دون سبب، وكن..

مددت يدي إلى جيوبي فكاني النقود في مكانها، حتى البقشيش الذي تشلمته كان معي، لماذا إذن تركوني؟

تراءت عين زوجة العطشان، لكن الليل شيء آخر لا يشبه الليل في بيت سيدي، إنه هادئ هدوء المقابر، طويل، ليس فيه من ضحك. ليس به

من بكاء. إنه ليل لم أعشه من قبل. كل شيء فيه بطيء وصعب، حاولت أن أقنع نفسي وأنام، لكن الليل إن استطعت أن أجد فيه من يدلني على مكان ما، أسهل من صباح جديد أعرف أن الحر فيه قد يأكلني.

ومشيت، لم أدر ما أفعل في الصحراء. كل شيء فيها يردد أنه: لا شيء هنا. ومشيت، تذكرت بأني لا أحمل ساعة في معصمي، بل إني دون شيء تقريبا – إن معي نقودا حقيقة يمكن أن أعيش بها أحلى سنوات شبابي – فقط لو أني أجد المفتاح إلى خارج هذه الصحراء.

مشيت، كان مرعبا كل شيء: الرمال، السماء، ثمة أشياء ضخمة.

لم يكن من شيء أحسه قريبا مني بحيث ألفه وأحبه، رميت نفسي على تلة رميلة تشبه المخدة، ونمت من ثقل التعب الذي مزق أعصابي، لكن تهيأ لي بأني قد شعبت من النوم فنهضت بذعر.

كنت وحدي، صحراء تشملني برمالها وصمتها، بهوائها النقي الذي كرهته، صحراء تجعلني شيئا منها، أو قطعه لم يعد من الممكن فرزها عن هذه الكيلو مترات الرهيبة. فخشيت على نفسي وكدت أبكي، ثم تجرأت وقلت من العيب أن أخفي حزني فبكيت لوقت طويل، ثم يصقت وروحت أحدق في بصاقي الذي التهمه الرمال. أدركت لحظتها أن القمر المتسع العريض يوحي بأن الليل مازال قائما، وأنه لن ينتهي بل ثلاث ساعات، كان

هذا بالنسبة لي حافزا على قطع مسافة أبعد في اتجاه قمري حتى أجد أيما مكان مأهول يوصلني بعدها إلى بيت سيدي كي أقص عليه عذاباتي.

ومشيت لم أعرف سر هذا اللهب الذي يشع من عيني، أو سر هذه النار التى تشل رأسي . فرميت الجاكيته على الرمل.. أمسكت برأسي، صرخت بصوت لم تألفه أذني، لم أكن أعرف ما يدور، لم أعرف سر هذا اللهب الذي يطفر من عيني، لم أعرف: مازلت أمشي وأنا أمسك برأسي، أشد عليه بعنف لم أعرفه من قبل ثم أصرخ ثانية، فتحت ربطة عتقي زرميتها، فتحت أزرار قميصي وعدت أمسك برأسي، كنت أقفز مثل حيوان محروق، رميت القميص وعدت أمسك برأسي، كنت أفر مثل حيوان محروق، رميت القميص على الرمل، خلعت حزام بنطلوني وصرخت.

لم يكن من أحد يسمعني، مرت على عيني وجوه الناس الذين أعرفهم – وارد العطشان يضحك: وحدك في الصحراء.. يضحك، أقول له أن يسكت، إن هذا يكفي، لكنه يضحك، يمتضي الحر فأخلع بنطلوني، وأحس أني محزوم بالحر فأخلع كل شيء، أحاول أن أخفف هذه النار التي تأكلني، أمسك برأسي، رميت بنطلوني بين حفنات الرمل، كان حذائي قد امتلاء بحبات الرمل، فخلعته مع الجوارب المبلته بالحرارة، كان رأسي متخما باللهب ومتخما بالعطش، صرخت حيت لم يعد من أحد يسمعني، أتوسل تحت اتساع الشمس وحمقها، صرخت، كان الحر يبلعني، خلعت الفانيلا،

كنت وحدي في الصحراء يتعلق في خيالي وجه زوجه العطشان تقول لي: تعال، تعال، وأنا أصرخ من رعب الصحراء، أصرخ وزوجه سيدي تهمس لي تعال .. لم أعد أحتمل النار التي أكلتنى، خلعت كل شيء وارتميت على الرمل أحتمي به، أغرق بين حباته وأنظر عبر هذا الموت زوجة سيدي تهمس لي تعال .. تعال وأنا أصرخ من رعب أكبر، وأنا أحتمي بين الرمل الذي يدخل أذني، عيني، يخل أنفي، يغطيني، يخل جوفي، والسيدة تصرخ بي تعال، وأنا بين الرمال التي فتحت بابها إلي – أصرخ بصوت لم تألفه أذني – حيث كانت مملوءة بحبات الرمل، وأنا عطشان أتلوث بالرمل الذي يبتل في جوفي، في أذني، أحتمي به وقد المنني نعومته.

كنت أحس بأني مقهور جدا، وأن الدرب التي سلكتها مع السائق كانت محفوفة بالجوع والحظر. كان الرمل يدخل أعضائي، أحست بأني حفنة رمل، متداخل فيه إلى الأبد .. وأنني عدت قطعة لن تتجزأ من صحراء دامية تعلوها شمي لم تعرف الرحمة، وأنا وثيابي: الرمل، مغموران في عمق لم تنتبه لعيني : الرمل، تقودني والشمس التي تغمرني: الرمل.. غرقت إلى قاع مبتل، جسدي: الرمل، غرقت إلى قاع مبتل بالرمل وبي.

الإنسان البحر

إلي: محمود جنداري

١

دخلت من الباب الأول، رأيت دما وصديقا أعرفه من سبع وعشرين سنة، دخلت من الباب الثاني، رأيت خادما عاش معي من سبع وعشرين سنة، وما إن دخلت نت الباب الثالث – وكان هذا مفتوحا طوال الوقت – حتى رأيت دما يابسا ووجها أحببته من سبع وعشرين سنة. كنت أجد في كل شيء، من يمين البيت إلى يساره.. وصرخت مثل ممثل رخيص:–

يكفي. هذا يكفي. لقد طال بي الوقت!

هل ترى طال بي الوقت؟ أما حان وقت دخول الباب الرابع؟ كم مر عليّ وأنا أقف مبهوتا حذرا؟ خائف بقية أبواب البيت سوى ثلاثة أبواب؟ ما هي تزداد وأنا أرى حوافها ترتطم ببعضها، الباب الخامس والسادس والـ.. ثم أهرب مثل طفل، يخدش أصابعي خشب الباب السابع ويطير حتى الباب العاشر أرضا، أقفز. فأجد دما يابسا ووجه طفل غريب يضحك:

لقد ضيعت بقية أبواب اللعبة!

ماذا ضيعت؟ الباب الثامن والتاسع، إنها تزداد، وداخل عيني أرى حوافها تغلق، ثم أراها مكسورة في مكان، ومحطمة كليا في مكان آخر، وأضحك مثل الطفل الذي خدش حيائي:

– هل هي الأبواب العشر كلها؟ جربت الدخول منها، ولكن ألا يكفي باب واحد لهذه البيت؟ ألا يكفيه بابان؟ ولماذا هذا الدم المتخثر عند العتبات؟ من أين جاء هذا الطفل؟ لماذا أجد نفسي مهموما حد الرعب؟!

– ما شأني بهذا البيت، وما شأني بالذي فيه؟!

كان صديقي خلف الباب الأول يبكي، معه كانت مئذنه الحي تبكي، فسألته بخوف:

ماذا تفعل هنا؟ لا أعرف هذا البيت ولا أدري كيف ومن أين جئت إليه؟!

سمعت الله فوق رأس المئذنة، بينما رد صديقي من فوق رأسي وبوجه متجمد:

أتيت من بغداد، حاولت أن أبحث عن بيت . أي بيت أنام فيه، قال لي أبواب العمارة هذا مكان رخيص، ولك وفيه أصدقاء!

أنها نفس ما قاله لي.. لقد رأيت أيضا خادما أعرفه من سبع وعشرين سنة، لكن ملامحه تأنف أن تؤكد لي بأنه نفس الرجل.

فى البيت، من داخل دائرته الصفراء، سمعنا صراخا، لم ننتبه لشيء فقد رد صديقي:

– هل رأيت الطفل؟ إنه الذي أخافه دون سواء، قتل طيورا وحماما بيديه، كان يأخذ أي عصفور تحت أصابعه ويقطعه بهدوء، لقد تعلمت الخوف ببضعة أيام فقط.

هذا الكابوس كان معي، يدخل بي وأدخل فيه، أحسه في لبنة أعضائي، قفزت عند رمال البحر، غطيت نفسي بمجلدات الفنادق، قتلت نفسي مع النساء، شربت ودخنت، لكن الكابوس معي، يبدأ من حيث لا أدري، ويعيش معي إلى أن يغمى علي!

وراء الباب رأيت وجه امرأة خدرني حبها، وجننت بها، لم أعرف حد جوني حتى سافرت عنها، كان وجه امرأتي مقطوعا عند حواف خشبية حادة، قلت: ماذا يجري؟ فأجاب الطفل:

– كنت أظنها طائرا يهرب مني..

– لو أني أفر على جسد هذا الطفل، لتمكنت أن آكل قطعة قطعة. لو أني أسكت لهدمني حزني! .. صرخت، ما الفائدة؟ ها أني أوقظ نفسي بيدي، أرى كيف تسرب حلمي في جذور أعضائي، وكيف مالت بي جدران الغرفة ومالت بي السماء إذ أراها من نافذة تحيطها الجرذان والدماء الزرقاء.

– تجذر في حتى أعمق وجداني.. كيف مالت بي الغرفة؟ وحدي، ما عدت أفرق أن أكون وحدي أو ضمن كابوسي، هنا أرى الطفل جالسا يضحك من جسدي العاري، وهذا صديقي مازال مأخوذا وخائفا، قد يهذي أيضا، من يدري سر أى شيء؟ الأسماك في البحر، والبحر في جسدي وأنا في الكابوس، أتحنط يوما بعد آخر، يتسرب لحمي سورات حلمية، أذني وفمي وأنفي في سورة لها رقم مألوف عندي، صدري ويدي اليسرى في سورة ثانية، أما ارتعاشاتي وعضوي الجميل فقد تلقفتهما سورة لها فوهة ضيقة مخيفة.. وراحت تأكل منهما معا – حدست أنها سورة أنثوية عطشة – فرحت أهذي وأنا أحاول أن أمد يدي أحمي فيها ممتلكاتي من الموت والتآكل.

داخل هذا البحر توجد أسماك وحيتان، وتوجد مياه مالحة مسمومة.. بينما داخل جسدي توجد أبواب مفتوحة وأخرى مغلقة، لا أدري هل رأسي يدخل فيها كل الوقت: (هل رأسي بينها بحيث أبحث عن شيء يبحث عن رأسي فيها؟)..

أعرف أن خلف هذا الباب مازال صديقي مذعورا، ومازال يحدق في الطفل الغريبي وهو يقتل الطيور، وأعرف أن خلف ذلك الباب مازال خادمي يأنف أن يقول الحقيقة، بل إني ما عدت واثقا في أي واحد منا كان السيد؟ لكن ما أعرفه جيدا أن خلف الباب الثالث دم يابس ووجه امرأة مت فيها حبا، وأعرف أني خلف كل الأبواب أبحث عن شيء لم تأكد من سماته

بعد.. ولكنه موجود في الذهن والروح.. فهو معي بلونه وطعمه ورائحته منذ الطفولة.

عند الباب الغربي، ثمة كشك أسفر اللون، مهمل من زمن المغول، إلى جنبه يوجد شحاذ يلبس ثوبا أصفر ممزقا، بينما خلف الكشك حقنة نفايات ذات رائحة زنخة تلف المكان من الجانب.. لهذا تجد أي عابر من هناك يلف أنفه ويركض.. بخوف وحذر!

هل ترى شبعت من تلك الرائحة حتى تغذت عليها أنفاسي، ومنها تشربت إلى كل قطعة من جسدي؟!

لا.. إن هذا لمن ترهات ما أفكر فيه، وليس في مواطن هذا الجسد سوى النقاء الذي ورثته عن..!!

عمن تراني ورثت نقائي إن كنت نقيا حقا؟ من أبي لص الشوارع، أشهر من ترتفع صورهم فى "احذر من هذا"؟!.. من أمي زانية الحي وأرخص من باعت فخذيها؟! من جدي رحمة الله عليه، إذ حج إلى بيت الله سبع مرات وفى الثامنه باع جهوده بسعر التراب إلى خواجة أمريكاني؟! من أين ورثت؟ هل جاء في دون إرث؟ هل تراني أضحك من نفسي!.. هل تعلمت الهزء من أحد كي أمارس ذلك أمارس ذلك ضدي؟!

أمارس ماذا ضد من؟

الرجل يغر في الماء ويموت، أو يغرق في النساء ويموت، قد يغرق في نفسه ويموت، وهكذا أجد الجواب، مادامت لم أجرب العيش في البحر، ولم أجربه في النساء، فقد جربت كل شيء داخل نفسي.. بحثت وفتشت عن أدق مكوناتي، نسيت المدارس والأنهار والعائلة، أكلت من بقايا بائتة وشربت من مياه نتنة. من داخل نفسي أرى، ومن خصاصها أحدق في السماء والطيور والأصدقاء.. ما خرجت يوما لإنسان، وما مر داخلي انسان، وحدي في الوحدة، وحدي بين الناس، ووحدي في الشوارع والحانات والبيوت!!.. بل وحدي في الفراش والخوف والكوابيس.. لم أعط يدي، ولم تمتد إلى يد.. لم أحمل رائحة في جسدي لكائن، ولم أجد وشما أو تاريخا أو رسما على ملامحي..

كنت أعرف أني اخترت نفسي تائها في خارطة الموجودين، تائها داخل وجدان مقفر ليس أقل من صحراء!

فجأة، يمكن أن أرى هذا البحر..

لقد رأيت البحر يغطي الأسماك، سورات من الماء تلف رأسي تقيأت مرة وشعرت بشيء من الخيبة، كانت ثمة امرأة فرنسية تضحك..

على حدود الباخرة كان العجائز يتمطون عن نعاس ثقيل، وكنت وحدي أقرأ في (سر الخرنيت).. قال تان تان لهادوك وهو يضحك منه:

– دعنا نكتشف جواهر رخام الأحمر..

– ولما أجاب هادهوك: هل تعرف مكانها حقيقة؟

– كانت الفرنسية ما زالت تضحك من هذا الطفل الذي يتقبأ ويقرأ تان تان فو هذا البحر الممتد إلى آخر السماء.. ولم أكن أضحك مثلها. فقد كنت أعرف لون دمي وأعصابي، أنا الخارج من بحر ثان لن تفهمه تلك المومس الجميلة.

عند الباب الشمالي، لن تجد سوى رجل وامرأة، ليس بينهما أى حاجز، ملتصقان طوال الوقت كأنهما تمثال من أسمنت، دخلت كابوسي وأنا أرى جسد المرأة يحتك بأعضاء الرجل، رجعت خائبا إلى الوراء، وتذكرت سورة أنثوية ضيقت على جسدي يوما، وصرخت:

– إلى أين تأخذني أيها البحر؟ هل تطمح في جسدي ولديك كل هذه الحيتان؟ ها هي واحدة تنفض نفسها من خبثك وتخرج إلينا كي ننقذها من أبوتك، وها أنت تريد بديلا عنها، أليس من بديل سواي؟

– أليس من أحد تأكله تموجاتك هذه.. ماذا لديك عندي، لماذا كل شيء يشبه أى شئ حولي : البحر، العائلة.. الأبواب، وأسماء الأحيان من أصدقائي، وبه من أعرف: كلها تريد أن تنهي اسمي وتنهش لحمي، كلها تبحث عن باب حديد يمكنها أن تدخل منه نحوي لتفتك بي.. أليس من بديل سواي كى يتوازن هذا البحر، أو يتوازن هذا العالم العجيب!

وها هو الباب الشرقي..

منه يرى كل الناس وجه الشمس، ووجه أمي عندما تذهب للسيد حسن البقال وتمنحه شرفي بنصف دينار.. ومن هذا الباب نفسه خرجت أنا عاريا فرحا، لمست لحمي امرأة جميلة أغراها وجه الشمس يومها قالت:

– إنه يوسف آخر جاء لهذه الدنيا، سيأكله الحساد وتنهشه ألسن أقرانه، ليس من السهل أن تمنحوه الأمان!.

ولم أجد يومها من يهتم بلون وجهي، فقد تزايد أمثالي، وأصبحت مجرد يوسف تناديه أمه كي يذهب معها ويغطي سرها..

كنت أحمل اسمي طوال سبع وعشرين سنة، حتى نسيت لماذا سميت له، لكن وجه الشمس لما يغرب ووجه أمي خلف الحيطان مازالا يمران معا إلى بحور ذاكرتي، أحاول أن أعرف كم عدد المرات التي غربت فيها الشمس وكم تساوي إذا حسبت كل غيبة منها بنصف ديار؟

كنت أعي شيئا واحدا وأنا أضحك:

– إن أمي ليست أقل شجاعة من الشمس، فقد تعلمت أن تغرب عن دارنا يوميا لتشرق تحت فخذي حسن البقال الذي قال يوما:

– كيف حالك أيها القمر؟

كان البقال حسن يحدس أنه سيمسك الشمس والقمر في ليلة ما، لكن بياض وجهي وأعماقي يومها ردا عليه بلهجة خائفة صبورة:

– ما شأنك أنت؟

وما نفعت أعماي ولا بياض وجهي من أن تحمي يوسف من بطش البقال! وارتميت في سري وسر أمي أشرب آخر أطراف كابوسي الذي صحوت منه قبل ثوان فقط.

هل كان ثمة باب آخر؟

كان الباب الجنوبي مقفرا، ليس من أحد يمر عليه، سوى كلب مبلل ولما.. كنت أفهم جيدا لغة الكلاب، فد سرني ضعفه وانحنيت عليه، رفعته من بركة وسخة وأخذته إلى رصيف يابس.. خلعت ثوبي ونشفت جسمه بهدوء وحب، ما كان يعوي، لكنه راح يلحس أصابعي بنفس هدوئي، ثم حدقت في عينيه بعطف لم أجربه أبدا.

تركته خلف ظهري وقد شعرت براحة عظيمة، لما فعلت ولم أتحرك أكثر من ثلاثة أمتار حتى فوجئت بالطفل ينقض عليه بفأس تقطعه نصفين، ولم أحتمل.

رحت أركض خلفه بجنون، وما كدت أمسكه وأبكي بعنف، وتحول المكان المقفر إلى شبه مولد فيه النساء والعجائز والبنات الجميلات، حاولت أن أهرب، لكن الطفل راح يصرخ:

– لقد كان كلبا مسكينا لا يؤذي، لما قتلته؟!

– وتحولت – فجأة – إلى قاتل رخيص، بينما حمل الطفل فأسه وابتعد وبقيت بين عيون العجائز، البنات يبصقن على بسرعة كأن كل واحدة منهن

تأخذ أجرة عن بصاقها.. ولم تمض سوى دقائق حتى غرفت، فوجدت البحر حولي، ذهبت إلى فراشي وأنا أرى الركاب محشوين سعادة سعادة، أما كلب المرأة الفرنسية فما زال مبللا..

– حدق الكلب في عينني طويلا.. وحدقت في عينيه، شعرت أني أعرفه جدا.

هل كنت أفهم لغة الكلاب حقا؟!

لماذا تراني سميت الأبواب، كأنها ملونة أو مرقمة؟

كل باب يمكن الدخول منه إلى غرفة، وكل غرفة يمكن رؤية ما فيها، ولم أجد بعد فرصة كي أحيط بشيء سوى هذه الدماء المتسربة من شقوق البيت أو الدماء اليابسة فوق الجدارن.

إذا كان أبي قد مارس السرقة، وإذا كانت أمي زنت بنفسها، وإذا كان أخي قد مات سكرانا، أو أخي الثاني وقد شربته الحشيشة والخمر فهل يمكن أن تتحول ذلك كله إلى إرث خاص في داخلي؟!

لقد ورثت نقائي من دماء أبي ومن فخذي أمي، عشت في سراديب تشبه الكهوف، انتقل من نفسي أخرى، أقرأ، أحاول أن أعرف الجواب على أمثالي، إذا يحيطني كل ليلة حلم خانق يمررني إلى أصدقائي وهم يشتموني يهربون مني، حتى اعتدت على البقاء وحدي خاليا من ملامحهم، منفردا بصوت عميق يداري خجلي ووحدتي:

– خذ ما شئت، متى شئت، ليس العمر إلا مرة واحدة، كن مع النساء رجلا قويا، كن مع الممثلين ممثلا فطنا، كن مع الصغار طفلا، وكن مع أمك حارسا، ليس العمر سوى مرة، إما أن تربحها، أو تخسرها..!

– وأنا أمقت الخسارة، أدري كيف يأخذني طموحي إلى كل شيء:

القتل؟ ربما.. السرقة؟ هذا شيء بسيط. وما دمت وحدي، ماذا يردني إذن؟

البحر الذي أنا فوقه سيبقى طوال حياتي، مملوءة بكل شيء، وأبي لن يجرؤ على ترك مهنته – رغم أنه مات مسروقا – كان يدري بمهن أمي، وهى راضية بكل نصفي رغم هذه السعة المخفية من المياه الزرقاء إذ تزداد عمقا يوما بعد يوم..!

الباب الشرقي مفتوح، والباب الشمالي يلعب الطفل عنده، وأنا مخنوق عند البحر، داخل أمتار معدودة، أصرخ. كل بحارة السفينة يحدقون بي، يعرفون كم هو سهل: إنقاذ غريق!

كل الأبواب مفتوحة أمامي، وكل سورات الماء مفتوحة لي، وكل النساء اللائي معي مفتوحات لتجدني، ينما كنت أغرق فعلا، أغرق فعلا، أغرق حتى دون صراخ هذه المرة، أغرق، فقد أخطأ البحارة، تحديد الوقت، ولم يسعف القبطان إنه قال بصوت عال:

– ماذا بكم أيها الكسالى، هل تريدون أن يموت كي تنسلوا في هذا البحر على حساب سمعه؟!

– عندها عرفت أني رجعت على ظهر"كرادنيس" وهي تصعد بي إلى شواطئ أوروبا..

– فى هذا الوقت عرفت أني موجود، وأني واحد من ركاب السفينة وهى تمخر عباب البحر الأبيض الى حيث لا أدري!

– فى أول ليلة خرجت فيها أمي من البيت، كانت فردة حذائها تكاد تنكسر، ولما رجعت عند أول الليل رأيت فردة حذائها قد تصلحت، وأعطت أخي درهمين فذهب إلى السينما، ولما رجعت أمي في اليوم الثاني أعطتني درهمين أيضا، وما كنت أعرف – وأنا في طريقي إلى السينما – بأن أمي قد تعبت في هذا المشوار تعبا مرا..

فى آخر الليل رأيت أبي يتبول عند فتحة من زقاق قديم، فوجئت به يضحك، ثم يبكي، ويضحك ثانية ويهمس:

– هى عيشة وحدة، دعها كما خلقت !

– اقتربت من أبي، كان بنطلونه مفتوحا، همست بخوف:

– ماذا بك يا أبي؟ تهيأ لي أنك تبكي!

هل كان أبي يبكي؟

رد بصوت خافت منكسر:

– ماذا تفعل ولا أدري لماذا نظرت خلفي:

– كنت في السينما..

– ما عرفت أن أبي سكران في أول وهلة، كان يسأل وهو يتجشأ:

– ماذا فعلت في السينما؟!

– قلت له أنا أضحك:

– رأيت فيلما مليئا بالمغامرات.

– ولماذا تضحك إذن؟

– كنت أمشي إلى جانبه، شممت راسحة لم أتكهن ما إذا كانت من إبطيه، أو أنها رائحة الخمر الذي يشربه! لكن فجأة ودون أن أعي سر رغبتي، شعرت بأني سأمد يدي إلى جيوب أبي وأسرق ما لديه من نقود..

– لماذا سكت؟ أضحك يا ولد، إنها مرة واحدة .

– أمي تقول: سارق من سارق حلال..

– لا أدري ما الذي جرى في تلك الدقائق، غير أني رأيت أبي يمد أصابعه إلى أحد الجيوب، ويدفعها إلي:

– خذ، هذا دينار يكفيك عشر مرات في السينما .

وراتخت مفاصلي، هل ترى أحس أبي بأني أريد أن أسرقة؟ لا ليس هذا ممكنا دون شك.. مثل كلب رحت أهمس:

شكرا با أبي، شكرا..

وهربت إلى البيت قبل رجوعه، فرأيت أمي جالسة تضحك، ثم تمد يديها إلى عينيها تمسح بعض دموعها، تبكي؟! أكانت أمي تبكي؟..

نفس ما رأيته على وجه أبي..

لما شعرت بأني رجعت، قالت بحذر:

أذاهب إلى فراشك يا ولد، أبوك في طريقه إلى البيت.

قلت لها وأنا أحس بالفرح:

رأيته، وأعطاني دينارا.. دينارا حقيقا!

لكن الذي ما عرفت جوابا عليه، أن يدي وأنا أفتحها كانت تحوي حفنة من الدنانير، وأن أبي لم يعد ليلتها إلى البيت، بل لم يعد إلى البيت. أبدا..

أمي مازالت تقول كل صباح:

أنت قاتل أبيك، لو كنت قد رجعت معه لما جرى ما جرى!

ماذا جرى لأبي؟!

ما كان البحر يملك أجوبة، ولكن البحر كان وحدة معي!

من قتل من؟

ليس عليّ أن أقف ساكنا وأنا على عتبات يوم جديد أدخل فيه بكابوسي وبأعضائي، دون أن أعرف ما الذي جري؟

خدوش أراها فوق لحمي، وبحر هال يأخذني إلى عمق لم تجره دمائي، وحدي مازلت، ووحدي سأبقى طول الوقت..

البحارة يسألون الركاب، والقطبان يسأل البحارة، وأنا أتملد بينهم مثل جثة..

كيف، وما سبب وقوعه في البحر؟

السفينة تقف في عرض البحر، ثلاثة من البحارة يقفون عند الحاجز، قال القطبان:

عندما تصل "كرادنيس" إلى جنوي، ستبحثون عن عيش آخر في باخرة أخرى، أنتم السبب!

قلت وأنا في سبات يشبه الموت:

أنا يا سيدي رميت بنفسي إلى البحر..

لما رأيت وجه القطبان يتحول فوقي، قلت ثانية وأنا أحدق في السماء:

رميت بكل إلى البحر، ليس ثمة ذنب يحمله غيري، ركبت باخرتك وأنا أفكر في الدقيقة التى أجد فيها الجرأة على قتل يوسف.

هل اسمك يوسف؟

يوسف بن حسن البقال، إذا أردت الحقيقة!

قال أحد البحارة وكان يحمل جوازات سفر الركاب:

إنه يهذي، أو ربما يكذب، اسمه يوسف عبد العباس، سيدي هذا مكتوب هنا أيضا.. انظر..

هل كنت أهذي؟

كان وجه أمي معي، وكان أبي يموت خلف ذاكرتي، أعرف – ما زلت – أخي بكل ملامحه، بينما وجه البحار وهو يعطي جواز سفري إلى القبطان بات مثل موجه تنخفض ببطء كي أختفي تحتها محموما، يتشبرني الهذيان المر، وتنهش في بطني مياه البحر المالحة إذا تقيأت نصفها، ولم يزل بعد في داخل إحساسي نصفها الثاني.

ولكن!

من قتل من في هذه الدقائق وقد مرت كأنها شهور؟

اسمي يوسف..

أبي يسمونه حسن البقال، وربما كنت وحدي من يعرفه!

كان آخر ما قاله القبطان:

لقد جعلت هذه الرحلة غابة في السوء يا سيد يوسف.. إلم تجد مكانا أنسب من هذا كي تموت فيه؟

وغاب عن وجهي كل الموجودين.. وبقيت وحدي كما كنت دائما.. ثم تسلل نحوي من يسأل:

أنت يوسف؟

وواحد يهمس من وراء حاجز خشبي:

بن حسن البقال؟ جوازك مزيف إذن؟

لا شك أنك رجل خطر كي يرموك في البحر..

صرخت، جاء البحارة إلى مكاني، هرب الموجودون، رحت أبكي وأنا أحس بعشق كبير لهذا البحر الذي غطاني لدقائق..

رفعت يدي كمن يصلي، رأيت نورسا واحدا يحق حول السفينة، وعندما أشرت إليه وصفقت له، كان بقية الركاب – من أعلى سور في السفينة – يضحكون مني..

لماذا يضحكون؟

كان النورس قد ارتاح لي، جاء نحوي مثل عروس، ثم وقف على حاجز مبلل، مددت إليه يدي، فازداد ضحك الركاب، صعدت موجه إلى قلب السفينة، غسلت وجهي من التعب الممض، وغادري النورس، حاولت أن أعرف كيف غاب عني فجأة، لكن بحارا طيبا قال لي بحب:

ماذا بك يا سيد يوسف؟ لماذا تجعل الناس يضحكون منك؟!

نظرت إليه وشعرت بخوف لا أدري سره:

يضحكون؟ لقد كنت أداعب النورس وأنا حر فيما أفعل.

لكن الخوف تزايد في أوصالي عندما سمعته يردد:

أي نورس في عرض هذا البحر؟ هل تتخيل ذلك أم تهزأ مني؟

النوارس لا ترى على البعد يا سيد يوسف..

كنت قد رأيت نورسا حقيقا، وكان قد جاء عندي فعلا، ليس هناك أي شك، هل يريدون أن أن يزرعوا الذعر في رأسي؟

أنا – بهاتين العنين – رأيت النورس، أبيض ذا أصفر داكن، وإذا كنت وحدي من رأة فليس معنى هذا أنه غير موجود، إنهم يتآمرون ضدي!

صرخت ملء حنجرتي:

إنه أبيض.. ذو منقار أصفر.. إنه أبيض.. وله منقار أصفر!

سمعت صافرة السفينة تعلن حالة طوارئ، وجدت يدي حبلا سلكيا وقد تجرحت أصابعي من الشد عليه، مع أني رحت أعوي في طول وعرض السفينة:

أبيض، وله منقار أصفر.. أليست النوارس بيضاء ولها مناقير صفراء..

من خلفي سمعت همسا، يتصاعد، يمسكني اثنان من البحارة، ولأني كنت غاضبا جدا فقد سبحت في أيادي الناس إذا راحت تأخذني ذات اليمين وذات اليسار..

عدد هائل من الأصابع، غفوت وأنا أحاول أن أمنعها من قتلي!

نعم، يتآمرون ضدي منذ سبع وعشرين سنة.

مات أبي واتهموني بقتله، مات أخي فرموني بحقد عجيب، كأني وحدي من يحمل كل ذنوب الموتى وكل ذنوب الأحياء.. شئت أم أبيت وجدت

نفسي في عرض البحر، ربما أراد هذا النورس أن ينقذني بإشارة من السماء، كأن يقول:

احترس، إنهم يمدون إليك الحبل، كي يتسلوا بك وقتا أطول احذر منهم، كل واحد ممن أهملته أنت يقف خلف ظهرك يفكر في الدقيقة التي يرميك فيها إلى حيتان البحر، هل ترى يوجد هذا البحر؟ لماذا تراهم يضحكون منك وقد رأيت نورسا حقيقيا، هل عميت عيون البحارة أيضا كي يقول نفس ما سمعته من الركاب؟

قلت: إنهم يتآمرون ضدك يا يوسف.. وحدك من عليه أن يحذر في طول وعرض هذا البحر، إنهم قساة ولهم تجارب مخفية في أساليب القتل هل فهمت أنك استطعت الهرب والنجاة بعد موت أبيك وأنك ما عدت ترى شرفك بياعا بالتقسيط عند دكان السيد حسن البقال؟.. هل فهمت أنك انتهيت من كل الماضي؟

لا.. لم يقل أحد إن الماضي يمكنه أن يعطيك كل شيء لتهرب بعد ذلك دون أن تدفع الثمن.

إن للناس حقا عليك، وإذا كانت أمك قد تعبت فعليك أن تتعب – أنت جميل وهذا يكفي بعض الرجال – إذا كان أبوك قد سرق من أجل عينيك فعليك أن تسرق، وإذا مات أخوك غدرا فأنت موجود لرد أنفاسه إلى البيت بأن تقتل قاتليه!

هل فهمت أنك وحدك الآن دون سؤال ودون جواب.

المسافة إليّ أو ينفذون ليست بعيدة، إنما البعد يكمن في أنهم قد يسامحونك الآن أو ينفذون ما في أعماق كل منهم، والبحر –كما ترى – مازال ممتدا، وما عليك سوى أن تفكر في دفع كل الخسارات مرة واحدة، كى تهدأ..

أن تعيش كما يريدون، أو تموت كما يريدون.. أيضا.

لكنها نفس الأبواب، في البحر أو على اليابسة، مرة أفتحها بنفسي ومرة أجدها مفتوحة تطفح منها الدماء والجوه التي عاشرتها في زمن ما، الطفل مازال يمرح خلفها، يمكن أن أراه خلف كل باب يقتل طيرا أو يمثل به.. وأنا ببطء أتحول في عينيه إلى طائر كبير، ما إن يراني حتى يضحك ثم يحمل فأسه ويدور حولي.

هذا الطفل لم يتعب أبدا، يمكنه في أية ثانية أن يرفع فأسه ويغرسها في رأسي، من يدري متى يحدث لي ما حدث لغيري على يديه؟

لكني أحس كمن ينتظر تلك الأشعة، وتلك الفأس وهي تنزل في داخلي توزعني إلى نثارات لحميه يأخذها الريح إلى حيث البحر أو إلى أى مكان حيث آخر..؟

ثم وصلنا نابولي..

هل وصلنا أي مكان؟ إن البحر لا يأخذنا إلى ميناء ولن يأخنا إلى وطن جديد، إن هذه التسليه المريبة تجرني وحدي إلى الهلاك ووحدي من يحاول أن يجد الحل. كلهم يمرحون ويرقصون، وأنا أهتز مع الربح، أتموج مثل ضعيفة، أحاول أن أبعد الخوف عني فلا أجد سوى خوف أعمق..

هل وصلنا نابلوي.. لقد كثرت النوارس، فهل تزايد في جسدي الجنون!

لقد حذرني النورس وما فهمت جيدا ما علي على أن أفعله في طول هذا البحر الهائل، هل ثمة ما أفعل؟ إنهم يحدقون بي وأنا وحدي: أرى في عيون الركاب والبحارة ما يجعل المسافة إلى الموت موتا آخر أعمق رعبا.

فأنا لا أعرف كيف يقررون قتل، ولكن أنتظر.

من آخر الكابوس. من آخر باب فيه، خرجت أمي من البحر، النساء على ظهر الباخرة يضحكن من ثيابها، وأمي تضحك منهن أيضا، كان الطفل يجرها إلى البحر بينما تحاول أمي أن تنقذ نفسها مما كانت فيه!

سمعت أمراة هندية تهمس:

إن ثيابها تشبه ثيابنا، لماذا يضحكن منها.

أجابت عليها امرأة دون جنسية:

لذا تجدين الركاب يضحكون منك أيضا.

رفعت الهندية رأسها وقالت بغضب:

يضحكون؟ يقولون إن زي الهنود أجمل ما رأينا، كان هذا ما أسمعه في فراش كل واحد منهم، عندما أعري من ثيابي أحس أني خلعت أهم شيء عندي.

وجه أمي يتفرس في النساء، النورس عاد فوق رأسها كأنه يقول:

(جثتك بأمك أيها العزيز).. ولأول مرة شعرت أن أمي طيبة ونقية وأنها لم تكن سيئة عندما أعطت نفسها إلى حسن البقال، فكل نساء "كرادنيس" رأيتهن يمارسن الحب على ذوي المال في الدرجة الأولى.

بين الركاب رجل من الكويت يحمل في طيات ثوبه الأبيض المغسول برابسو حفنة من الدولارات لا يعرف هو نفسه كم عددها، بينما تمكنت أن أحدس ذلك، والذس عرفته طوال أسبوع في البحر أن كل نساء الباخرة من معه وأن جيبه الثاني من وجهة القلب قد فزع تماما ولم تبق له سوى بضعة جيوب أخرى مليئة!

مخنوق، أحس بأني أظهر ثانية بكل ما أملك من حب، وكما تختفي مرئيا كل مرة اختفت أمي بثيابها، واختفت رائحة البحر ورائحة النساء، ورجعت إلى داخلي أتفرس في الذعر الذي ينهش بي، وأيضا كما في كل مرة، رحت أبكي هذه العتمة داخل روحي التي ما عرفت سرها أبدا، ونهضت أبحث عن شيء، أى شيء يأخذ وقتا أطول.

لم يكن أبحر عدائيا، فقد هدأت أمواجه، وهدأت أنا معه، مشيت لصق الحاجز وحدي، أنظر إلى أبعد نقطة خارج البحر، فأرى آخر حد من السماء، دائرة من الصفاء تمتد حول السفينة، ودائرة أخرى من الرضا تمتد حولي.

لم يكن من أحد يضحك مني هذه الساعة!

أكلت السمك والبطاطا وشربت نبيذا فرنسيا، جلست قرب امرأة نائمة.. سرعان ما غفوت، فرأيت البحر جنينا في قلب المحيط، ورأيت المحيط ابنا من أبناء الأرض، ورأيت الأرض طفلا بكرا من أطفال الكون، وشعرت أني صغر، وأني لن أعرف ماذا وليست سوى نقطة لحم في بحر يمكنه أن يتسع لكل يوسف على وجه الأرض!

فتحت عيني على جسد المرأة ولا أدري لماذا قالت:

هل أنت من روما؟

حدقت في ممر ضيق يفوت منه الهواء بين أصابعي وقلت مثل طفل:

لا، لست من روما، ولست إيطاليا.

هل تراك من باريس؟

ومازال في أعماقي شيء من الوقاحة:

لست فرنسيا، وأنت؟

نظرت إلى ممر أصعابي، وراحت بدورها تحدق في ممر آخر بين أصعابها، مثل أنثى رخيصة همست:

لكنك لم تقل لي: من أين أنت؟

أحس برغبة أن تعرفي بنفسك من أين أنا؟

مدريد ؟ لا، لست إسبانيا، يوناني؟ لا..

شيوعي من بولندا؟ لا.. أمريكي ؟ قال هي: لا طبعا من أنت ومن أين جئت! ومن أين جئت!

ولم أقل، كان الشيطان يشبه طفلا أعرفه في الكوابيس، راح يمطرني بالفرح وبالوقاحة، هل ترى كان الفرح الذي جاءني يكفي لتعويض قتلي؟

قلت لها: لست بلغاريا، ولا نمساويا، ولست ألمانيا كما تظنين ولا يهوديا، كما أني لست نرويجيا ولا روسيا، ولست! فقالت هي دون احتمال وقد رفعت جسمها:

إنك لست إنسانا من هذا الكون أبدا؟!

نظرت إلى ظهرها، فوجئت لما قالته، لكن الشيطان الطفل الذي يلعب بي جعلني أركض خلفها، وما إن أصبحت قرب عينيها حتى صرخت بها:

أليس في عقلك لإنسان من وطن آخر؟

شدها الخوف مني، وبنفس الخوف قالت:

ذكرت لك الدنيا بأسرها، لم يبق على الخارطة أيما بلد آخر؟

ولماذا الغضب؟ لقد كانت لعبة طريفة، ألا تجدين أنها لعبة جميلة أن تفكري!؟

لقد تعبت، ولا أدري ماذا دهاني؟

ثم اعتذرت مني، فقلت: إنها جميلة، ورجعت إلى مكاني أفكر في الليل الذي يأتي بعد هدوئي!

هل تراني هدأت ؟

أتعرف النار تهدأ إذا لم يتحول كل وهجها إلى رماد؟

أهذا يعني نهاية وهجي؟ ماذا بي؟ ما الذي أعاني منه وأخافه طول العمر؟ لا أدري ما عساني أفعل؟ هذا البحر يملك في جوفه جوابا أكيدا على أمثالي.

هل أملك الجرأة على جواب كهذا وأقتل يوسف بيدي؟

لكني فعلت، ورميت بنفسي إليه، أمن العيب أن أجرب ثانية وعلى غفلة من الجميع..

لقد جعلت هذه المرحلة غاية في السوء، أليس من مكان آخر تقتل فيه نفسك.

القبطان رجل طيب، سمعته مثل صدى يردد كلمة، وإذا جربت موتي ثانية وبنفس أسلوبي الأول، وإذا أنقذوني ثانية أيضا، سوف أكون سخيفا في

عيون البحارة وربما عاملوني كمجنون، وقد يرغموني على الجلوس في مكان واحد، من يرى، ربما يحرسوني أو يتفرغون للتسلية بي.

مازلت أرى كل شيء بهدوء..

هل تراني هدأت؟ أهذا الخوف الذي ينهش داخلي، أوجه أمي وأبي وأخي القتيل، أو صديقي الذي يختفي في الرأس مثل ثمرة سامة، والطفل الذي مازال يمر في شرايين العين، أكل هذا وذاك لا يكفي سببا كل أموت ثانية رغم الفشل الذي خرب بيتي وكبريائي؟

ألا يكفي أني مقتول في النوم ومقتول في اليقظة؟

ماذا أنتظر؟

قلت لنفسي: ماذا أنتظر.

كانت خلفي صراخات تشبه موجا عنيفا، ماذا أنتظر، كان خلفي تباح ومواء وصدى..

ماذا أنتظر؟

تركت وراء ظهري العيون والأجساد وزجاجات الجن والفودكا، وخلفي كان البحارة يشخرون دون نوم.

رفعت جسمي، لم أكن أدري سر هذا الصراخ النقي الذي راح يصعد من أصابع رجلي، ومر في كل مفاصلي وأعضائي.

شعرت به عند عضوي، وعند قلبي، ثلاث حقائب، وجواز سفر عراقي، ورجال ونساء، ودولارات، وبيجاما جديدة..

خلفي: كانت النساء مازلن مرميات في الدرجة الأولي، وأمي في دكان البقال، ماذا كنت أنتظر طوال الوقت؟

لماذا ضيعت كل ما عندي من فرص سهلة!

هل وصلت القاع؟ ليس من رائحة، أنزل في قاع البحر، السمك الملون، والسمك الذي دون لون، سمك بحراشيف وآخر دونها، فوق الباخرة كانت عطور الشيكولاتة مازالت في صدري – لن أذوقها بعد الآن.

– تركت كل ما أطمع فيه، ماذا كنت أنتظر؟

هل احتملت كل تلك الأحزان والموت – هكذا – بسيط؟ هل كان في البحر كل هذا النقاء ورضيت بكل تلك الوساخة؟

يوسف ماذا دهاك، ضيعت سبعا وعشرين سنة وما عرفت أن الموت جميل، قتلت نفسك كل يوم وكان يمكن أن تفعل هذا مرة واحدة! ماذا أنتظر بعد؟

ليس من باب يفتح، ليس من باب يغلق، هنا داخل البحر وداخل نفسي: لا توجد نساء ولا حيتان، البحر صديقي، خدعوني كل هذا الزمان وكنت أحذر منك، ها أنا أعتذر، أعتذر..

ليس من باب يغلق في وجهي، ليس هناك ولا فاس، ليس من دم على طول هذا العمود المائي الذي نزلت فيه.

يوسف..

يوسف..

خدعوني كل هذا الزمان، داخل البحر وداخل نفسي لا يوجد حزن ولا كوابيس ولا ممرات سرية.. كنت أخافك أيها البحر..

كنت أخافك جدا.

آب ١٩٧٤

البحر الأبيض – مرسيليا

بعد خراب البصرة

كلمة تشبه قنبلة، مرت عليه في طفولته، أيام كان في السادسة. صار الماء يلفها فتنمو، والشهور تمر حولها فتكبر، تأتي في أناشيد الصباح، في السنما، على تلك الشاشة التي يحدق إليها بذعر طفولي ممتع.. يسمعها داخل البيت عندما يتباهى شقيقه الأكبر، في الشوارع والمقاهي، عند شاطئ النهر بين (السماكة) وتحت سقف السوق مع (القصابين)..

ويوم حل التليفزيون في ممرات بغداد صارت الكلمة – تلك الكلمة نفسها – تمشي بين ثغور المنزل وفو مسامات الجلود، ربما جاءت من تحت الأرض كما الشجرة، طالت وامتدت وصار لها مئات الغصون، تشعبت في الجدران وعلى سطوح الجيران، كلمة، مهرجان من موسيقى ورقص وطبول وبهلوانات ورسوم تتحرك، أنف يشم رائحتها، فم يتذوق زينها، وقلب يئن لهفة إذا ما عبرت إليه..

في طفولته، أسرف – ربما – بتكرارها، صارت حلما يطوف بين الصغار وهم في الطريق إلى الصف الأول.. الجدران تتحرك إذا ما فكر فيها وأسوار

المدرسية تنشظي أمام عينه الماكرتين.. كلمة لها أكثر من بحر وأطول من صحراء، يتذكر اليوم – وهو في الأربعين من الأخطاء والسنوات – كيف مرت عليه الحروب، سنة من جحيم، سنة من دموع، ذبح وأنقاض، وسفط دماء، صار هو "البطل" الذي يشيرون إليه في الطرقات وفى كراجات (الحلة) و(البطرة) ثمة من علق صورته التي نشرتها جريدة "الجمهورية" عندما اندلعت الحرب وعاد بخمسة أسرى يسحبهم خلفه بأنف مرفوع!

فى الطريق نحو العزائم، لابد من صورة معه (للذكرى) وكلم في (أوتوغراف) الذكريات، فهو (البطل) الذي اخترق الأرض الحرام وأنقذ (جعفر المعلم) من أنياب الرصاص، والمعلم جعفر – إذا كنتم قد نسيتموه هو نفسه الذي:

سبعون شخصا بين طبيب وأديب ورسام وسياسي وعالم وفليسوف وموسيقي ومهندس وشاعر وتربوي، يمكنهم تشييد وطن محترم يستحق الحياة.. بينما رجل واحد خلف زر صغير في دبابة، يمكنه في لحظة عابرة من الزمن، قتل سبعين شخصا محترما، ولن يسأله أحد عما فعل!

كل واحد من أهل محلته، يشعر بالفخر والرجولة، إن هذا البطل هو ابن هذا الزقاق، كل بنت من صبايا "سوق حنون" ترجو الله أن يكون من نصيبها، والأمهات يتربصن بعد غربا إذا ما عاد ليلا وينتظرون على قارعة

الفرح شرقا إذا ما مضى إلى وجهة القتال صباحا.. ربما يسأل سهوا عن (بنت الحلال) التي تناسبه، ربما ينطبق بشيء يحتاج إلى تفسير عاجل.. لكن البطل يمشي بينهن دون كلام ولا سلام، ربما تعلم أن الكلام من فضة، وهذا لا يناسب رجلا مثله مسبوكا من ذهب!

هكذا – بعد حين من الدهر – حل تلك الكلمة العظمي في كل جزء من شراينه، في كل مليمتر من رأسه، أنه "البطل" الذي صنع المعارك والمعجزات، كلمة مقدسة تسير على قدمين، مرت في طفولته وعاشت في خلايا وشعاب البيت أكثر مما عاش فيه.

عدايا مغمسة بدموع الصغار، تأتيه من الجار الأول والسابع، أرض الزقاق مفروشة بالدعاء صوب الله، بطاطا ودجاج وبرتقال وآيات من الكتاب مزخرفة خلف زجاج محاط بماء الذهب، "وما النصر إلا من عند الله" على الجانب الأيمن ثورة "البطل" بينما يجلس "جيفارا" على الجانب الأيسر من صالة الضيوف.

البطل يضحك، لكنه لا ينطق بشيء، كان يفكر وهو يرى "هدايا هم" تزاحم البيت: إذا كنت تريد أن تصطاد السمك كله، فما عليك غير أن تجفف البحر.

كان يبتسم بينهم، ربما يستفيد "منهم" في تجفيف البحر!

وانتهت الحرب..

مرت الليالي فوق كؤوس الخمرة، صار المساء بداية كأس تسابق كأسا في الطري إلى كأس أخرى.. والفجر كئيب جدا، لا رصاص ولا طائرات ولا بيانات ما جري.. لا أحد يدري بأحد، جثث على امتداد رباء تنتظر دورها لتمضي إلى "حساب" القارعة، حل الجوع في الشوارع الخلفية، في بيوت الطين حيث مر الشهداء صوب البصرة، قارعة في الحياة تسأل عن قارعة يوم القيامة، ولا نجاة..

هاجرت الكلاب نحو القرى في الشمال، عساها تعثر على رائحة العظام، القطط تموء في المنازل المهجورة، ثم تموت في المزابل.. البطل الشامخ سلبته لخمرة كل شيء، باع النياشين "الحلوة" في سوق الهرج، وأعطى أوسمة البطولة إلى سوق الخردوات.. بعد كل وسام كان يضحك والذي يشتري النياشين يضحك مثله على حكاية الأسرى الخمسة الذين جاء بهم..

يا رجل يا بطل، كيف تريد أن أصدق هذا القول؟ هل "سوق حمادة" كلهم يعلمون أنك جئت بخمسة أسرى!؟

لكن الخمرة أحلى، وما دامت الحرب قد انتهت والشهود كذلك، لماذا لا يخفي الحقائق في جيبه ويسكت؟

لكنهم خمسة فلاحين، رأيناهم خلف عشرات الخرفان، إنهم رعاة على باب الله، سرقنا لحوم الخراف منهم، ثم جئنا بالمساكين إلى قايد الفليق.. كل واحد منا كان يبحث عن "بطلولة" لا يملكها وعن وسام لا يستحقه أبدا.. ثلاثة نياشين حصلت عليها بى يوم واحد وأنا أتذكر طعم الخروف، يا له من "شرف" عظيم أن تمشي بين الناس بأوسمة كان الخروف أحق منك بها؟!.

أجل، انتهت الحرب..

الخمرة صارت الصديق الأول والعدو الأول، كان يدري أن "جعفر المعلم" سيعترف ذات يوم ويحكي القصة كما حدثت، ربما اعترف بها المعلم إلى زوجته وأولادة، فهذا الرجل "هو الذي آذاني من الموت، كنت أريد الهروب الى جانب العدو، رفعت قطعة من ملابسي الداخلية البيضاء على رأس بندقيتي، أريد أن أتخلص من هذا الموت الذي يزحف نحونا كل يوم، شعبت من الضجر والقنابل والشظايا والملل الرهيب، كنت أدري أننا سنموت في لحظة من هذا اليوم أو في ساعة من الغد، وأنه لا نجاة لنا، رفعت راية خذلاني وخوفي، لكن رصاصة – من جهة ما – شقت أعلى كتفي"..

عندها جاء جعفر المعلم وأخفى الراية البيضاء وعاد به صوب الخطوط الخلفية بعد أن قال له:

اسمع يا هذا، لا أدري ماذا تريد بنفسك، لكنني سنتنأول أنك أنقذتني.. وبعكس ذلك لن يرحموك.. هل تفهم؟!

هل تفهم؟

هل تفهم.. هل يمكن أن تفهم؟!

فوجئت به يضرب برصاصة في الكرش، صار ينزف بصورة أرعبتني لم أعرف بعدها ما جرى، سوى أننى سمعت من يقول لي: أهلا أيها البطل.. كيف حالك الآن؟!.

ها هي النياشين التى غطوه بها، لم تعد غير ثمن تافه لخمرة تغازله، مئات من أوسمة الشجاعة تباع في شارع "النهر" وفى سوق الهجر، لكنه وحده الذي اعترف بما ليس له، واكتفي بضحكة عجفاء تشبه البكاء.

فى تلك الساعة بعد أن باع نياشين البطولة كلها، اقترب أحدهم من "البطل".. أخذه في سيارة مغلقة، ولم يعد من أحد يسمع به، الصمت، يلف الزقاق، والخوف يمشي في ممرات المحلة، لا أحد يسأل عما حل بذلك "البطل" الجميل.. لم يعد من أحد ينطق اسمه. أظنهم – اليوم علموه كيف تكون البطوة "فعلا"!

عمان ٢ حزيران ٢٠٠٠

قشور الثلج

وفي ليلة الثانية أيضا، جاء مسعود الجلاد، يفتح باب سردابي ليخبرني أنه رأى أصدقائي في البار – حميد جمعة وحمدي وعبدالجبار – أعطاهم رسالة قصيرة مني، ولما احتسى الخمرة بينهم، صار يبكي "أمامهم" على ساعات من تعذيبي هو مرغم عليها!

قال: إن الأصدقاء في ذلك البار زعلوا مني، وانتابهم غضب عارم "كيف تراني أصفع جلدك – هكذا – بالسوط والكهرباء والماء البارد في الشتاء، ثم أمنعك من التبول والتغوط في مرحاض الجهاز؟! قللت لهم ودموعي تستبقي إليهم "ليس ذنبي والله، أنا مجرد تابع ذليل وجلاد صغير تافه لا أملك بين أسيادي غير تنفيذ الأوامر دون اعتراض".

إن حمدي راح يذرف الدموع كما النساء، لكنه أعطاني عشرة دنانير، ثمة غيرها –كما أخبرني – إذا أنا منعت نفسي من ضربك كل يوم ..

عفوا.. هو لا يعلم طبعا أن بقائي (معك) أفضل من اختيارهم أى جلاد آخر قد يحل مكاني.

نظام مفلس لا رصيد له، أعرف هذا والله، ليت لهذا الصديق "أعطاني ورقة لابد أن أكتب لهم حتى يفهم كل واحد منهم أنك خير صديق لي في هذه المحنة"، لكن مسعود الجلاد كان أذكى من عشيرتي كلها.. فقد أخبرني: أن كل ما هو مكتوب على الورق، إنما يعني ثبوت الإدانة، ولهذا ينبغي ترك الحال – مهما تعسر الأمر – على نقله باللسان، وما علينا – مسعود وأنا – غير عثورنا على دليل مشترك يفهمه ويصدقه الأصدقاء في البار.

ولم يكن عندي – في جيب الروح – غير سر يعرفه صديقي حميد جمعة، قلت فيه – ما سوف يعرفه مسعود الجلاد بعدي: بوط، مزروط، راط، رزط.. ولما اعترض صديقي مسعود على هذا الكلام كلام مضحك – دون معنى – أخبرته أن المضحك في كلام كهذا، هو "الوثية" أو "كلمه السر" التى ستجعل أصدقائي – حميد وعبدالجبار وحمدي – على صلة مقدسة لا شروط لها بعد اليوم مع شخص مثلك يعمل في الجهاز، وأنهم – أبدا – سيمنحونك ردم الشكوك وردم الفواصل والحواجز والأسوار.. ومتى يطمئن قلب صديقي مسعود الجلاد، أخبرته بما جرى في طفولتنا.. حيث كان ذاك الصديق المسكين، ينطق حرف "الطاء" بدلا من حرف "القاف" بسبب علة في لسانه، وكان أول درس في اللغة العربية يومذاك هو الذي نردد فيه (بوق – مرزوق – راق – رزق)، إذا تحولت على لسان صاحبنا إلى مجموعة من الطاءات المضحكة!!

نظر الجلاد – صديقي مسعود الطيب – إلى جزء عميق من جسدي وعقلي، ثم قال هادئا: نذكر جيدا أن خيانتي لهذا "الجهاز" إنما تعني تقطيع جلدي، وقتل عائلتي وحرق أعضائي وهدم بيتي وتشريد عشيرتي.. أرجوك أن تتذكر أيضا: أن أصدقاءك هناك في البار لا يتشابهون في أى شيء سوى أنهم يحتسون الخمرة كلمساء وليس من شيء يرغمني على الاطمئنان لهم – أو معهم – سوى أنك تعرفهم منذ الطفولة، وأنك وحدك صاحب التأثير عليهم!!

أهز رأسي – محبة بهم – خلف دمعة سقطت على خدي برغم أنفي وأنا أحر ذاكرتي – وبعض ذكرياتي – صفحة إثر صفحة.. أسمعه يهمس في وجداني:

– اطمئن أيها العزيز، لا عيب في أى واحد منهم، كلهم طيبون كما الحليب وأنت أولهم..

كنت أنا الذي يقول ثانية:

اطمئن يا مسعود، إنهم حقا كما الحليب، وما عليك غير أن تصدقني، ستكون كلمة السر بينك وبينهم: بوط، مزروط..

قلت له مرة أخرى، وأنا ألتهب بحريقي:

كان المفروض أن أعرفك أنت أيضا يا مسعود، منذ زمان بعيد فأنت نقي مثلهم.. كيف تراك جئت إلى بيت العنكبوت هذا؟!

تمر أيامي معلة بصديقي مسعود، الجلاد الذي يستغفر الله مئات المرات بعد كل مرة يعذبني فيها أما أسياده الخنازير، كنت أشعر فعلا كيف أنه يضربني برأفة مرة وبقسوة مرة، لئلا يشعر به أولئك المسعورون..

حتى أنه ذات حماقة منه، توقف عن تمزيق جلدي حتى يشرب جرعة من الماء، إذا بواحد من الجلادين الكبار يصفعه بقوة ويأمره بضربي..

أعود إلى زنزانتي مسحوبا بحبل غليظ، يسخر مني أولئك الصبيان (تلاميذ القتل التالي) وأكبر من فيهم أصغر من أصغر أبنائي.. فاستغفر الله نيابة عن ذنوبهم، لأنني صرت أدري – قبل أي واحد منهم – كيف أنهم مرغمون على النزول صوب الحضيض، كل واحد من أهل الزقاق الذي عشت فيه يفهم كيف صار الحال بعد زوال النعمة.. إذا لا أحد يعينه – بعد الآن – سوى أن يعيش!

صار البقاء حيا محض رجاء لا رجاء بعده وليس من رجاء مثله حتى إزهاق الأرواح صار مجرد لعبة مادام الثمن الذي يعطي إليك هو أن تبقى – أنت – موازاة أن يموت سواك.. هكذا – أظنها الليلة التي أخذوني فيها – مضيت إلى جحورهم المغفلة بالسواد بتهمة تبدو مضحكة أول وهلة موجزها "أنني لم أصف في حفل "البيعة" العظمى، ولم أبتسم كما يبتسم الجمهور في ختام عيد الميلاد"، وأن تكرار الذنب مرتين يعني. دون أي شك بالنسبة لأجهزة الرصد وكاميرات التليفزيون ورقابة الخبراء – أنني لا أميل إلى النظام ولا أرى فيه طوق نجاة الأمة إلى النهيم والوحدة والصواب، وأنني – هكذا –

مجرد كافر بكل ما أعطتي البلاد من كرامة وكبرياء وأموال لشخصي "الحقير"..

قبل أن أدخل إلى تلك "الحفرة" في سرداب المنزل الكبير، قلت لهم:

يا سادتي أنا أحقا لم أصفق في حفل البيعة العظمي، والسبب هو أن أصابع يدي اليمني تشكو من الشلل منذ خمسة أيام، وعندي تقرير من الطبيب (عبدالقادر سليمان) عيادته في شارع السعدون قرب سينما أطلق، وسوف يؤكد ذلك.. وإذا كنت لم أبتسم في عيد الميلاد الميمون يمكنكم الرجوع إلى طبيب أسناني (جعفر المظفر) عيادته في المنصور الذي له سن العقل في الرابعة عصرا من اليوم نفسه، وأبقاني دون عقل يساعدني على الابتسام.. فماذا سأقول غير هذا حتى يصدقني السيد المسؤول حفظه الله ورعاه وبارك في خطاه؟!

ثم قيل لي إن التهمة ليست كذلك، وبعد يومين قيل إن التهمة قد سقطت، وأن تهمتك الآن أكبر!

رميت نفسي إلى سلالم الكهنة، وأعطيت روحي إلى القساوسة وأرباب الكنيسة والشماسين، علهم يفتحون الباب أما محنتي، حتى أنني نسيت ديانتي وكتابي (القرآن).. قسوتهم صارت فوق احتمالي، رحت أطلب الرحمة من الله، من أساقفة الشمال وبطاركة الغرب عساهم ينقذون جلدي

من السلخ وحياتي من الوجع.. هل يمكن لمسلم أن يكون بهذا الطغيان؟ أخ يا سيدي (عمر)..

قلت لنفسي: إن الله سبحانه، يختار من عباده أكثرهم صبرا، وأنا لست كذلك يا ربي.. أنا أعترف بقلة صبري وضعف حيلتي، فماذا أفعل يا ترى بين (هؤلاء) ؟! رحماك أيها الحسين.. ساعدني.. أدركني..

برغم ذلك، تمكنت من النوم في أول ليلة أخذوني فيها إلى ذلك الجحر المعتم تحت الأرض، ربما كان الخوف أكبر من أعصابي التي ضربوها عشرات المرات، وأنا في طريقي إلى حزمة من الأسئلة: اسمك؟ عمرك؟ ملسم أن يهودي أنت؟ اسم أمك؟ وصديق لك لم يزل حيا؟ خالك الذي تحب؟ اسم عشيقتك؟ اسم أول شخص تبرعت له بأموالك للحزب الآخر؟ أول مدرسة وأول زقاق ترعرعت فيه؟

تمكنت من النوم بعد اسمي وعمري وجنسيتي واسم أمي وعنوان صديقي وخالي وعشيقتي – فرضوها على ذاكرتي وما كنت أعرف أى امرأة يومذاك – ثم تبرعت بأي أسم – مزور – جاء على سلطان رأسي، قلت إنه تسلم التبرعات مني، كما ذكرت المدارس والمحلات والأزقة التي مشيت فيها طوال رعونتي وصباي ."كم يؤسفني ويحرق إنسانيتي – اليوم – أن الذي تبرعت له بأموالي، وأنا لا أعرفه ولم أسمع اسمه دون ريب، قتلوه في اليوم التالي مادمت أنا قد اعترفت عليه"!

جاء مسعود الجلاد (صديقي) عند الفجر، أيقظني بهدوء ساحر وهو يخبرني (أنهم غدا سيفرحون عني).. وطبعا لم أصدق، فهذه البشرى أكبر من حلم يأتي في ساعات اليقظة، أيقنت أنني مازلت في نومي، وأن ما سمعته من الصدى الجلاد هو نفسه ما تكرر عشرات المرات في تلك الغرفة السوداء المغلقة، لكنه ابتسم فو رأسي، بل أوشك أن يبكي فرحا وهو يكرر: هذا ليس حلما يا صديقي غدا صباحا عند الثامنة ستأتي سيارة من الجهاز ترجعلك إلى بيتك..

إلى بيتي؟ يا سلام، هل يمكن للحرية أن تلبسني من جديد؟ أكاد لا أصدق ذلك، فقد قطعت في هذا المكان الموحش الكئيب أكثر من تسعة شهور لم أذق فيها سوى الذل والإذلال، ولولا صديقي مسعود – من يدري – ربما هلعا أو مت كمدا.. نظرت إلى بؤبؤ عينيه وأنا أوشك أن أبكي.. بل بكيت فعلا بدموع نزلت على ثيابي، أسمعه يردد بقلب مفجوع وهو يقترب من الباب:

الحمد لله على كل شيء. ينبغي أن أذهب الآن – معذرة – لئلا يكتشفوا أمري.. اطمئن، غدا في الثامنة صباحا سينتهي كابوسك الرهيب هذا اطمئن.. اطمئن..

قبل أن أرحل في حلمي وطوق نجاتي، ألتفت إلى الخلف، عبر قطيع من شهور وقوافل من أيام مضت.. لماذا جئت إلى هذا السرداب؟ ماذا كان

ذنبي ؟ أول الحق: لم أتذكر، غير أنني كنت أجلس في المهي وظننت أن سف المقهي سينهار فوقنا – إنها واحدة من مقاهينا العتيقة في شارع الرشيد

أقول: تخيلت ذلك.. وفى الوقت الذي راحت ظنوني إلى سقف المقهى – فجأة – رأيت بعض زبائن المقهي سيهطل فوق رؤوسنا، وكان ما كان من أمري، حيث رحت أقفز فوق (تخوت) المقهى بسرعة أرنب.. وبعد لحظة خاطفة وجدت نفسي "الحرفوش" ذاك هو نفسه من رماني إلى مكاني هذا تحت الأرض دون ذنب سوى أنني هربت من المقهي في ساعة ظننت فيها أن السقف يسقط فوقي، بينما (عم) أخذوني بتهمة لا يصدقها عقل، إذا قيل في الملف – ملف جرائمي – أنني حاولت أن أهرب (مثل بقية الغوغاء).

لحظة القبض علي!

السيد الحرفوش يضحك دوما سبب سماعه صوت خلفه يقول:

اسمه غير مكتوب عندنا.. يبدو أنكم جئتم بالشخص الخطأ! لكن الحرفوش – وقد انثلمت ضحكته – راح يردد:

أبدأ سيدي، كلا سيدي، كان يركض بسرعة البرق لولا أننا سيطرنا عليه فورا.. إذا لم يكن معهم.. لماذا يهرب منا؟

كان آخر ما سمعته:

دعه في السرداب – بمفرده – حتى نعرف أصل الحكاية منه.

مرت آخر أيامي على ظهر (جمل) مريض، لا يمشي إلا خطوة صغيرة كل ساعة، أذبل في قفص موحش بعيد عن الضوء، لا أعرف نوع طعامي ولا أفهم سببا لبقائي.. مرت بي الشهور حتى نسيت – فعلا – لماذا جيء بي!.. كنت أرى نفسي في صميم اليأس، حواجز وأنهار وكوابيس تفصلني عن الدنيا كلها.

والآن، لم يبق من الوقت غير قطرة من صبر، أخرج بعدها صوب الحياة، في الثامنة صباحا أكون بين أهلي وهوائي وزقاق صباي، لن أجلس في أية مقهى بعد اليوم.. لن أخرج من بيتي إلا نحو وظيفتي، ومنها – مباشرة – صوب غرفتي.. لا أريد أن أرى أي صديق أو ريب بعد هذا الصباح العظيم.. الحياة لا تستحق أن نفرط هكذا بها، وما جرى من أوجاع في هذا الجب لا يمكن أن أغفره لنفسي، إنني ضحية حالة من غباء عندما أوهمني أن سقف المقهى سينهار فوقنا، لو أنني ضحية حالة من غباء عندما أوهمني أن سقف المقهي سينهار فوقنا، لو أنني بقيت في مكاني لما جرى ما جرى.. في الثامنة صباحا..

ربما كنت أسعد خلق الله وأنا أنتظر الباب الذي سيفتح لي وأهرب نحو فضاءات السماء والروح، أرى نهر دجلة ووجه أمي وأقرأ الفاتحة على قبر أبي وأنام في فراشي.. في الثامنة من أجمل أيام عمري انتظرت الباب الذي قيل أنه سيفتح لي وأن اطمئن بعد خلاصي من أقذر كابوس مر طوال ما فات من عمري..

فى تلك الثانية – وهى الأولى ربما من الساعة الثامنة صباحا – فتح الباب لي فعلا، كنت أبتسم عن فرح عظيم، لا أحد أكثر مني ولعا بالحياة، وها هو الباب يفتح لي حقا.. لكنني – وأنا أخطو خطوة واحدة خارج كابوسي – إذا بي أرى أصدقائي حمدي وحميد جمعة وعبد الجبار يتشخرون معي في الغرفة نفسها.. لم أستطع آخذ شهيقي وأنا أحاول أن أعرف ما جرى، كنت أنظر إلى ملامح أصدقائي، ولا أرى غير نزف من الدم ينزل من رأس (حميد جمعة) وخيط الدموع يهبط من عيني (عبد الجبار)، أما حمدي فقد سقط أرضا قبل أن يراني!!

ماذا فعلوا بهم؟ أين كان مسعود، ومتي أعطوهم إلى جلاد غيره أنهم بقايا بشر، بل أشبه بالخرق المبلولة حتى آخرها.. ما هو ذنبهم حتى يرموهم إلى الجب الذي (كنت) أموت فيه؟! لا أدري ماذا حل بهذا العالم.. كنت أريد أن أعرف بعض ما جرى، أتبرع بحياتي كلها حتى أفهم نصف ما يدور خارج هذا السرداب المقرف، أتبرع بذكريات طفولتي وجميع أمنياتي وبأعظم ما سيأتي من مستقبلي شرط أن أكتشف أنا وجميع أمنياتي وبأعظم ما سيأتي من مستقبلي شرط أن أكتشف ما يجري حولي.. قف هنا، إنني أسمع همسا، الويل لمن يحكمه (أرعن)..

تحرك، تحرك أيها القبيح، قف هنا، من يرفع الغمامة عن هذا القلب، لا أمس لما نحن فيه، ولا غد، ضاع كل شيء هبة واحدة مثل غزال هارب من

مصير معلوم.. تعال (كل) معنا ما تشتهي، أجنحة دجاج مع الصوص، سلطة قريدس، باذنجال بالطحينة، شوربة خضار مع هامبورجر من فينو قف هنا.. . ليس غير دم وخيط دموع وانهيار، وأنا بين أصدقائي أتلوى ولا يقوى أيما جسد عليه..

بعد ساعة من الجذع، رأيت مسعود عند باب السرداب، لم يفعل أى شيء، لم ينطق بشيء.. أكتفي بنظرة ساخرة خاطفة، ثم أغلق الباب بقوة..

كنت أسمعه يضحك..

أظنني بعد ضحكتى لم أسمع أى شيء .. كانت ضحكة مسعود (الجلاد) هي الرصاصة الوحيدة التي طاردتني حتى.. موتي.

٢٠٠٠/٣/٣

من أي بلد أتيت؟

١

لم أخير بما رأيت

من أين لها أن تفهم كيف يطول الزمان بي وأنا أحترق لوعة إلى غريم ينافسها؟ أتحسر شوقا إلى خبر أسمعه وأنا أمشي قرب "بلاثا دى سبانيا".

أدخل صوب البجع الطائر، أشم رائحة الماء المخلوط بالصنوبر، أشم رائحة الزنبق البري، أرجع نحو ليلة من العمر سميتها النهاية مرة والقيامة مرة، ثم سميتها الجنون.

النهر محض رجاء بعيد، لا أتذكر كيف عبرنا أسماكه الميتة ورصاصه الطائش.. يشهد الله، ما كانت أريد أن أحكي لها ما رأيت، وكيف لها أن تصدق طيفا أو شبحا، أو تصدق ذاك الجحيم، إذا كانت "بيروت" ترفض أصلا أن تفهم كيف يمكن للرصاصة أن تذبح إنسانا من الوريد إلى الوريد؟

اقتربت مطر وأشجار من لوز وحنين، كنت أريد أن أفتح فمي وأقول إن أيامي معها سقطت في جب من أشباح وكوابيس، وإن شكل النهاية إنما يأتي

بـبطء وشراسـة، كيـف لهـا أن تفهـم / هـذه المخبلـوة بحـي / أننـي سـأعود وأشطب على بحر لهاثنا وفراشنا المشترك الطائر؟

قلت لنفسي: سامحك الله يا مازن على ما اقترفت يداك بحق هذا الزعتر الملكوتي الجميل، أنت الذي زرعت لها الأرض بالحناء والسوسن والكلام المعسول.. ألا تشعر بالرهبة وأنت تذبح بيديك هذا العنب المغمس بالعسل الرباني اللذيذ؟

تبا لك يا مازن يعقوب، ما إن يلهبك جمالهن حتى تسرع بالكلام، هذه هبة من أعلى السماء تلك هدية من الله، وما إن تراها تسقط بين فخذيك حتى تفكر كيف يجيء الخلاص.

هذه المرة سأعترف، أن الحكاية لم تكن هكذا، فقد أحببت "بيروت" من أول يوم رأيتها في مقهى "فبس".. لحظتها، كنت أسحب نفسي كما الفيل العجوز، أجرجر جسمي إلى شارع (خوسية أنطونيو) عساني أعثر على صديق يؤنس هذا الجبل الطالع من فراط الحنين.. رأيتها تشرب الموز بالحليب وتدخن سيجارتها، تنفث الدخان بسحر ممتع صوب زجاج المقهي، ما إن دخلت إلى (فبس) حتى رمت الدخان في وجهي، هي التي بدأت حروبها معي، ولم أكن يومها غير (قط) مهذب بريء، ربما رمتني ذكرياتي أو حسراتي أو حرماني إلى ملامح "بيروت" أنا الرجل الذي كاد يحترق في جحيم الماضي.

على تراب ملغوم، بين أشباح لا يمكن التحرش بها، كان الماء يغطي السيقان، لكننا نتحرك كما الأسماك، لم أترك أية فكرة للتخلص من "بيروت" لكن أفكاري تتهشم قبل نزولها من فمي، حتى شعرت أن النهاية بيننا ستأخذ شكلا من الهروب المنظم.. علمتني الحروب أن أفتح المستحيل، وأنظر إلى بئر المعجزة دون خوف وبلا قشعريرة، أسمعها تهمس بفم لاذع:

– لا، رأيك أن نقضي الليلة في فندق (كوثكو)؟

– قلت لها بشيء من الشفقة:

– لم أسمع به أبدا يا بيروت، أين يكون (كوثكو) هذا؟

– إنه في (خينار ليسمو) ليس غاليا، مع أنه من أحسن فنادق مدريد، يمكننا أن نسهر فيه حتى الصباح..

– اهز رأسي على فكرة خطفت توا، أن أخبرها هناك، ربما قبل الفجر أجمع أعصابي في جملة واحدة عساني أنقذ هذا الحنين وأرجع صوب عائلتي:

– سنذهب، إذا كان ذلك يسعدك.

تركت الفيزياء، نسيت كلية العلوم، لا أدري من أوهمني بالشعر، لكنني أتذكر أول من نشر قصائد وصار يرفعني على صهوة من أكاذيبي، أمسك الجريدة وفيها اسمي عشر أيام .. حتى شرطي المرور صار يعرف أنني (شاعر) وأن اسمي يطبع بحروف مسننة، يومها رحت أجلس بين الشعراء

الكبار وأقول الشعر الذي كتبته ليلة البارحة، لم أفطن إلى ضحكاتهم الخفية وهم يسخرون من هذا الطارئ الذي جاء يقرأ (شخابيطه) عليهم.

قصائدى كانت معي أينما حللت، لصق نبضاتي، بينما الهاونات تضرب والسلاحف تركض مسعورة خلفنا، تريد أن تنهش جلودنا وتلتهم ثيابنا، لم أفهم كيف نجونا .. لحظتها كان علينا أن نقف ونقاتل لا مفر من ذلك، كان الموت في كل شبر من الأرض، صحراء شاسعة رهيبة، استيقظ جلدي بعد يومين من الضياع والرصاص والحر والنزيف، أقطع الطريق صوب (مدريد) للعلاج والسؤال عن الجزء المقطوع من رسالة الماجستير التى بدأتها ذات يوم عن طريق البريد.

كان الشعر قد سلبني صحوي، تخيل عظامك يسحقها التنين، أنت الأبيض بين النوارس، كيف قطعت الصحراء، من أعطاك لهيب الحنين؟

قم واخلع ثياب النوارس أيها البريء المتغطرس، فهذا الزمان ثقيل عليك وما ذنب "بيروت" وقد كتبت إليها أجمل ما عندي من أوهام وعيوب؟ ما ذنبها تصاب بشظايا ذكرياتي وذاكرتي، أنا الذي أحترق في نيران الماضي وصار مساماته أن تغلق في وجه الريح؟

فى فندق "كوثكو" شربنا البيرة السوداء، كان هجومي على صحون الفستق يرغمها على أن تضحك منى:

على مهلك يا مازن، علينا أن نستعد للعشاء بعد البيرة.
طعم الفستق أحلى من لحوم العالم عندي.
قالت بصوت عذب:
ماذا عن طعم "بيروت" أيها الخبيث؟

خجلت من رصاصها الذي انهمر حولي، أنا الذي جاء يخبرها بنهاية هذه القصة الوحشية الباهرة، ماذا سأقول عن طعم الأناناس ورائحة الزعتر الأسباني الذي يركب أعضائي؟

– طعمك ليس للبيع ولا للشراء، إنه يصلح لأسناني أنا وحدي، هل تفهمين ما تعشقة أسناني أيتها المجنونة؟

عيب، عيب يا مازن بن يعقوب، تمهل بالله عليك، هذا الكلام يعني أنك لا تريد أن تفارقها أبدا بل ترغمها على أن تحبك أكثر، ماذا دهاك أيها المتسرع؟ عند الفجر ستعترف بكل شيء، وعليك منذ الآن ترك مساحة طيبة بين هذا الحب العسلي وبين الهجوم الساحق الذي تنتظره "بيروت".

فجأة راحت "بيروت" تبتسم وهي تفتح حقيبتها الصغيرة، أعطتني رسالة يبدو أنها جاءت من هناك، من وراء البحار والموانئ والممرات، طابع يشع في وجداني، اسمها تهمس في لجة من نبضات قلبي:
– أنها لك، اعطوها لي في البريد، قالي إحداهن: ندري أنك تعرفينه يا براتا، إنهن ينطقن اسمى هكذا "براتا".. هل يعجبك أن يكون اسمى هكذا؟

كانت سعيدة بما يقال عنها وعني، أخذت الرسالة من بين أصابعها، فتحتها بسرعة ولهفة، الله كم أسعدني ما كان فيها، إحدى قصائدى تنشرها بغداد، كم شهرا مضى منذ بعثت بها؟ صديقي يكتب لي عن رائحة الزحلاوي، أبيات قصيدتي أخبرته، بقوة الحنين، القصيدة معي، تاريخها اليوم العاشر من أيلول وعنوانها يضيء دمي.

هل يعجبك أن أكون "برات" يا مازن؟

اسمع شخصيا في أحشائي ينطق بالقصيدة نيابة عني، أصاحبه هامسا وأنا أقرأ بوجع مغمس باللهفة، وجع لم تلتف إليه بيروت.

هل يصعد هذا البحر ويرجع بي صوب الماضي؟

أم يتركني أكتب آخر بيت في ديوان العرب المحروق؟

تحت المطر الأسباني اللاهث

امرأة ترقص والموج يغطيها

أين "بيروت" في هذا الكلام المعجون بالحنين؟ أية خيانة هذه؟ لماذا أتركها خلف ظهري هي التي أعطتني عصارة أيامها وأجمل ما تملك النساء من رحيق الحب وفورة المحبين؟

تحت سماء مدريد، والوقت مساء.

كا يشرب الموز بالحليب..

ويطارد أحلاما مازالت تقبع في الرأس..

وفى الكأس

فى مقهى (ميسون) زاحمه الإفلاس والهوى

أسكر مع القصيدة، لا أدري ماذا حل بتلك الناعمة الحلوة تشاركني القراءة ولا تفهم أى شيء (ما الفرق بين بيروت وبرات بالله عليك؟

أعطتني كأسي بيد من شبق خاطف جريء، تريد أن تعرف ماذا أقرأ وأى سر يسرقني منها؟ أقول بكبرياء طاهر:

إنها قصيدة لي.

قالت لهفة وخوف بارد خفيف:

عن امرأة كنت تحبها؟

تركتني أصرخ في أعماقي، بينما تتحرك أصابعي مع موسيقي الكلام بخفة وشيء من الخبل الممتع:

فى (بلاثا مايور) عانق امرأة قالت: كلا.

فهجرنا إلى برشلونة..

هناك رأي الشعراء المنفيين..

يحتسون النبيذ والقصائد والأكاذيب..

أسمع "بيروت" من وراء حاجز لا يرى: ألا يكفي يا مازن؟ أنت تقرأ الرسالة مرة بعد أخرى.

قلت بشيء من الحب:

– انتظري، لم يبق منها سوى كلمات، أعطيني كأسا وسوف أنتهي، اسمك جميل هكذا: بيروت.. وليس أى شيء سواء.

– نظرت إليها، أرى خوفها من شيء غامض لا أدري ساعتها لماذا رحت أبوسها بينما الصدى يكرر معي:

ليس غير ابتسامة عابرة

وسوى دمعة عبرت

كادت "بيروتا" تزق الرسالة وما فيها، لحظة أن انتهيت منها، أي حزن يغرق بين الجفون؟ ماذا أفعل مع هذه العاشقة التي تشبه قارورة من عسل؟

قلت برعشة تخنق صوتي:

– لا يمكنك أن تفهمي كم تسعدني قصائدى، وأنا أراها بين عيون الناس حالة من النشوة لا أعرف كيف أفسرها الآن.

قالت بفرح:

– أفهم ذلك أكثر منك، مرة قرأت كلاما لشاعر كبير يقول: إنه مازال كما الطفل، وهو يرى شيئا جميلا إذا ما استيقظ فجأة.

– وكما الأطفال يا بيررت، رأيت نفسي أركض من فرط اللوعة، مخبولا نحو نهايات الشمس، أعبر الطين والنهر والرمال، هاج بحري وماج، أيتها الطاعة

من شقوق الفيروز، تلك كانت الدهشة الأولى، رأيتها بين الحياة والموت، كما الأطفال عند هبوب الرياح، أسمع "بيروت" تهمس:

– ألا تريد أن نرقص؟ هناك سرداب جميل فى "خوسية أنطونيو" والموسيقى ذكية وبطيئة، أشعر أنك بحاجة إلى غشاء من المتعة والنسيان، تناسبك الموسيقي من هذه الليلة يا مازن.

– هذا صحيح، أنا الذي يريد أن يرقص الليلة، لم أشعر يوما بحاجة إلى الرقص كما أحسها اليوم، بيروت تعرف كيف تختار الوقت، ذلك ما تشعر به الضحية قبل أن يفترس الجلاد ثوبها وعفتها.. لابد من رقص عنيف حتى أخلع عني ثياب الساتر الترابي، أنفض جيوبي من الشظايا، وأنام هادئا في أحضان مدريد .. قلت:

– ولماذا تختارين موسيقى بطيئة يا بيروت؟ نحن في أجمل أيامنا وأقواها، تعالي نذهب إلى "غوليا لمو" فهو أفضل عازف في الكرة الأرضية.. إنه الجنون بعينه..

قالت "بيروت" بكثير من الدهشة، بقليل من الامتعاض:

– وكيف عرفت مكان "غوليالمو"؟!

اقتربت أكثر وهي تسأل:

– أبناء المدينة وعشاق الموسيقى أنفسهم، يألون عن مكانه، ولا يعرفون عنه الكثير، فكيف – وأنت الذي جاء من وراء البحار – تعرف "غوليالمو" ومكانه الغامض؟!

– قلت بفخر وأنا أشعر بندف من الثلج تتساقط على نيراني:

– بصراحة، يا بيروت، يا عكازة روحي ومثواي الأنيق، أنا أحب اكتشاف أسرار المدن، وقد وقعت على "غوليالمو" عن طريق رجل معلول.. هو الذي جرجرني إليه وإلى مكانه الساحر.

– كانت "بيروت" تصرخ كما الطغاة:

– معلول؟ رجل يأخذك إلى غوليالمو؟

ثم أخذت دور القاضي بطريقة فكهة:

– لا أكاد أصدق ما أسمعه منك يا مازن، وما شأن هذا (المعلول) بموسيقى غوليالمو؟

كنت أبتسم دون أن يفارقني إحساسي بندف الثلج المنهمرة على يقيني:

– إنه معلول بالموسيقي، لا شيء يشفيه غير طوافه بين الحانات يسأل عن برج أعلي من بقية الكون.. لأن معلول بالفطرة، هل تفهمين ذلك يا بيروت؟

– كنت أحس بنظراتها، مزحومة بالشكوك وهي تهمس:

– أيها الخبيث، هناك امرأة في اللعبة، هي التي أخذتك إلى "غوليالمو" اعترف، اعترف أيها الفرعون الغشاش.

قلت لها وأنا أرى ملامحها تستعد لمعركة:

– ليس من امرأة ولا بقرة، ولا أي شيء، محض رجل معلول أرشدني إلى قبول الموسيقى وأسمعني أجمل عزف في الدنيا:

قلعة من رجال، تتماسك في حزام واحد، ترى من فتح لجام هذا الجواد الأصيل وجاء به لينقذنا من موت ليس من أمل في النجاة منه؟ كيف أفسر ذلك؟ كيف أحكي عن ليل لا يشبه ليل "غوليالمو" ولا موسيقاء الوعرة الفطنة؟ من أين لك يا صغيرة أن تنعطفي معي لرؤية الجانب البعيد من بلادك التي تسبه الزبيب والأناناس؟ أعطيني فسحة من أضلاع الفرح الذي تعيشون فيه حتى أحكي عن لغز حياتي، عن القناع الممتع الذي ليست أمامك طوال مغامرتي ولهاثي ومحبتي.

قالت "بيروت" دون أن تفارقها الدهشة:

– ما بك يا مازن؟ هل تدري بأنك تختفي عني وأنت معي؟ على غفلة أرى نفسي وحدي برغم أنك مازلت – هنا – قرب يدي.. ما بك حقا يا مازن؟

ترى، كيف أخبرها بأنني سأغدرها؟ ليس سوى أيام وأرحل عنها صوب شهيق طفولتي وصباي، لا أفهم، لن أتمكن أبدا من تحريك (بغالي) لصعود هذا الجبل الشامخ المتعرج، أسقط في هوة سحيقة بين دير كهنوتي يرعبني

ويصرخ بي (رهبانة) يلتمسوني الحفاظ على "بريوتا" أحذر أن تجرح هذه البين العفوية المغلوبة في حبك.. هذا الحب الصخري الطافر.. لا تتركها خلف أسوارك الكهربة بالفراق، ما ذنبها بالله عليك؟

أي صرح تتسلق؟ لا مسالك غير أن نسلك درب الرأفة، وأيضا لا مهارة لديك بعد الحرب سوى مهارة أن تعشقها وتكون لها، هل التي عالجتك من خدوش المعارك وشظايا الغربان، لا يحق لك الليلة أن تحفر قبرها بيديك، أى نذير شؤم أن يصبح من أمثالك هكذا قساة مع هذا النوع البريء الشوش من النساء؟

نظرت إلى أعمق ما في عينيها، قلت لها بهدوء نبوي صار يغمرني فورا:

أنا معك تماما يا بيروت.

أمسك أصابعها بين أصابعي، أنطق حرف الراء بطريقة مضحكة تعلمتها منذ طفولتي:

– بيروت لا أدري كيف أفسر ما بي، والله أنا لا أفهم نفسي، لكنني معك، حتى أن نبض حنجرتي الحزن والسخرية، الضحك والبكاء، كم أسعدها ذاك الثلغ المرتبك الذكي، راحت تضحك وهى تهمس في غشاء أذني بحب لاذع:

– أيها اللعوب الحزين، كيف تفعل ذلك؟

رحت أدوس على أنفها الجميل وأنا أترنح كما السكارى:

هيا نذهب إلى "غوليالمو".

وهل تملك ما يكفي؟

قلت بخفة وطواط:

– إنها حانة رخيصة جدا وخطيرة جدا، نشرب فيها "سان غريبة" ونسمع غوليالمو بخمسمائة بيزيتا فقط.

دخلت بيروت الحمام، وبعد نصف ساعة كان ماكياجها قد حولها إلى طاووس منقوش، الأحمر والأزرق والماروني سرقوا من ملامحها الكثير وبرغم ذلك رحت أكذب:

– ما هذا الجمال النازل من أعلى سب الكون؟ يا بيروت، إنها مجرد دحانح مسكينة ورخيصة، ولن نمضي إلى حفلة من النوع الذي تتخلين.

قالت بهدوء:

– مادمت معي يا مازن، الدنيا كلها حفلتي، وحانتي، وشرابي.

صرخت كما يفعل بعض الممثلين:

الله الله يا بيروتا، وبدأنا نكتب الشعر أيضا.

٢

تركنا فندق "كوثكو" في طريقنا إلى غوليالمو؟

لم يكن من أحد في شارع خينار ليسمو، غير السياح وبعض الموسات والقليل من اللصوص، يسرقون حقائب النساء في لمح البصر، وبرغم أن

المتاجر والأسواق مازلت مفتوحة، لكن الحركة عند اقتراب منتصف الليل تصبح من حصة نوع مختلف من البشر.

ربما أصابني بعض الخوف، وأنا أمشي بين اللصوص والسياح والموسمات، لاسيما أن "بيروت" نفسها تبدو كأنها واحدة (منهن) بعد أن أغرقها الأزرق والمراوني والأحمر بالعهر والفتنة والاشتهاء الخاطف.

كنت أشد قبضة يدي على مفتاح غرفتي، لتصبح أكثر قوة، إذا ما حاول لص أن يقترب من حقيبة بيروتا، برغم أنها فارغة إلا من أوراق الكلينكس وماكياجها العجيب، فقد أخذت منها كل ما تملكه خوف أن يسرقوننا في متعطف أو زواية أو شارع خلفي من الشوارع التي تتفرع من "بلاثا مايور".

ابتسمت إحداهن وأطلقت ضحكة كما الزمجرة وهى تشير إلى بيروت:

– با لك من محظوظة، بهذه السرعة تأخذين الزيون، مع أنك طارئة على شارعنا أيتها الحلوة.

لم تلفت "بيروتا" إلى غمز المومس وكلامها الحيواني الذي احتك بكبريائها، بل طلبت مني أن نسرع في الخلاص من بوابات "بلاثا مايور قبل أن ترتطم بوحش كاسر أو لص ملسح عنيف:

– أسرع يا مازن، لا أحب هذا المكان في الليل.

كان أحد اللصوص يمشي لصق خطانا، يتحين الفرصة لينقض على حقيبة بيروت، لا أدري كيف قلت له بصوت ثمل ساخر:

– إنها فارغة، اطمئن، ليس فيها غير مناديل من ورق وأحمر شفاه يمكنك أخذه إن كنت بحاجة إليه .

راح اللص يبتسم، ثم رفع يده اليمني سلاما وهو يقول:

– وهل جيوبك فارغة أيضا؟

ثم تركنا في طريقه – ربما – إلى حقيبة أخرى، بينما الرياح صارت تهب علينا من طرف خفي جاء من "بلاثا دى سبانيا" التي تطاير الماء منها نحو ثيابنا وراح يبلل رأسينا ونحن نركض ونضحك، والريح العانية تزداد قسوة دون أن تأخذ منا غير الضحك الجميل الذي رافقنا إلى "غولمالمو"، وكان قد بدأ العزف منذ قليل.

اقتربنا من وسط الدائرة التي تلف العازف الوشي، الملفع بخشوع طري، تزاحمه الغبطة والذهول والنساء، ولما لم نعثر على مكان شاغر، اقترحنا على أنفسنا الوقوف قرب البار الخشبي، أقرب الحاضرين إلى النادل المرصع بالأزرار الأرجوانية الذي أعطانا – دون أن نطلب منه – كأسين من الشراب الشهير "سان غربة" وهو يبتسم بوجه أملس، تفوح منه رائحة المارجوانا والزنبق البري.

– الزنبق البري في مكان كهذا؟ معقول؟!

تسللت أصابعي إلى رقبة "بيروت" أسمح عنها ما علق فيها من قطرات "بلاثا دى سبانيا" وأنا أوشك أن أبكي.. أبكاني الزنبق البري الذي تكررت رائحته مرتين، هنا وأنا أصغي إلى عزف "غوليالمو" ومعي بيروتا، وهنا بينما النار تصارع النار، الزواحف تخرج من جحورها، ربما كنت أشم رائحة الزعتر أيضا.. قلت بصوت يشبه زئير ليث تائه:

– الله، ما هذه الرائحة السماوية التي وهبتها إلى في هذه الساعة؟

نهضت بقوة، أشم تلك الرائحة الربانية، تلامس وجداني، أغرق معها في مياه جزيرة مزركشه بالحناء، أرى نفسي على عرش بلوري مطرز بالماس والياقوت والذهب الساطع، أعزل إلا من هذا العشق الحارق، أعزل إلا من نزاع دمي مع لحمي.. أسمع بيروتا، وهى تقترب مني:

– هل أنت تهرب مني ثانية، يدك على عنقي، لكنك لست هنا يا حبيبي، ماذا جرى؟ ماذا بك يا قدري؟

بيروت صارت تحب الشعر، تختار الكلمات الموجعة اللذيذة، يدي مازالت تمسح الندى عن عنقها، لكن ذاكرتي هناك، قرب الزنبق البري الذي ذكرني به النادل الأنيق الذي أسكرنا بسرعة وهو يملأ كأسينا بمزيد من "سان غريه" ذاك الشراب الإمبراطوري الكنائسي اللاذع.

كان عزف "غوليالمو" يزاحم إحساسي بحب عنيف لذيذ، دفني إلى احتساء الخمرة الأسبانية المعتقة في الكنائس وساديب الرهبان.. بينما

وعلى حين غفلة، تذكرت ما ينبغي أن أقوله عن عودتي ونهاية أغلالي الممتعة في مدريد.

الساعة بعد الثانية ليلا، الكأس الخامسة تنزل في أحشائي أنظر إلى "بيروت" من شرفة في صدري، لا أدري كيف انكسرت قيثارة ذكرياتي وأنا أنتبه إلى بيروتا تهمس بصوت أسمعه:

– يا سيدي بطرس، وأنت يا بولص وأشعيا.. بالله عليك يا سيدي أرميا، أخبراني جميعا بما يفكر فيه مازن حبيبي.

من يكون أرميا، ولماذا تستجير بثلاثة سواه، قاحل رأسي من أية فكرة، قنديل واحد تحطم الليلة تحت وطأة "سان غربة" وعزف غوليالمو..

من يكون السيد بولص والسيد أشعيا، ولماذا اختارت بطرس ليكون أولهم؟

أتسكع في طرقات الماضي، منجل معقوف واحد يكفي عنقي ليقطعني عن الدنيا بأسرها، ضباع تطاردني في الصحراء، وأنا أحارب ذاك العواء في أحلك ساعات شبابي، قوس قزح في القلب، فلماذا أتعامل باللون الرمادي وحده، وأنا بين بيروت وغوليالمو وسان غريه، وأجمل ما في الكون من نساء؟ من يقيم الليلة قداسا لجنوبي وحنيني والبلاد التي بكيتها بعد منتصف الليل؟

قشعريرة حب ورعشة لم تفارقني، وأنا أخفي دموعي خلف شموع الحانة، النادل المرصع بالأزرار الإرجوانية يرقص مع "غوليالمو" ويغفل عن

الحساب، الجنون يغطي المكان كله، لا أحد يدري بهذا "المقاتل" الذي يختلس النظر إلى الحروب، يقطع الخيط الفاصل بين اللذة والشلل، فيختار الركوع والسجود على تراب البلد البعيد (المذبوح).. يتأرجح بين جمرة العشق هناك. وإغواء بيورت وطبيعتها هنا.. أي صخب ممتع في قبو "غوليللمو" هذا، وأي جمهور مسالم بسيط يتموج في رقعة الرقص؟

فى الثانية بعد منتصف الليل.

ظننت أنهم سيغفلون الحانة، لكن جمهرة من العشاق والتائهين والمقنعين تدخل قبو "غاليالمو" يهتفون بسقوط الفاشية التى تحارب أمجادهم الفقيرة، هيجان منسق غريب، فسق لا خدوش فيه، وقف أحدهم على مكان مرتفع يصرخ:

– يعيش غولماليو، ولتسقط مرابط الثيران.

قال الثاني من خلف كأس مشروخ:

– غولياالمو، صديقنا، صديق الفقراء، في صحة أصابعك الذهب.

ابتسم العازف، لكنه كف عن العزف، غولياالمو "زعلان" صاح الثالث وهو يتأهب لاحتساء الخمرة:

– اعزف يا غاليالمو، اعزف، أنت الجناح الوحيد الذي نطير به فوق خطايا الفاشية ومرار ما تفعله بنا.. أعزف يا عبق البحر، أيها الجميل.

قال أحد السكارى وهو مكفهر الملامح:

– ما هذه المخلوقات التعسية المزعجة، نريد أن نسمع "غوليالمو"..

جئنا من أجل غوليالمو، لا نريدكم هنا معنا.. إلى الجحيم أنتم وكلامكم الذي يشبه رائحة الثوم.

لم يلتفت إليه أحد، دب الصمت في الحانة كلها، أراد "غوليالمو" النزول وترك منصة العزف الذهبية، ولكن الجميع منعوه من ذلك، وهنا – يا لهول ما رأيت – راحت بيوت – وقد خلعت معطفها – تقترب من العازف الذهبي، ما إن رأيتها لصق "غوليالمو" حتى سمعتها تصرخ بالمقنعين التائهين وبقية السكارى:

– أرجوكم، جئنا لنسمع "غوليالمو"، لا شأن لنا بأحزانكم وطيشكم، من الغباء أن ندفع نحن ثمن متاعبكم مع الحكومة.. الإنسان هو الذي يختار الضريخ الذي سيموت فيه، أو يختار خطيرة النعاج التي سينتهي إليها، هذا المكان لا شأن له بالسياسة ومن العار عليكم أن نكون ضحيتكم في الليل كما في النهار، نرجوكم الرحمة بنا، تكفي هذه المكائد العصية، لا نريد أن تأل نحبومنا ونحن في عز الصبا، لا نريد حربا أهليه ثانية.

هناك خارج هذا المكان مصهر الرجال الذين يتعاملون بالزندقة والضوضاء والسياسة، أما هنا، فلا شيء غير الحياة، ونحن جئنا إليها، نرجوكم، لقد شعبنا من مغامرات "دون كيخوتة"، وجاء الوقت الذي هو حق شرعي لشبابنا ومستقبلنا معا.

ثم نزلت، بعد أن رمت بقبلة ساخنة على خد "غاليالمو"، وما إن احترقت صفوف السكاري حتى ضج (القبو) بتصفيق متشنج مريب، إذا بواحد من أعداء الفاشية يقول دون تهكم:

– هذه البنت الجميلة على حق، إننا نعتذر ونشرب في صحتكم جميعا في صحة غوليالمو.

ثم التفت صوب "غوليالمو"، وهو يصرخ ثانية بصوت جموح جميل:

– في صحة صديقنا العظيم "غوليالمو" وصحة هذه البنت التي لا نعرفها.

وكما تير في قنان الدجاج حال يأتيها طعام وفير، تحول المكان إلى كرنفال بهي يغمرة فرح أسطوري لم أعشه من ذي قبل، لكنني انغمرت فيه أكثر من سواي، لا سيما أن "بيروت" هي التي جاءت معي وكنت فارسها الوحيد في حلبة غوليالمو الساحر..

التصقت "بيروت" بجسمي أمام عيون السكاري والتائهين والعشاق المقنعين الذين سرقهم الرقص دفة واحدة وهم ينظرون إلى بيروت بكثير من الشهوة والانبهار، وربما بكثير من الامتنان، فقد أنقذهم من تجمع حزبي كاد أن يهدم واحدة من أجمل لياليهم، لعلها أجملها بعد الذي صار من ترنح ولذة في احتساء المزيد من الخمور على نغم جامح فرضته أصابع "غوليالمو" وسيطر بها على مشاعرهم برغم العاصفة التي صار بعض زفيرها يصل المكان من خصاص الخشب الذي بات يهتز كما عباءة (أمي) في شتاء العراق.

– كما عباءة أمي في مهب الريح!

اهتز على ذكريات خطفت مثل وميض مكتوم، تهتز أغصان الشجر، يهتز سعف النخيل وأنا أحكي مثل عجوز:

– لابد أن في شراييك الكثير من الدم العربي المسلم يا بيروت.. أنت مهرة أصلية فعلا.

وكما في حلم أو فردوس أو واحة من العنبر والسوسن والياسمين. سمعت "بيروت" تهمس بعشق بدوي مخلوط بالفلفل الصحراوى:

– يا لك من أبله يا حبيبي، ألا تعرف حقا أن دمي ينتمي إليك؟

قلت لها وثمة ضوء يشع في قلبي:

– لا أغني الكلام الذي يشبه فروض الطاعة يا بيروت، كلانا، أنا وأنت على صراط مستقيم واحد، عندما نهبط سنهبط مرة واحدة دون رجعة.. قاطعتني بلفة طريفة:

– على مهلك، أنا أحب الرجل الواعظ، لا تحرقني بهذا الكبريت المبلل، أخبرني بما تريده فورا، بلا نقوش، ولا زخارف، كما تفعل مع القصائد.

قلت: وأنا أسرق دور راهب عجوز أو (كاردينال) متمرس في تعذيب المجدليات:

– هل في دمك يا بيروت شيء عربي أو شيء مسلم؟

قالت بخفة طائر، دون شرود:

ولماذا السؤال؟

قلت لها ورائحة الخردل تتسرب من مكان بعيد إلى أحشائي وأنفي:

انتصارك الجميل على (هؤلاء) الغوغاء يشبه عندي..

راحت "بيروت" تضحك، أتحسس وحشا حلزونيا يمشي حولي وأنا أراها تضحك، البخور والحرمل والضباب يلف "بيروتا" وهى تضحك، أى وجه ماكر مووس:

– ماذا دهاك يا مازن؟ أنا والله من أصل عربي فعلا.. ألم تكتشف بعض طقوسي وطبائعي وانفلاتي وبلاوي جسدي؟!

ثم قالت وهى تبطء من طيشها الفاحش:

– اسمع، ظننت أنك تدري، أو هكذا تخيلت أمرك ذات مرة لكنك حقا مثل أى شخص ضرير، لا ترى ما تريد، إنما تسمعه وتكتفي..

أنا يا حبيبي من أصل عربي وربما، لهذا السبب، أحببتك أكثر مما يجب بل أكثر مما تستحق أيها الحبيب المخبول.

فى تلك الساعة من الزمن المائع، أيقنت أن رحيلي محض رجاء لا رجاء فيه،، وأن "بيروتا لم تترك من روق رابح سوى الرجوع إليها والاحتفاء بين ضلوعها وزواياها .. لم أعد أعرف الفرق بين الضلال والظلام، محض أطلال في الروح لا يسعفني شكلها ولم أعد أفهم نفسي وأنا بين يديها..

– أنا يا حبيبي، من أصل.. عربي!

ريشة تحت المطر، بل محض فريسة في جب الصياد، أتاهب للاعتذار منها والخشوع بين أحضانها والكف عن إخبراها بما نويت.. ها هو التين الشوكي ينبت بين لحمي، يطول كما تطول قامتي، ذاك هو القضاء الصارم والعقاب الأزلي على حنيني وصواب عشقي للبلاد التي أحب.

أعشاب وبخور ومسافر ترك المحطات كلها خلف ارتباكه وطنونه، لم يتمكن أبدا من الهروب والتخلص من شرنقة الغواية البريئة ومن إلحاح الأنوثة الذي صار أكبر وشم بين الضلوع، هل يمكنك الليلة –كما قررت يا مازن – أن تتخلص حقا من حبال بيروتا، وهي كما تدري أجمل ما في الأرض من أغلال وقيود؟ هل تتمكن أيها الماجن القوي العنيد من التخلص لحظة من حقل ألغامها المحشو باللباقة واللبلاب والترف المغمس بالشهوات؟

يا لهذا البلاط المزروع بالنعناع والفستق والأنوثة، كيف إذا صار خصمك ليس سوى امرأة من بلور ولهاث وحب خدوم؟

ماذا تريد.. عافاك الله وأحسن مثواك، أكثر من حب خدوم وقلب طاهر لا شأن له بالفجور والخطيئة والنهم الشهواني القاتل؟ ها أنت مع البراءة، خارج بيوت السأم الذي تخافه، بل وأبعد ما تكون عن الغباء الذي ترتطم به كل مساء من نوع منحرف رخيص من النساء.

باطل ما تفكر فيه، أو ما تريد برغم أنفك أن تفكر فيه عليك الراحة والتوبة يا جاحظ العينين، أيها الأعمى الذي أتعبه الرصاص والماضي ومنظر

الشهداء (الخلاب) الذي أبكاه دما، بقدوني الصحراء هو ما أكلته ذات عيشة وأنت ترمي نقاط دمك في جرة مكسورة عسالك – محض خطأ عابر – ترى ماذا جرى، ترع رأسك عاليا جيما يسألون من أى بلاد أتيت؟
– من أي بلاد أتت يا مازن.

سأحكي عن عرائس البحر، ولا بحر هناك، كروم وعميق وصلاة حتى الفجر، صلاة حتى الثمالة، أليف شكل الناس هناك، ناسك وصعلوك في وقت واحد، طناجر البيوت مليئة بلكروم والحكمة الوحيدة عند عشيرتي وأهلي هي: أن الجار صاحب الحق إذ ما اختلفتنا على أي حق:
– وكيف حال السياسة هناك؟!

٣

سبحانك يا وطني
على صهوة العشق أراك صريع الذئاب
تحمي الأرانب من غدرها
وعنقود قلبك لا يحتمي بالضباب

رونق روحاني، كوكب رطب ونبرة حب، هبة أغوص في ترباها وحبات رمالها، فكيف أغفل عن كوكبي إذا ما طاردته الوحوش؟ كيف أترك زغلانة نهب الثعابين وحراشف السم التي تسللت إليه؟

بين متاهة وبزوغ شمس، بين "غوليالمو" و"زهور حسين" بين نمر أرقط معلق في الحانة رسمه "خوان ميرو وامرأة حمراء يرسمها "ستاركاووش" في حالة ثانية، بين قنينة خمر زحلاوي وسان غربه، دب في جسدي نظام ساخن لحياة دسمة، لا أدري إن كنت حانقا على ذلك أم أنني أتسلي بشحوم الممكن؟

إبريق ماء وصلاة أبي عند الفجر، كيف أعطيه الحق بعد ذلك أن يمد عنقه ليرى زوجه جارنا، ولماذا يهمس خلف النافذة، أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم؟ حسنا، لماذا يتكرر في اليوم الثاني إبريق ماء وصلاة أبي عند الفجر، ولماذا – سبحان الخالق – يمد عنقه ليرى زوجة جارنا، ثم يأتي وراء شباك البيت يستجير بالله من كل ذنب عظيم؟

لم أفهم نفسي، ولم أتمكن حقا من فهم الدنيا: قلت لها: يا بيروتا، لا يكفي وصف الحرب بهذه الكلمات، هي أكبر من لسان شاغر لا يفهم إلا الثرثرة، دوامة وأبواق وأفراط في التنبؤ، قفاز من لهيب يرتط بقفاز كالمشواة.. ماذا أحكي؟ ها أنت معي ونحن نصغي إلى "غوليالمو" ناسين خلف هذا المكان، أن عاصمة صغيرة يمكنها أن تحطم كل شيء هنا، كيف بالعواصف المزحومة بالشظايا والدخان والبراغيث؟ كيف بالعقارب الصفر تخرج ليلة إثر ليلة تزاحمنا على الشاي والطعام؟

كيف؟ أريد أن نفهم هذه المجنونة، إن الحب مهنة طيبة، لكنها لا تنفع في ساحة ذكرياتي.. أنا يا مولاتي أتشظى عندما أتذكر من رحلوا، كيف أغفر انطلاق (روح) في العشرين يسحقها قزم يتكلم كالببغاء؟ كم قلب رفرف حولي بجناحين من الدموع والكتمان؟ كم (وكر) وكم (جب) وكم (ملجأ) مررنا عليه؟ كم فتشنا وكم اخترقنا وكم فوجئنا وكم طال الوقت علينا؟

شاحب هو الوجه، لا همسة بيننا ولا تسلية تسعدنا، ليس من ديك يصيح في الصباح، ليس من حكمة نكررها غير (أنا لله وأنا إليه) وكم رجعنا وكم انغمسنا في قاع القلب.. لا رواق هناك يحمينا من الزمهرير ولا شجر أو نخيل، محض صحراء تمتد إلى آخر سفاح في الكرة الأرضية.

بيروت، أيتها الثريا الوديعة، منذ كم من السنوات انقضت عصور انحطاطك أنت؟ منذ كم من الفواجع انتهت الأندلس وصارت محض جارية لقشتالة؟ متى يجيء الوقت حتى أتخلص من فوران ذاكرتي ونيران ذكرياتي؟ لعنة الله على "غو ليالمو" ألا يكف عن العزف؟ ألا يفهم أن التاريخ يرفض أن يتكرر، وأن علينا أن نكون أقوى من (غيتار) مائع وبطون تهتز وخمرة توهمنا بالقوة؟ ألا يريد أن يكف "غوليالمو" عن خداعنا ربما من قبلية مطمئنة، أو من رعاة بلا قطيع، جاءت "بيروتا".. ربما من دير عتيق مهجور عافة الكهنة والأساقفة، ربما من هوة في الجحيم أو هوة وثنية بلهاء، وإلا، كيف أفسر أنها قالت وقد جرجرها الخمر إلى:

– أريد ن أتعرى من ثيابي، هذا العرف يزعزع جلدي ويكهربني، الله يسلبني إرادتي، هل تفهم يا مازن؟

– .....؟؟

– إذا بقينا واحدة أمام وليالمو، فسوف ترى المستحيل الذي لن تصدقه أبدا، أشعر أن ثيابي أن تسقط عني افهمني أرجوك يا مازن.

لم أصدق – فعلا – ما قالته بيروت، أعرف أنها عاقلة جدا، وأن خيوط الجنون التي فيها لن تأخدها إلى سفالة من هذا النوع الرهيب..

رأيت في حياتي الكثير ولم أسقط في جحر للفئران أمام كلام عابر أبله..

قلت لها بشيء من التوتر:

– ما هذا الكلام، ماذا جرى؟ إنه مجرد عزف طالما سمعنا أفضل منه في التليفزيون، ماذا دهاك؟

فى تلك الساعة من الزمن الأسبانى المنشق عن روح المعقول، بدأت "بيروتا" تخلع معطفها ثانية وتنزع حذائها، ترميه على بعد متر واحد، مدت يدها تريد خلع فستانها، إذا بي دون وعي مني، أصفها بقوة، وأفرض عليها ارتداء معطفها وحذائها، أمسكها بيد من فولاذ وأعطي حسابنا بيد رخوة تائهة، توغلت في جسدي قوي الجحيم، وهيمنت على عقلي فؤوس وأبراج تنزل نحو أشلائي تسخر مني.

رفعت "بيروتا" عن أرض الحانة، ومشيت بها خمسة أمتار، بعيدا عن ذلك العزف الهستيري الذي أباح لها البذاءة والجنون، أسمع صوتا يقول بلهجة عفنة وجرس قبيح:

– دعنا نرَ ما خلق الله من جمال، لماذا تمنعنا – يا هذا – من رؤية الكنوز؟

كادت يدي تمضي وحدها إلى رأسة، لكنني – سبحان صبري في تلك الساعة – تركته ولسانه معه على رف من القرف الذي لم أحس به طوال حياتي إلا مرة واحدة، مرة ليس من السهل نسيانها مهما طال بي الزمان أو امتد العمر أن أحمل "بيروتا" الليلة بيد ترفس في زينتها وماكياجها الملطخ بالبكاء، يد رخوة تدفع الحساب إلى النادل المرصع بالأزرار الأرجوانية، المرصع بالظرف الذي يشبه ظرف التماسيح ودموعها المهذبة البلهاء.

نظرت إلى صاحب العفن، تذكرت الذباب الذي تجمع على أجساد الشهداء في صيف تموزى مالح، كان يراني وأنا أبصق على رف القرف الذي يجلس عليه ويصرخ من هناك أن يرى كنوز بيروتا..

رميتها في فراشنا الرطب في أخر الليل، أتحسس دموعها ونهيديها، نظرت إلى صفوف الخشب، إلى عربة القمح المنسوجة من الصباح الذهبي، أنظر إلى صياد بفريسة نائمة سكرانة تبتسم على حلم تائه وعائق تائه.

مسحت الغبار عن زجاجات الخمر، وبكثير من النفور رأيت يدي تمتد إلى بعض ما تبقى من العرق الزحلاوي الذي جئت به معى ذات مساء، كنت أشتريه من تحت قباب شارع الرشيد، أحسس ذاك المكان، نائيا مثل مرفا بعيد، ثمة حنجرة تشبه البوق تردد في أعمق حفرة من جسدي:

– إصبعان فقط سنكتب بهما الشعر، لكن النخاع الشوكي، والماضي والقلب، والذكريات، والأوردة، كلها يتكتب القصائد قبلهما.

هو الجرح يا سيدي وطني

وأنا العابر المستحيل

مع تلك الصرخة التي خرجت من بين شقوقي، زاحمنى إحساس مبهم جميل، أن بين الشعر وبيني، أكثر من زواج كاثوليكي، وأنني على ما يبدو، سأقول وداعا للفيزياء ربما إلى الأب.

أشم رائحة الزنبق البري تملاء المكان كله، تسربت إلى ثياب "بيروتا" وأفخاذها وعنقها الشهى الساحر، رائحة الزنبق تسللت بهدوء نبوي تحرق العفونة التى أرادوها منزلا لهذا النبض السماوي الطافر.

رميت جسدي قرب الزنبق البري التي راحت عطوره تشع من مسامات "بيروتا" ومن فراغات زواياها التي غطت في نوم رأيته طوال حروبي.

استيقظ ديك أسباني في السادسة فجرا، ولم نستيقظ أبدا.

حشرة تزحف تحت غطائي، ربما أصابع "بيروتا" هي التي انتهكت ملكوت النوم، برغم ذلك لم نتيقظ من عزف "غوليالمو" اندس بيني وبينها شيء دافئ أغواني بصحو يشبه رجفة برد، لكن نقمة البارحة وخمورها ومحارقها ودنسها اللذيذ البريء أرغمونى على البقاء في ذلك الفراش الدافئ وأنا أتحسس – في العاشرة من صباح زبرجدي – لحم بيروتا وهى تغط في نوم ممتع كاد أن يضرم نيران الحسد فى أنيابي.. هل كانت بيروتا تبتسم؟

رأيتها تبتسم فعلا، وهي تسبح بين شلالات النوم وخلف زعفران النهار الأسباني النفسي، مدن يدي أتلمس أملاكها، نزعت عنها الثياب كلها، أضحك بيني وبين نفسي كما المجانين، بيروتا تستجيب لم تفعله أصابعي، وهى تغرق في حلم عميق لا شك أنه مزحوم بالفحشاء.

خلعت ثيابي وهواجسي وخذلاني، ونزلت إلى شجر البلوط الغامض دون شراح يضيء هيكل أسرارها الغنية، لم يكن من نور في الغرفة غير ضوء غرائزي، وكانت كلها تدخل في هيكل طازج وحراب مهيب، أسناني تصطك عن هياج غبي عجيب، مع أن بيروتا معي كل يوم هي وجاريتي، وأنا الخليفة الأول على غرائزها الغجرية التي لا تشبع.

أخذتني عدوى الغجر إلى ثنايا جذعها الغض، لا حرمة لهذا الطوفان ولا من أحد يسأل عن مفتاح الماضي، لابد من مأوى لهذا الجسد الشغوف قبل أن يسقط عقم الشيخوخة، وتنتهي نبال الصياد قبل أن تنتهي صلاة العشاء. طازج فعلا.

هذا الهيكل البشري، من جلال قشرته إلى أبهة السيول، وهى تلامس خسة في النفس، بل، وتغطي المخ تماما وتسبح معه في أعظم ذلة عرفها الإنسان من أول عتبة في الصخور حتى أخر حفنة من الشكوك. يا لهذا الفزع الطروب، هيبة غفراني وفسحة الظهيرة التي هبطت علينا ومازالت "بيروتا" تتهكم من خيمة الغجر التي أنام تحتها ولا أعرف أى شيء عن خباياها.. إذا بها، بيروتا نفسها وبحركة خاطفة لم أتبين شكلها ولم أحسب حسابها، تصرخ بي، تأخذ مكاني وشموخ أعضائي، لتصبح فوق رأسي، تبتسم بشراسة وتبدأ العمل نيابة عني..

تسأل بوحشة ألذ من نعومة الموز:

– هكذا عليك أن تعمل، هل أتعبك الليل يا مازن؟ لكنك قلت بأنك لم تتعب طوال أيام الحرب، فهل تتعب مع امرأة مثل بيروتا؟

نظرت إليها بإعجاب صبياني، ربما بإعجاب بطولي خاص:

أيتها المهرة الجامحة! ما تفعلينه الآن يا بيروتا، من أجمل قصائد الكون بالنسبة لي.. النساء أفضل من يكتب الشعر فعلا، أما عن الحرب قتلك

قضية أخرى، تذكري يا حبيبتي إننا لا نحارب الأطفال ولا نساء، وأنت يا بيروتا، كلاهما معا.

استمرت "بيروتا" تشتغل في جسدي، رميت رأسي على وسائد من تراب وشظايا وكمية من الحسرات، بينما راحت "بيروتا" تطارد لهتي وحرماني، بل تمكنت من احتلال ثغوري في وقت نسبي، بينما خيالي يبتعد عنها صوب الغنائم التي أحصيانها في تلك الساعة من الغروب..

أقفز من ساتر إلى ساتر، لا تهدأ هذه المخلية مطلقا، مما أرغمنى على فرح أكبر وأنا أرى ساتر "بيروت" يصعد ويهبط دون أن أقضم منها غير ذاك اللهاث العنيد المخنوق.

فى لمحة بارقة من زمنى وغباواتى، قلت لها، وهى تتحمل المستحيل من أجل غروري:

بعد أيام قليلة يا بيروتا.. سوف..

سوف، ماذا؟ سكت اللسان وابتلت عروقي وانقطع الخيط الذي يربط أعضائي، كانت "بيروتا" تضحك مثل طفلة عمياء:

– سوف ماذا يا مازن؟

ثم فتحت يديها بطريقة مسرحية:

هل تريد الزواج مني يا مازن؟

ممثلة ماهرة كانت "بيروتا" وهي تهمس في قراري:

– قل يا مازن، هل تريد الزواج مني؟ هل يعجبك ما نفعله معا؟

طال انتظارها وهى تغرق فر غصوني، سوف ماذا أيها الوقح؟ أنت بدأت الكلام وعليك اختيار بقيته فورا:

– بيروتا.. أنت غالية عندي، ولا أعرف كيف أخبرك بما أفكر فيه.

هدأت "بيروتا" واختل توازنها، إنها تفهم أسراري، يمكنها تفسير ما يدور تحت جفوني، إنها تشعر بالكوارث قبل وقوعها:

– ماذا تريد أن تقول؟ أرجوك يا مازن، إذا كان شيئا سيئا لا تخبرني اليوم به، اليوم لا..

مالت على جسدي وهى تهمس، بصوت مذبوح:

هل أزعجتك البارحة؟ لابد أنني أزعجتك في حانة غولياالمو..

كلا يا بيروتا، كيف أخبرها – ياربي – بما نويت؟ لا يمكن قتل هذه الحمامة الغجرية خنقا، ينبغي أن أكف عن الركض خلف قطاري الجامح وأن أبتعد عن السحب الزرقاء التى ترفض أن تمطر من أجلي.

– قل يا مازن، تكلم، حتى إن كان شيئا سيئا سوف أسمع، غيرت رأيي، يمكنك أن تخبرني بأى شيء، أنا أصغي إليك.. أعرف أن هناك شيئا ليس على ما يرام، لكنني لا أعرف ما يكون، أخبرني بالله عليك، لا أريد أن أصرخ، أريد أن أعرف، وبسرعة أرجوك.

متاهة ما أنا فيه، أم انسحاب منظم، أم تراها خطيئة تضاف إلى أنقاض الروح أم هي حالة من حالات البطولة والاختراق ورفع الألغام؟

أريد – وفورا ما دمت بدأت –كسر الحواجز كلها والدخول إلى لب الورم الذي سيوجعها، لا مفر من ذاك الألم الذي سيأتي ولن تنفع معه نمنات الشعوذه ولا الكلام ولا نفقته اللسان أو خداع الحروف البراقة:

– لماذا تسكت؟ أخبرني بما تريد.

ثم قالت بهدوء أخافني:

– اطمئن يا مازن، أنا أقوى مما تظن.

وهنا.. جمعت أهرامات أحزاني في جملة واحدة، وأنا أنظر إلى فراغ بعيد من عينيها:

– سأعود إلى وطني يا بيروتا.

مبحوحا كان صوتي، لم أكن على حق يوم أخبرتها بأنني لن أتركها أبدا، أظافر جسدي يوم استراح على عصير الليمون، ها هو يلسعني مثل عقرب تفرز السموم والخراب على طول قامتي، لم تفعل "بيروتا" أى شيء، جزع أحس به يطوف بيننا ويدور بين مساماتنا، راحت تلبس ثيابها قطعة بعد قطعة، بهدوء، أعني بهدوء مخلوط بالخيبة والمرارة، أى صراع نعيش "بيروتا" وأى وحش أتحسسه بين ضلوعي.

وميض خاطف، جاء من خلف نافذة الغرفة، هكذا على حين غفلة، إذا بها تبتسم، لا أدري إن كانت "بيروتا" تهزأ مني، أم أن لوثة خطفت بيننا كما الوميض؟

ستعود يا مازن، أدري أنك لابد أن تعود ذات يوم، أنا إنسانة باردة اطمئن، أن أحزن أكثر مما يجب، أنا مسلمة كما قلت لك، لكنني تعلمت أن أرى في الإنجيل أيضا، أنا النقائض جميعها، في الحزن كما في السعادة جذوة لا تدأ وفى الوقت نفسه أنا الثلج الذي يتساقط عند سفوح الفجر هل رأيتني كما أنا في حانة "غوليالمو" أنا تلك التي أرادت أن تتعري، فقد شعرت في لحظة أن تفهمني يا مازن، لهذا تريد أن تهرب مني.

ثم، انقلب العرش وتغيرت أختام الكلمات، خرجت "بيروت" من نبات التسامح وراحت تشعل فتيل الغضب، أحس بها – من فرط اللوعة والبكاء – كأنها تدخل في كه دامس ومنه إلى مغارة مليئة بالجماجم، لم تعد البنت المطيعة الهادئة ذات الشعر الكستنائي القاتم، دخان يأتي من غرب البحيرة، صرير أسمعه من جنوبها، ماذا جرى حقا؟ أي خبل يطوف هنا بين شمال الغرفة وشرقها؟ أوشك جلدي أن يتشقق. هذه المرأة لا أعرفها أبدا، لا خبرة لي مع هذا النوع من النساء.

– اسمع يا مازن، أنا لا أنكسر بسهولة، لن أسمح لنفسي أن تكسرها أنت أو سواك، أنا لا أحب الكذابين، وإذا تعلق الأمر بعواطفي فتلك قضية ألعن،

سألتك منذ أول يوم عرفتك فيه وإن كنت ستبقي، وقلت لي: نعم، سوف أعيش هنا حتى نهاية عمري، حكيت لى الكثير عن حروبك وأصغيت إليك، بل صرت أفهم في الحرب أكثر منك أجهضتني برغم أنفي ولم تحتفظ بطفلي، وقلت أفعل ما يرضيه. ماذا كنت تريد أكثر من ذلك، ماذا كنت تريد اكثر من امرأة تحبك هكذا؟ وها أنت تريد السفر.. والحمد لله أنك أخبرتني، كان يمكنك الهروب حتى دون وداع.. كان يمكنك ذلك..

أتخمني الإحساس بالعيب وأنا أسمع "بيروتا" تجرحني من نكسة إلى نكسة، وفى لمح البصر كنت فررت "الزواج" منها، والعودة إلى وطني، قلت بصوت مازال مبحوحا من أثر الحيرة والفاجعة:

– أنا عازم على الزواج منك يا بيروتا.

لكنها لم تلتفت إلى قراري، بوابة في القلب لم تزل مغلقة على دموع غريزة، أخذت قسطا من الهواء وراحت تكرر مثل ببغاء عنيدة:

– أنا لست رخيصة يا مازن، أنا بيروتا.

ثم راحت تصرخ بي:

– أنا لست رخيصة.. أنا بيروتا.

بنية صادقة، رأيت نفسي أنهض، أمسك بيروتا، وأهزها بغلظة:

– ماذا بك يا بيروتا؟ أقول لك أريد الزواج منك وتقولين: ليست رخيصة؟ كيف أفسر هذا الكلام المذموم؟

نظرت بيروتا إلى سقف الغرفة، ربما كانت تريد أن تنظر إلى السماء، ثمة دعاء بين العينين، أراه يتموج فوق ملامح برونزية خافتة:

– أخبريني، كيف أفسر كلامك يا بيروتا؟

عندها قالت بقسوة وتشنج:

– أنا لست لعبة بين يديك، تحطمها، ثم تفكر في إصلاح ما عطب منها، أنا لست رخيصة يا مازن.

وقبل أن تفتح الباب، رأيتها تبتسم بحرقة عجيبة وهى تقول:

– إذا كنت تحبني فعلا، سأعرف ذلك قبل أن تكتشفه أنت!

ثم أغلقت الباب دون ضجة، بل بهدوء تام، كما نفعل ونحن نفتح الباب أو نغلقها في لحظات المتعة.

٤

عادلا كان قلبي، وأكثر عدلا إحساسي وهواجسي، لكن بيروتا خرجت وأظنها لن تعود، لا أريد أن تنتهي الحرب بيننا بهذا الشكل المضحك، أنا أجد أمين على شهوري التي أمضيتها مع بيروتا، لن أتنكر أبدا لم فعلته معي من سهر على جروحي وعناية بقلبي، وخدمة لم أعثر على جمالها طوال شبابي.

نظرت إلى نفسي في مرآة مشروخة، وأيقنت أن هذا الرجل الذي أراه مازال هو البطل الذي آمنت به، وأنه لا يمكن أن يكون مثل بقية المشعوذين الذين يحرقون جلد البشرية ثم يطفئونها بقليل من الماء رحمة بها، أرفض أن أخسر "بيروتا" تلك العربية المسلمة التي علمتني الكثير، هي والصحراء والظايا أفضل من علموني وأول من أرشدني إلى نفسي.

لكن بيروتا – ذاك الغزال العسلي الأنيق – تركتني وحدي، أجمع وأطرح ما جرى في حياتي وأقسمه إلى خير وشر، ذكاء وبلاهة، وقبل ذلك كله إلى قسمين متناوعين على امتداد الحياة: أن أكون كما أريد أو كما يريدني في سواي.

تركت ذاكرتي على ضفة من حاضري، أسرعت في خطاي نحو "بيروتا".. أعرف أنها ستذهب إلى الشمال مدريد، حتى تعيش أختها الكبري فى "سيغوفيا".. مرة أخبرتني إذا ما قررت الذهاب إلى هناك، أن أجلس في مقهي "دون كيخوتة"، ولابد أنها ستأتي وتراني في ساعة من ظهيرة سيغوفيا.

ترى، هل مضت بيروتا إلى أختها؟ ثم أنها تبكي حياتها في مقهى (فبس) حيث رأيتها أول مرة؟ ربما في مقهى (ميسون)، حيث يجلس العرب والشعراء واللصوص وتجار الكتب الكبار؟ لكن نقودها مازالت معي منذ ليلة أمس، وهذا يعني أنها لا تملك ولا بيزيتا واحدة، ولا أظنها ستهرب إلى

(سيغوفيا) مادامت مفلسة هكذا، يمكنها أن تشرب الموز بالحليب في أى مقهى – ربما – لكنها لن تسافر أبدا.

مشيت شارع (خوسيه انطونيو) من أول بنك فيه إلى نهاية (بلاثا مايور) أشهر ميادين مدريد، لم أعثر على بيروتا..

دخلت (بلاثا دي سبانيا) وجلست بين الطيور، عساني أعثر على طائر النورس الذي غادرني، لكنها لم تكن في أي شبر من (خينارليسمو) ولم أجدها في سوق الزجاج ولا زقاق العطور ولا في حانة (همنغواي)، حيث أخذتني ذات مساء لرؤية كرسية ومائدته وكأسه التي كان يشرب منها، سألت عنها جميع شياطين (كوثكو) وليس من خيط أو شعاع أو أصبع يشير إليها..

ماذا تفعل هذه المخبولة الملسة بحقيبة فارغة؟ هل أصعد الطائر نحو سيغوفيا عساني أراها في مقهى (دون كيخوتة)، وأشرب مثلها الموز بالحليب كما تفعل هي في النهار؟ السحب البيض البراقة أخبرتني: أن بيروتا ليست بعيدة، إنها في مكان أقرب من وريدي إلى..

فى تلك الأثناء تذكرت جميع محاسنها، منذ أول يوم إلى آخر دمعة أحزنني ما فعلته بها، واحدة مثل بيروتا ليس من السهل أن تتكرر، ماذا أريد أكثر من أمرأة جميلة عاشقة وأصابع تعمل من أجل رضاي وملامح من عنبر وتفاح وفراولة؟ فوق ذلك كله من ديني وطينتي وأصلي؟

موجة شاردة في بحر شاسع لا نهاية له، هكذا رأيت قلبي يتخبط في بركة من هذياني، من هذا الدهليز الذي صنعت بنفسي وتاهت خطواتي في قنواته وعابه المظلمة، لم أعد ذلك السلطان الدنيوي الذي عاش أجمل أيامه في بحور "بيروتا" وسفوحها النية بالقلائد والانفلات وفطائر الصباح التي علمتني طعم الزواج ولم أتزوج بعد.

– أين اختفت هذه الجنية الرطبة اللعوب؟ هل أخذتها السفن إلى لشبونة مثلا؟ أم سرقتها سيغوفيا بعد أن تبرع مهووس من حثالة الغجر بأجرة مركب صغير تعبر به على كبريائي وصبري جون دفة وبلا قطبان يشبه الخنازير؟

لا أفهم سر هذا الندم الفاجع الذي تسلل كما السكاكين إلى لحمي؟

أنا الذي كنت أريد أن أفارقها، فماذا دهاني وقد فارقتني "بيروتا" أتحسس (البلوفر) الذي كان هديتها في عيد ميلادي، قنديل يضيء بقايا دموع ترفض أن تنزل أمام أنيني.. لا ملاذلي بعد "بروتا" أشعر بالحمى ولا عقاقير معي سوى الأمنيات:

– إذا كنت تحبني فعلا، سأعرف ذلك قبل أن تكشفه أنت.

أى نعيم كنت فيه، أى كارثة رميت جلدي المسلول عليها؟ متى أكبر على افتراضاتي وأوهامي؟

رحت أطوف حول (بلاثا مايور) عساها تقترح الرجوع إلى غباري وبلاط عظامي، لكنني لم أعثر عليها في أي شبر من مدريد.

خالية (بلاثا دى سبانيا) إلا من رائحة المارجوانا وحشيشة المصريين التى تفوح بين البحارة والمهرجين، أر بخار الكنائس وأشم عاصفة من طعام الفقراء، وطعام الغرباء وفتات الموائد التي يجمعونها لصق حيطان الكنسية (البندكتية).. ناسك هنا، بهلوان هناك، من السهل أن ترى قابيل وهابيل في كل ضلع من أضلاع (خوسية انطونيو) دون أن يلتفت إليهما أحد أو يشير عليهما شرطي أو مجذوم، لا أحد هناك غير الشيوخ الطاعنين في العصيان والورع الجذاب المزور.

قلت سأذهب إلى مقهى (قبس) حتى تغلق أبوابها، مشوش هو النخاع، لن يهدأ ثعباني أو يخف منجل حرماني حتى أعثر على "بيروتا"، وأعتذر منها كما يفعل فرسان القرون الوسطى.. لا ملح في طعامي ولا من بوح في صدري إذا لم أجدها أمام عيني وقرب حقولي، عساني أنقذها من غبائي الذي طال، وامتد فوق جلدي، ولم أتمكن من إيقاف جموحه أبدا.

أربعة أيام ولم أعثر على "بيروتا".

فى مقهى "قبس" التى أجلس فيها سبع ساعات في النهار. جاءني عراف غجري مثل عقرب الساعة، أكتب في قصيدتي وأهذي أمامه بسؤال يتكرر:

الزمن الأسباني رماني

فى زواية من بار مهجور

لا أعرف من يشربني؟

لا أعرف من صار يدخني؟

لا أدري من أطفأني؟

لم أسأل من ضيعني روماني في حلم أكبر من كل رماني؟

ما إن يضحك العراف الغجري من كلماتي، حتى يصيبه صرع كاذب ثم يخلط ما بين هامة مخيفة ونداء محروم، وبيع الكلام بالعملة الصعبة، ثم يقول، وهو – كما يبدو – يشكو من نقرس بلدغة كما الشوكة:

– أنت لا تنتظرها، هي التى تنتظر، باخرة في الميناء ستأخذها إليك ذات يوم، وقبل أن تحين صلاة النوم في الليلة الأخيرة من الشهر الجاري، ستكون لك، الحماقة لا تنفع مع حب كهذا، كن بشوشا معها، فقد تركت أهلها من أجل عينيك، الصواب، الصواب أن تصبح أنت بلسمها كما كانت هي ذات يوم.. أدري أنك خارج من حرب كبري وما عيك سوى أن تداوى القروح والجروح، أنصحك مادمت هنا أو مضيت إلى مكان أبعد لا تبحث عنها، هي التي ستأتي إليك.

ولم أفهم مني قوله قبل أن يتركني وحدي:

– الحرب علمتك الكثير، لكن حشود الديدان مازالت أكبر مما تظن، عليك أن تحتمي بمن أحبوك، لا تترك في وعاء الزبدة غير الزبدة، هل سمت؟ لا تترك في وعاء الزبدة.. وأشار بإصبعه إلى فمى أكمل قوله: سوى الزبدة.

لم يأخذ مني العراف الغجري ولا (بيروتا)، أنا الذي ظنت أنه سيأخذ نصف أموالي، كان قد اختفى، عافني تحت سقف من الهذيان، يتراكم حولي ذباب لزج الميناء تأخذها إليك؟ لا تبحث عنها؟ هي التي ستأتي إليك؟ لا تترك في وعاء الزبدة سوى الزبدة؟ شحود الديدان أكبر مما تظن؟

يا لتلك الشعريرة التي مرت على جسدي.

أي نور ساطع طاف أمامي، لماذا رأيت نفسي حافيا على مرمر أبيض يتموج كما العجين تحت شيقاني؟ حائك مشلول كف عن الحياكة، وشاعر غلبته القصائد، يكفي (رو) دب قطبي واحد، يحمي غضاريفي من البرد والحالوب والمطر، تكفي قصيدة واحدة لحماية عقلي من الجنون.

الجوارح تطاردني، وأنا مازلت أجلس في مقهى (فبس).. خفية، رأيت نفيس مثل إسفنج مبلل بالدمو، أبكي البلد الذي نسيته منذ شهور، ترى أي سفينة في الكون يمكنها أن تأتي به إلى مدريد؟ قلبي والله ملطخ بل مثقوب بالتراب والحنين والأزقة المعمرة بصباي وطفولتي.

هل ينفعني يوم واحد...
حتى أتطهر من أثاني؟
في الخامس والعشرين، من تشرين
جاءت امرأة من بيت الليل
قال اهلا، كيف الحال؟
قلت لها سيدتي، مازال
سنوات تمشي وشهور
وأنا مركون، في زواية من بار مهجور

بئر من البلور، أميال من نور (عطارد)؟ أسبح في أعماق البئر وأرى النجم البحري يغازلني، الممرات كلها ترغمني على قتل هذا الذئب الوحشي، رباط صباي صار يضيق على تقواي ومحبتي، كفي – قلت يكي – ذاك الجفاف إلى تسرب إلى الروح، هذا السوط الذي به أجلد نفسي، من أي بلاد أتيت يا مازن؟ هكذا تسألني "بيروتا" في كل مرة وهي تعرف الجواب كما أعرف.

ماذا حل بك اليوم أيتها العاشقة المفلسة الحلوة، ماذا تفعلين هذه الساعة بدوني؟ هل أصدق العراف الغجري وأقول كما قال حتى أحمي نفسي من السخط، ومن هذا الثغاء الذي صار صوتي؟
– من أي بلاد أتيت؟

يقشعر جلدي، وأنا أفكر في طريق العودة.

كيف سأقطعه وحدي؟ أفكر في طريق العودة.

كيف سأقطعه وحدي؟ من مدريد، إلى برشلونة، قطار واحد يرميني فوق الميناء الفضي، من برشلونة المزحومة بالزهور، إلى مارسيليا، باخرة عملاقة اسمها (كرادنيس) تتوقف ست ساعات في نابولي، جنوب إيطاليا المنعش المتوحش المملوء بالفنانين والنساء القحات واللصوص، ربما انتهز الفرصة وأرى روما، ثم أعود على ظهر باخرتي لترميني على رمال (الأسكندرية) أبكي ذكريات الوحدة العربية ثم غادرها إلى بيروت..

الله، يا لطول المسافة، وأنا مازلت في لبنان، وأمامي دمشق ورحلة تستغرق نصف ما أملكه من فول سوداني وتفاح وسمك معلب وقصائد حتى أكون في بغداد.

على طرف البحر.

ليس معي غير طعام الغرباء..

أقول وداعا يا مدريد، يا طعم الزعتر والزيتون..

قلت وداعا بيروتا

يا سعف حنيني ونخيلي

لم يعد في جعبة السر غير يوم واحد، غدا، أفارق البلاد التي أحببت، ليس من أثر أو خطأ يأخذني إلى "بيروتا".

فتشت الكنائس وسألت عنها (بولص وأشعيا وأرميا)، بل سألت عن السيد بطرس أيضا، لم يسعفني الكهنة ولا الرهبان ولا الكرادالة، بل ضحكوا مني:

– كيف تبحث عن مسلمة في ديار المسيح؟!

وأغلقوا الباب في وجهي، بهدوء يشبه طعم العلقم (يا سادتي، بيروتا هي النقائض، الشتاء والصيف، الحريق والماء معا، وإن شئتم هي الجحيم والفردوس في جسد واحد).

ولا فائدة،

مفتوح شارع (خوسية انطونيو) للنساء والغزل المباح، كذلك (خيناوليسمو) ولا أثر لبيروتا، الموت يمضي بسرعة نمر جائع، وموعدي يقترب كما النيازك، النمر الجائع يعثر على ريسته، الوقت يمضي أسرع رأيت جنازة محترمة في سيارة سوداء تعبر فندق (كوثكو) وأحزنني – برهة من الزمن –كيف أنني فكرت: ربما تتحرك بيروتا، ربما قطت في البحر، ربما تركت في وصيتها اسم القاتل؟ ثم قلت لنفسي لا توجد في إسبانيا امرأة تموت من أجل رجل.. قلبي تمزق فعلا، لم يعد يشارك في الجمال الذي يراه، برغم أن العيون العسلية تزاحمني على امتداد الشوارع.

روحانيا صار قلبي واكتفى بما انتهى إليه.

والوقت يقترب، الوقت كما النمر الشعبان، أكل الفريسة توا وصار يزاحمني على ريشة ثانية، ليس غير ساعات أتسلق بدها سلالم القطار صوب (برشلونة) حتى أصل الباخرة الراسية منذ يومين، تأخذني إلى مارسيليا ومنها إلى نابلوي.

أية علة أحسها في ضربات قلبي؟ كيف أنني سأعود وبيروتا غائبة لا تعرف ما جرى ولا أعرف عنها أي يء؟ كيف سأمشي في (باب الشيخ) أو (الكاظمية) وكيف أجلس قرب أشجار التين ونخيل البصرة وأنا لا أدري أن مصير هذه الإنسانة التى طفحت بنكران الذات وصارت تسهر الليالي على جروحي وحطام ضلوعي وعاهة عظمي الذي ما استوى إلا بين يدهيا؟ ولا فائدة.

يا سيدتي يا طعم صباي
يا رائحة الشيكولاتة وسحر الليل
يا سيجارة أحزاني
أين تنامين الليلة؟
يا طعم الزتر والأناناس
أنا أديك الصبح
فليستيقظ هذا العالم
حتى يشهد نوع بكائي

نظرت إلى مدريد. مرهم عزائي وصبوة هفواتي التي شبت عليها وصارت طوق نجاتي وكواكبي التي تسعفني في طول صحرائي ومتاهتي، كنت أطيل النظر إلى واحة الأرجوان أبحث في آخر لحظة من زمانها، عن امرأة غادرتني صوب البحر بلا عتاب.

بيض القلق يأتي من زان طفولتي، يشمخ تحت أنفي، أنفي، أشمه..

أبكي، أتحرك في زوايا (قمبر علي، وكمب الأرمن، والست نفيسة، وحمام المالح، والعاقولية، وتحت التكية، والدهانة، وسوق الغزل، والمهدية، والفحامة، وباب السيف) وأبوس إحداهن سهوا بين قبور (الشيخ معروف)!

نظرت إلى عاصمة أسبانيا، بقلب خاشع للحب والذكريات، اشتريت في محكة القطار تمثال (دون كيخوته) وأنا أوشك ثانية أن أبكي غياب بيروتا.. ورق العنب الذي لف أحزاني وحرماني طوال شهور الغربة.

– أنا آسف، والله العظيم أنا آسف، قطاري يمشي نحو برشلونة، أنا آسف حقا يا بيروتا.. يا بقدونس الجياع وأعجوبة الضيوف وفستق النزلاء، سأكتب إليك قصائدى كلها، يا حياء مدريد وبصارة طعامها الشهى.

هذه المرة، أرجو حقا، لو تساعدني لغتي، كي أتحدث عن حاضري، فقد كان الماضي القريب خير دليل على رقة مشاعرنا وجنونها، ماذا كنا نريد؟ بل ماذا كنت أريد؟ ماذا نحلم أن نحقق؟ وكيف يمكن للطائر المهاجر أن

يعود ويستقر مرة واحدة؟ ليس من أحد يعرف أوجاعي، أية أعصاب بقيت في الجسد الذي أهلكته سنوات الحرب؟ معذرة بيروتا، ليس من السهل أن أفهم نفسي ولا أعماقي، فكيف يمكنك أنت؟

تحرك القطار، رميت الرسالة من نافذته، وانهمرت في جوف القلب حفنة من الدموع، كمية كبيرة من الاعتذارات، ولا أدري كيف رأيت – والقطار يمشي بسرعه البرق – رعاة الخنازير وهم يرفعون قباعتهم.. صب قطاري؟ خلاص، لا بيروتا بعد اليوم، غريق فاشل في حوض ليس أعمق من متر واحد، احترس وما الفائدة؟ لا نذور بعد الليلة ولا قربان يستحق أكليل الذوبان في الحب، يا لمأساة هذا الثعلب الذي أحرقوة في كيس مملوء بالدجاج؟ يا لهذا القطار الذي يرفض أن يهدأ.

كيف تصبح امرأة واحدة – في لحظة من العمر – خرافة تمشي على قدمين؟ كف؟ أنا الذي – بإصرار مضحك – كنت أريد إخبارها برحيلي ونية المطاف، فماذا جرى يوم غادرتني وهى تفسح الطريق أمام حنيني ورغبتي في الرجوع؟ أشم رائحة السفر بع أن اختفت رائحة الزنبق البري.. لم يبق معي، وأنا في قطار العودة، سوى صوت العراف الغجري اسمعه مثل بوق صاخب:

– باخرة في الميناء ستأخذها إليك. في الليلة الأخيرة من الشهر الجاري، أدري أنك خارج من حرب، وما عليك سوى أن تداوي الجروح هي التي ستاتي إليك.. لا تترك في وعاء الزبد سوى الزبد.

هل سمعت؟

يرتعش جلدي ومساماتي وأنا أتذكر قول العراف، كيف أرى "يبروتا" وأنا الذي مسيت عنها وتركت البلاد التي تعيش فيها؟ لم أعثر أبدا على أي جواب، هناك نكبوت في القطار – سبحان الله – ماكر وغشاش ينتظر الفريسة، مع أن هذا القطار على سرعته، لن يحقق له أيه رغبة، مادام الهواء سيطرد الذباب عن نسيجه القاتل.

٥

تسلقت السلالم المصنوعة من الجبال، كنت أول من يصعد على ظهر الباخرة (كرادنيس) في طريق العودة، وبرغم إيماني أن بيروتا ولا يمكنها أن تكون هنا في برشلونة، لكنني بقيت أحدق إلى الميناء، من أول شبر فيه إلى آخر حمولة في مخازنه، ليس من امرأة تشبه بيروتا.. بقيت أنظر وأطيل الصبر، حتى تحركت (كرادنيس) وصب أعماق البحر، إلى مارسيليا، وليس معي غير حقيبة صغيرة جدا وجواز سفر ودموع غريزة.

أنا فوق البحر، في أعماقه ربما، البحر حالة من حالات الموت، كم جثة طفت وكم حرب مرت وكم حضارة اندثرت في البحار؟ أركب فوق (كرادنيس) وهي تبحر في الأبيض المتوسط، تبحر بي على حرير وأحلام وغزل، وأنا أسأل عن أمراة اسمها "بيروتا" وعن قلب تائه في قنوات العالم.

اختلفت الليل والنهار، منذ أن دخلنا ذاك الدغل المسحور، المحشو بالحردان والدماء والحروق، ماذا جرى في تلك المنحدرات الرملية التي تكسلت تحت سعير الدبابات والجثث التي تركوها؟

من فعل بنا هذا الجنون وهذا الموت!؟

رست الباخرة على رصيف مارسيليا، لم أتزل منها، بقيت وحدي بين غرف السفينة التي تشبه الدكاكين، يتلاطم الموج تحتي، وأنا أحتسي بيرة، معك الروح والجسد معا، أشعر أنني مثل خشب الجوز، صلب جدا من الخارج، وأكاد أتهشم من الداخل بين أسنان السكارى..

مضت أربع ساعات وأنا وحي، حتى عاد ركاب الباخرة جميعا، وتحرك البحر قبل أن تتحرك كرادنيس صوب نابولي..

كل شيء يتحرك في هذا البحر، قبطان أقرع يمسح قمه رأسه بين موجة وموجة، هبوب الرياح تشارك فى اختراق السفينة، تدفعها بقوة. طوابير دون كيخوته اختفت منذ وقت بعيد، وعن صلاة الصبح سنكون في نالولي، حتى إذا رحت أفتش بين البهائم وفي الخرائب والزرائب أو بين القبور – لئلا تكون بيروتا قد تنكرت في شكل فلاحة أو ساحرة – ستختفي حال ظهورة؟ وما الفائدة؟ سأدخل هذا الكوخ أو أفتح اصطبل الخيول وأطيل النظر إلى الكائنات الحية والميتة، أرى تلك الجنية التي أرادت أن تتعرى أمام مئات الرجال السكاري.. لماذا لم أبحث عنها في كل زقاق من مدريد؟ ثم اصحوا،

بل اغفوا، في كل شبر، في كل محطة، وفى كل بيت.. هل كنت أحبها حقا؟ لماذا تخيلت عنها في أجمل ساعات العمر؟

اصحوا على موج صاحب ميل.. أقنع نفسي بما لا يمكن إقناعي به، فواح هذا العشب، ذاك العازف "غوليالمو" أمشي بداء لا دواء له، قتلت في روحي وعقلي كل ما أملك من ردود فعل صحيحة، اقتربت من الجنون، رحت أبكي وأنا بين السماء والماء، لا أحد يدري بي وليس من أحد يفهم لوعتي على طول هذه الباخرة المحصنة بالدعوات والبحارة وأطواق النجاة.. لماذا بكيت يا مازن؟ في نابلوي، هبطت على رأسي أصنام الماضي وذكرياته الطريقة، خزانة عقلي محشوة بما رأيت في السينما، هذا الساحل الصاخب العجيب، عندي من الوقت ما يكفي للذهاب إلى روما، هناك تسع ساعات أتمكن فيها من رؤية (بياتسا دي نافونا) ونافورة الأماني، أرمي فيها بعض نقودي، أتمنى شيئا في القلب لا يقال، أجلس بعض الوقت على سلالم (بياتسا دى سبانيا)، حيث العشاق والمراهقون وأجمل ما خلق الله من نساء الدنيا وقميصانها.

عند (فونتانا دي تريفي) تمنيت أن أرى بيروتا وأعتذر منها، هبة من تاريخ مدريد هذه المرأة الغرائبية المسحورة، يا لبراعة لسانها ساعة أن وقفت على مص العزف قرب (غوليالمو).. ضاعت هكذا في لمح البصر دون أن تترك إشارة واحدة إلى الهلع الذي انتابها من كلماتي التي تشبه الطرد

والصفعات.. إنني أضرب المصادفة، وأضرب الحظ بالمفاجآت، وأضرب نفسي بما كتب المستحيل على جبيني، عساني أعثر على "بيروتا" وجنونها المزوج بعبقرية غامضة.

كيف يصدقني أي كائن، إذا ما قلت إن عذابي كان ممزوجا – بدوره – مع إحساس خفي مدهش خارق (إنني ذات يوم عرفت امرأة مثل بيروتا، من هذا النوع الاستثنائي اللغز) فرح لا أدري كيف يتسرب إلى جسدي ومن أية مسامة يدخل إلى بيت عقلي حتى صار قطعة منى؟ كيف قطعت الصحراء؟ أنت الأبيض بين النوارس؟

بعد تسع ساعات تحركت الباخرة إلى أجمل محطاتها، الأسكندرية تنتظر زيارتي منذ مئات السنين، قالت سيأتي ذاك النورس الأبيض، يقطع الصحراء والمجهول ويأتي ذات نهار، هناك بكيت مع أول حنجرة عربية أسمع جرسها الأليف.. في هذا الميناء الذي خرج من جوف الحوت، كانت المعزة، أجل، هناك رأيت المعجزة بنفسي، فقد وصلتني على عنوان الباخرة (كرادنيس) ونحن في وسط البحر وتحت رحمة أمواجه وعواصفه وحيتانه، وصلت – يا للغرابة – رسالة من بيروتا، لم أصدق طبعا ما قاله القبطان وهو يلمني كامت بيروتا.. كيف تراها رفت مكاني وأنا دون عنوان؟ من أخبرها برحيلي على ظهر (كرادنيس)؟

قرأت الرسالة ولم تزل الدهشة تلاحقني.

من أين لهذه المخبولة تلك المعلومات كلها؟ رأيتها تكتب على مظروف الرسالة: (الأسكندرية ج. م . ع الباخرة التركية كرادنيس التي تصل اليمناء في التاسع من تشرين الثاني) وفى الرسالة العجب نكتب بيروتا إذا كنت تحبني فعلا، سوف تراني أمامك ذات يوم، شكرا على انتظارك في مقهى (فبس).. هكذا هي الحياة، إما الجنون، وإما الفراق.

لا شيء سوى واحد وعشرين كلمة. هي كلمة ما كتبته بيروتا على (كارت) أحتفظ به وسيبقى مع طوال حياتي.

– إما الجنون، وإما الفراق. شكرا على انتظارك في مقهى فبس.

تدري كم أنتظرها إذن؟ وكانت بدورها تحوم في البقعة نفسها من اشتياقي وحيرتي وانشغالي، يا لتلك البيروتا، كيف تراها صبرت وهي تراني أمامها سبع ساعات في النهار، أي شموخ غريب في ذاك الجسد الإسباني الفارع؟ صحوت على صدى جاء من نهايات الدنيا يقول لي:

– بيروتا كانت تبحث عنك فعلا.

فورا، تحرك في وجداني كلام العراف الغجري، الذي قال: لا تبحث عنها أبدا، هي التي ستأتي إليك.. كنت أريد أن أصرخ أمام الركاب أمام السحب المسافرة والسحب المقيمة. رجل يبتسم وهو يقول:

– الأسكندرية منورة يا بيه.

قلت له:

– بيروتا مازالت تفكر بي.

قال الديمي وهو يبتسم:

طبعا، هو فيه حد يمكن ينساك يا باشا؟

أعطيته عشرة دولارات، لم يصدق الدميم ذاك الكرم الفطري الذي مازال يعاشرني منذ صباي، فتح الطريق أمامي:

– الحمد لله على سلامتك يا بيه، ربنا يخليك ويحفظ لك (بيروت) كلها، قلت له وأنا سعيد بما يقول:

– بيروتا يا عم يا طيب، بيروتا مش بيروت.

قال وهو يدس الدولارات في جيب جلبابه الكبير:

– ويحفظ لك اللي اسمها..إيه؟

– بيروتا يا ريس.. زي بيروت تمام كدة.

وعدت أقرأ كلمات "بيروتا" أفتش بين حروفها عن لغز أو خطأ أو حلم أو مؤامرة أو كابوس طريف جاءني على حين غرة.. لكن الرسالة معي، والدميم أمامي، نظرت إليه:

– اسمع يا عم.. ممكن تقرصني؟

الدميم تحرك إلى الوراء، بشيء من القلق والخوف والشكوك، ثم اختفى مع جلبابه الكبير أكرر مع نفسي بفرح طفولي.

متى؟ قلت متى يا بيروتا، بصوت أعلى من صارة (كرادنيس)، ونزلت على رصيف الإسكندرية، أبحث عن طفل يقرصني أو عربة تدهسني أو بحر يغرقني لأصدق ما رأيت وما قرأت.

غيمة حمراء ربما، لست أدري، سحابة زرقاء تشبه بعض الكائنات المضحكة من يقول إنها كذلك؟ نائم ومشلول، أسمع دون وضوح، ماذا دهاني؟ الحب شيء رائع يا مازن، إنه يعطيك أحسن الفرص لنقول أنك مازلت صغيرا ومرغوبا برغم السنوات، وأنك بالتالي لا تعني تلك الأخطاء التي أتركبتها في الماضي، يختلط الحب والحرب داخل جمجمتي.

فى الإسكندرية نسيت الكثير من أحزاني، أنا الطالع من جوف الأرض، من تحت ركام لفحم البشري، ثم غادرها بسرعة لا تناسب عشقي الأبدي لها، ومضيت إلى بيروت، نهاية المطاف بالنسبة لتلك الباخرة التي سأموت ولن أغفل عن اسمها الغريب الذي يمس شغاف القلب.

كنت أفكر: من أي بريد رمت بيروتا بتلك الرسالة؟ من مدريد؟ برشلونة؟ من شارع خينار ليسمو؟ إنها ذهبت إلى نابلوي، ومن هناك كتبت شلال الحب الذي انهمر فوقي؟

من أي بريد يا بيروتا؟ لا أثر بين الكلمات، لا أطابع البريد ولا ختم مكان. كما في حلم أو خيال جامح مصنوع..

الحنين يدغدغ مساماتي، لا أتمكن من البقاء ليلة واحدة مهما مات سحر المكان الذي أسهر أو أنام فيه، مهما كان نوع النساء اللائي يرقصن في ملاهي شارع الزيتون أو قرب البحر أو عند الروشة، لا أريد سوى العودة، ولا أتحسس نفسي بعد هذا الغياب إلا في أحضان أزقتي وبلاوي طفولتي، ربما أتهيأ بعد أن أسبع منها، إلى السفر ثانية صوب "بيروتا" قيل سابقا: إن القاتل يتجول في مكان الجريمة، فهل سأمضي ثانية إلى مدريد كما أرى جثة بيروتا؟

فى الطريق البري إلى دمشق، أربكني الحنين، ويلي على هذا التلميذ النجيب الذي يتحسس خشب المدرسة وسبوراتها ونوافذاها المطلة على طفولته وصباه.. أقطع المسافات والذكريات الذي سميته باسمي أحرق المسافة الشاسعة بين بيروت ودمشق، لا شيء طوال الطريق غير شعاع من الشمس، يطول الطريق وتطول به الذكريات المعجونة بالدموع، ابتسم وحدي، أعاند هذا الدمع الطالع من غصون الروح، أخاف أن يراني بقية الركاب وأنا أبتسم مع غيتار "غوليالمو" لهذا أغلقت في وأسدلت الستار على ملامحي، على شبح بيروتا الذي يلاحقني وأنا أتحسس ثيابها التي أوشكت أن تخعلها، أما العشاق والتائهين وأعداء الفاشية والسكارى.

لحظة من الزمن، شعرت كم هي كاذبة تلك الملابس فوق جلدي هل تفهم ذلك؟ أغني هل تفهم هذا الشعور؟ أن تكون الملابس كاذبة ومزيفة؟

لم يبق من الطرق غير نصف المسافة، تمنيت لو أنني أشتريت برميلا من (سان غربة) أشهر ما تذوق لساني في ثلاثين سنة من العمر، لو أنني جئت به أخلطة بدموعي وأسكر – معه – حتى الصباح، قلت لنفسي وأنا أتوغل بين ثعابين الصحراء وخيام البدو التي أراها من بعيد:

– لا شيء معي غير حقيبة مثلومة الحواش، ومائة (بيزيتا) كانت آخر ما أعاده لي النادل فى مقهى (فبس) عندما أخطأت في الحساب وأنا أول وداعا لخوسيه أنطونيو، ورقة مدعوكة أسل الحقيبة نزعتها بشيء من الشوك عساها تكون رسالة من بيروتا، لكنني عثرت على آخر قصائدي:

كان وجهك سري ونافذتي
وقافلة للندي صوب، روحي
احزمي غصن جلدي، ذوبيه
واتركيني أعالج وقتي

هل أنا من كتب هذا الكلام؟ أغرق بين الكلمات وأحاول كسر الحروف إلى أجزاء وشظايا، عساها تصيب شغاف قلبي لأفهم كيف كتبتها ولماذا من أجل من؟

جسدتائة ربما.. والمحطات أسبقها نحو موتي
هل قرات رثائي؟ والقناع الذي...

أحتمي بك من زفة؟
مطر راح يغشل اسمي، يسامرني
يمسح ذاكرتي، والجنون

لم أصدق تلك القصيدة، متى كتبتها؟ في أية ساعة من الزمن الأسباني؟ مع من؟ ومن أجل من؟ إذا كانت عن بيروتا فكيف لم أفطن إليها طوال بقائي معاه؟ كنت أريد الشعر من أجل "بيروتا"، وأنا في إسبانيا في الوقت نسه كنت أريد "بيروتا" عساني أكتب الكثير من الشعر، كم مرة غازلتها – بشكل موزون ومقفي – ونحن نضحك قرب (بلاثا دى سبانيا)؟

كم مرة عانقتها في ممرات (كوثكو)، ونحن نحتسي البيرة في صحة (خينار ليسمو) شارعها الأمير الذي نقطعه كل مساء؟
لم يبق بيني وبن الحدود غير المغرب، والوقت المحصور بين غصة في قلبي وغصة غامضة لا يسمعها سواي.

كان ينبغي أن تكون هناك غصة وخفقة صوء تأتي مع "بيروتا"، لكن ضوء النهار أو ضوء النار وبريق القوة – وهما عنوان بيروتا وشخصيتها اختفيا في البحر الأبيض المتوسط، فهل ستقطع بيروتا أميال الصحراء وفراسخ البحار لتر مازن؟

ترى كيف نزرع حبه بطاطا وبقعة ضوء في مزرعة؟ بل كيف نزرع نخلة في عرض البحر؟

ما هذا الهراء الذي دخلت إلى منزله الضيق؟ هل تراني بدأ جنوني؟ قلت لنفسي وأنا أغازلها: أنا في أجمل حالات صحوي وعافتيي عند صلاة المغرب أكون على مشارف البلاد التي أحب.

إنني أرى في كل شبر من ذاك التراب الصحراوي المحروق، خطوة شاسعة إلى كون أمضي، رأيت دمعة تسيل على خدي وأنا أعاند نفسي وأرفض النوم.

يأخذني المطر الجميل – برغم المسافات التي قطت – إلى طفولتي وزقاق ذكرياتي فأبكي حياتي وأسكت مثل طفل يريد أن ينام.. الساعة السادسة مساء، الليلة السادسة من رمضان، معي حقيبي الصغيرة وأزدحم الركاب حولي.

ازدحم الركاب خلفي، وأنا أنظر إلى الخلف، إلى بلاثا مايور، وسان غرية وبيروتا، وخوسيه أنطونيو، وبلاثا دي سبانيا، إلى مقهى فبس والمطر الذي .. والعاصفة التي .. لا أدري كم مضى من الزمن، كم راح من الوقت وأنا أنظر إلى الطريق التي قطعتها من مدريد إلى دمشق كنت قد أيقنت هذه المرة بأنني لا أملك القرار.

٦

لم أرفع حقيبتي عن الأرض، لم أتذكر أن حقيبة معي، نزلت دموعي المؤجلة، نزلت من أجل روحي التي طمس في الحنين، الحنين لمن؟

كنت قاب قوسين من البلاد التي أحمل اسمها وتحمل اسمي، لا أدري – برغم أنني لم أعد أفكر في بيروتا – لماذا شلني أحساسي، ولماذا صار يمنعني من شراء تذكرة العودة؟

مددت يدي إلى (جواز سفري).

نظرت إليه بلوعة غامضة، أكثر مما نظرت من أمطار وغيوم ونخيل طوال حياتي.. برغم ذلك لم أتحرك.

أظني بقيت هكذا، بينما الحقيبة لم تزل هناك على الأرض لم تتحرك أيضا. كنت – إذا ما نظرت نحو بلادي – أسمع الرصاص والسساط فقط وإذا ما نظرت إلى الخلف، اسمع صوت الحياة.

– ترحك يا عم، الله يخليك.

تحرك يا رجل.

لأجل ينبغي أن أتحرك، أنا والحقيبة في وقت واحد .

بغداد ١٩٩٤

أبواب مفتوحة

دليل واحد على كوننا متحضرين، هو أننا لا ننتزع من المجانين حياتهم.
"إيميل بونتيش"

ها أنت الآن، بين أمرين لا ثالث لهما.

وحدك منذ أتيت هذا العالم –كنت – بين ممرين لا ثالث لهما: الخوف والنساء.

بيت مزحوم بالرزفير، جدران وذكريات وأسماء سمية، ضحكة امرأة تشبه الصراخ، تتناثر في زوايا البيت ما إن ينزل (زبون) ثري.

شهيق مزحزم بالعهر، دخان السجاير ودخان الشهوة، يمتزجان تحت سقف واحد، ونساء موشمات بحروق وأرقام وثياب ملونة.. بيت مزحوم باللهاث، والليل يطول بلا حساب سوى حساب الدنانير، تزداد وتصعد، حتى صارت جبلا لا توزاي رائحتة النتنة إيما رائحة.

وحدي في هذا البيت

لا أعرف وجه أبي، اسمي بلال، محروق الوجه والنفس معا، مهمل في شعاب وزوايا وممرات البيت، أري في اليوم الواحد مالا يراه مئات

الرجال، بين غرفه أحس بشيء، من المرارة والخوف، لكني – رغم عمري الذي صار فوق العشرين – عاطل من الصراخ لا لسان لي ولا عين ترى، فقد تعلم رأسي على الرضوخ لكل ما يرى، وعلى الصمت أمام هذا الخراب لم أفهمه حتى وأنا فوق العشرين من العمر.

بلال؟

شيء يشبه الشتيمة، هواسمي، أعرف الحروف وأنطقها – مع نفسي – وأضحك منها: الباء بلاء، واللام الأول ليل لا نهاية له، وهذا الحرف الثالث أخافه مني، فهو الساتر الوحيد بين الليل واللعنة التي صارت منذ طفولتي.

مزحوم بحروف اسمي، تعلمتها في هذا البيت، كانت أول من نطق بوجودى.. ولولا اسمي، كيف لي – وأنا أضعف مخلوق في هذا القرن البشري – البوح بما أريد أو البوح بنصف ما أريد، وهل كنت أريد سوى الطعام والنوم في هذا البركان الذي لم يهدأ منذ ولادتي.

الأبواب كلها، مفتوحة على أجساد عارية، لا مكان هنا لجسد مريض أو جسد عجوز، أو جسد منهك، أمي وحدها من بقيت في هذه الغابة التي تحرق أشجارها بنارها، ورغم صفات أمي التي لا يريدها أحد، فهي مازالت راسخة بين جدران البيت وفو أساسه المتين الذي يمتد من مراكز الشرطة إلى مراكز البطرين المتخومين بالدنانير والقرف.

ولم يقترب أي رجل منها، ربما منذ عشر سنين أو أكثر، لكنها تزداد سمنة ومالا خشية من الله الذي نسيته طوال عمرها.. أي ثراء فاحش هذا الذي سقطت تحت ملايينه وحيرته وسطوته التي لا حدود لها؟ إنها بعد الألف الليالي الحمراء، لم تعد تدري ما نفع هذه التلال من الدنانير، وماذا تفعل بها أمرأة لا شيء عندها سوى ولد واحد (لا تحبه) ومستقبل معتم منكسر مثل سراب يمتد ويمتد بلا جذور وبلا فروع.

أنا الولد الذي لم يحبه أحد حتى أمه – هي الجذر الوحيد في هذه الدنيا – البساط من شجرة لا فروع لها، تائه في غابة من دنانير ليس لي منها حتى درهم واحد، مهم بين شعاب البيت مثل قطعة خشبية تساهم في ديكور البيت فقط.

محروق بين الجدران، ليس لي سوى زواية واحدة أركن إليها، وليس لي أى أحد في هذا البيت الكبير سوى حق (الموافقة) على البيع والشراء، ممسوخ منذ طفولتي، لا صوت ولا رأى ولا إحساس لي سوى صوت العائلة وإحساسها.

فى أول ليلة من رمضان، نسيت نفسي وقلت:

هل سنغلق البيت في رمضان؟

بعدها – وهذا ما جرى قبل خمس سنوات – لم أنطق بكلمة، ليس من السهل نسيان العدد الهائل من أحذيتهن تسقط فوق رأسي، إنهن يبصن في وجهى كمن يقذف بشيء زائد في سلة مهمة.

وهل كنت أكثر من سلة عتيقى يقذفن فيها ما يزيد من كميات العادة وأوراق كلينكي ملوثة بالجروح والحيامن؟ لم أكن غير هذا بالنسبة لمن يبيع ولمن يشتري، إنني مجرد شيء بساقين يشتري حاجات المنزل، و.. ينام.

كيف أستيقظ أول إحساس في عروقي؟

لا أتذكر.. نزل على رأسي حذاء (إسراء) و(ماجدة) و(هيفاء) و(نورا) و(سناء) و(بلقيس) و(صباح) و(أنعام).. ولم أعترض.

كانت شيماء وندى وكريمة يفتحن أفخاذهن بحضوري، كأنني لست من لحم ودم، بل رأيتهن أجرام الرجال عشرات المرات ولم يشعرن حتى ببريق عيني أو لهاث جسدي.

إنني لا أساوي أي شيء.

هكذا بدأت أول شرارة في جسدي، إنني مجرد شهيق وزفير لا يسمعه أحد، ولا يلتفت إلى نبضات قلبه أحد، حتى المرأة التي تملك البيت ويطلقون عليها (أم بلال) نسيت من يكون هذا (البلال) الذي حملته تسعة شهور ورمته مثل حشرة.

قال لي زبون نحيف، هو الوحيد الذي سمعت صوته طوال عمري معهم:

ماذا تفعل في هذا البيت الفاسد؟

كانت كله (فاسد) أول كملة ينطقها إنسان طوال السنوات التي مرت على حجزى في هذا المأزق البشري.. لم أفرح، لم أحزن، كنت بلا مسامات وبلا هواجس وبلا شهيق، ماذا يويد هذا الكائن الذي يأتي كل أسبوع ويأخذ من يشاء ويذهب دونما حياء؟.. لكنني – غريب ما يدور – سمعته يسألني ثانية مثل حاكم في جزيرة مهجورة:

ما بالك أيها الأسود؟ قلت لك ماذا تفعل في هذا البيت القذر؟

إلا يعجبك وجهي؟

نظرت إليه، هل يمكنني – فعلا – أن أحدق في وجه أحد منهم أكثر من دقيقة؟ لكنني – هي الشرارة التي شعرت بها لأول مرة – نظرت إلى عينيه ما يزيد على دقيقة واحدة، ليت له بعد صمت عجيب قاهر:

أنا بلال، أنا ابن السيدة التى تملك البيت.

وأيضا، لابد من القول: إنني سمعت ضحكته تحفر البيت من أساسه وتنشر في شعابه وانحناءاته وهو يصرخ في وجهي:

يا ابن.. من ينظر إلى عينيك يعتقد أنك واحد من الملائكة، لماذا تنظر إلى وجهي هذا الوقت كله، وأنت ابنها أيها السافل؟ لعنة الله عليك.. كنت أظنك مجرد خادم في البيت، لكنك أقذر من فيه.

كنت أقذر من في البيت حقا، هل يمكن أن تنزل السماء فوق هذا البناء الفاحش وتهدم النفوس التى تلهث تحت فراشي ليل نهار؟ إنه بيت محروس برجال الشرطة والرشاوى والضحكات العاهرة هي الشرارة التى أشعلتني، التي بعدها (رأيت)!

خرجت من البيت، أعرف أنه لا أحد يسأل عني، ذهبت إلى الشوارع تمتد بي وأمتد بها، جلست في المقاهي وشربت الشاي، مجرد وجه عابر لا يلتفت إليه أحد، بكيت على نفسي وعلى نوع الدم الذي يسير في جسدي.

وقبل أن ينتهي النهار، رجعت إلى المجزرة.. لم يسألني أحد، ليس من امرأة أو رجل في عمق البيت يعرف ما جري، إنني الحشرة التي تمشي فوق الجدران.. العنكبوت الذي يمد ذراعية بين الزوايا ولا يعني أي شيء.

قلت ذي ذات نفسي: لابد أن تشعر أمي بوجودي، أنا الوحيد الذي أنجبت، الوحيد الذي يملك ما تملك من دنانير وعقارات وذنوب.
صرخت

نعم.. كنت أصرخ في البيت لأول مرة في حياتي، ورأيت –كما هي العادة – عشرات الأفواه تبصق في وجهي، وأشياء ثيلة تسقط فوق رأسي بلا إحساس بهذا السائل الأحمر الذي يسيل على أنفي وخدودي وإنسانيتي.

لست ذي ذات نفسي، وأنا أبكي:
عليك أن تختار يا بلال، بين حمار مذموم، أو رجل صار فوق العشرين.

أية ليلة غريبة مرت على جسدي وأنا ملفوف بالنار، تنهش جلدي سياط ذعر وقرف، من الذي أغلق نفسي وجعلني دون هواجس ودون مجسات ودون عقل؟

خرجت من الغرفة الثالثة صباحا، بينما النار مازالت تلتهم مساماتي وتحرق الهواء الذي يمر حولي.. بكيت على هذا التافه المسكين المركن الذي اسمه (بلال).. كان البيت يموء حتى الثالثة بهسيس هيفاء ونورا وبلقييس وأنعام.

نظرت إليه من خرم المفتاح، كان المفتاح في مكانه من الداخل، يمنعني من رؤية الزبائن، تسلقت بعض خصائص النوافذ، ورأيت..

ولأول مرة، ربما منذ سنين طوال، شعرت بشيء في جسدي يشير إلى" رجولتى" كنت أريد شيئا لهذه النفس المحرومة، أنا ابن سيدة البيت، ومن حق هذا الجسد أن يفعل ما يشاء في هذا المكان المزحوم باللهاث والملابس المنزوعة.

اختلط حقدي بشهوتي.

صار الغضب العتيق ينمو بطريقة غريبة، لم أصدق ما جرى، لكنني بدأت أفكر في حل لهذا الخراب المزدوج الذي يصعد ويهبط في أمعائي الذي بات يقتلني بعد أخرى.. أنا بلال ابن سيدة البيت، أرعف أن ما تملكه أمي لا يستحقه سواي، نعم، لا يستحق مجدها كله ودنانيرها وعقاراتها وكيلو غرامات الذهب التي تكنزها إلا بلال، هذا الحمار المذموم الذي صار فوق العشرين، ولم يلتفت إليه أحد ولم يشعر به إلا الله.

أية ليلة قذرة، تلك التي زارني فيها الشيطان، وتجسم في المرأة المثلومة التى أرى نفسي فيها كل يوم؟ هل ترانا نحسب الزمان بالسنوات أم نحسبه بما يجري في تلك السنوات؟

حاتي لم تبدأ إلا في تلك الليلة

ومنذ الليلة نفسها، مات بلال الذي كنت أعرفه طوال عشرين سنة ولم يبق منه سوى اسمه فقط.

فى الثالثة من صباح الخميس، كانت بلقيس – كما في كل مرة، مع رجل مسن غني – تصرخ وتلهث وتعوي وتصارع أنوثتها حتى يشعر المسن الغني بالرضا والفحولة، وكانت هيفاء – يلاها من غيبة شرسة.

فى حضرة جندي فقير، لابد أنه سرق الجنود حتى يتمكن من شراء ليلة واحدة.. كانت تفعل ما يشاء، إذا من يدري، ربما يموت غدا، برصاصة

طائشة، وتكون – هي – آخر أمرأة رأها.. كانت هيفاء تحب الناس وترى نفسها منذورة – فعلا – لسعادة البشرية كلها، أربع غرف فط، كانت تلهث في آخر الليل.

رأيت إنعام تغلق باب البيت خلف زبونها النحيف، الذي خرج وهو ينظر ذات الشمال وذات اليمين، كمن يرجو الله أن يراه أي صديق، حتى يقص عليه مغامراته ومجونه في آخر الليل..

لكن الشوارع مغلقة كلها، ليس من صوت يموء –كما القطط – سوى صوت نورا أصغر البنات في البيت، تتسرب النار من غضاريف الرأس، وتسري في كل جزء من جسدي.

لم يكن أحد يدري بهذا المخبول الذي ينتقل من غرفة إلى غرفة، ومن رعشة إلى رعشة، كنت أريد إنقاذ نفسي من هذا الخراب المزدوج: شهوتي وحقدي.

ولم يكن عندي سوى حل واحد.

رفعت واحدة من سكاكين المطبخ، كان عندي ما يكفي من الوقت أن أختار أطول سكين، مدببة مثل نهاية دبوس، ثم تتسع وتتسع حتى مبضها الخشبي الذي صرت أمسكه بأعصاب تمساحية، لست أدري من كان يمسك الثاني حقا، لكننى مشيت بأعصابي ورعشة قلبي ورذاله الماضي

وبصاق إسراء وماجدة وسناء.. كنت أمشي – مثل ديك مريض – وأنا أتذكر كل حذاء سقطت على رأسي، وجه شيماء وكريمة وصباح.

كنت أمشي.

صار بيني وبين سرير أمي، متر واحد، نظرت إليها تحت ضوء خفيف كانت تنام تحت رحمته، ولم أحس بشيء، لست ابنها، هذه امرأة لا أعرفه مطلقا..

أقسم بالله إن بلال ليس ابن هذه السيدة الوقورة، حتى أننى لم أقل لها (ماما) ولم أسمعها تقول (ابني) منذ ولادتي!

كان بيني وبين هذه المرأة، ماسفة طولها السكين التى أحمل، نظرت إليها بهدوء – عندي من لا وقت ما يكفي – أغلقت غرفتها واقتربت منها، ثم غرزت السكين مرة واحدة، كنت أخاف أن تصحو.. طعنتها مرتين، لم تصرخ، لم أسمع أي أنين، لكنني كنت أخاف أن تستيقظ على صوت نزيفها، غرزت السكين ثالثة، و.. خرجت.

مازال هسيس بلقيس يملأ البيت، وبقايا مواء نورا لم ينقطع منذ نصف ساعة، ليس من شيء غريب، غسلت السكين وشربت كوب ماء بارد وذهبت إلى غرفتي.

ثم.. انقلب العالم في يوم واحد، كنت أرى ما يدور بعين ذئب جائع مفترس، أنا الوحيد الذي مثل حمار مذموم رغم الملايين التى صارت من نصيبي وحدي.

وانتظرت أن يهدأ الدم، وتسكت النفوس.

نظرت إلى نورا، أصغر البنات، وفكرت أن تكون أول (أنثى) أنام تحت لحافها وفوق جلدها الأبيض.. كنت أخاف – حتى الآن – فرض أوامري على أية واحدة من نبات البيت، العيون كلها تتربص بي.. تريد أن تفسهم سري، وماذا تراني سأفعل بالكنوز التي تركتها أمي؟

رغم هذا لم تتجرأ أية سافلة منهن على احتوائي أو التقرب مني..

هناك مؤامرة في البيت، شيء لم أهتم به بعد، رغم أنني بدأت – فعلا – أتصرف بأموال أمي على مزاجي.

أعرف أن أي انتقال في عاداتي لن يناسبني، وأنني بحاجة إلى عام أو عامين وحتى ثلاثة، حتى يجف الجسد الميت، ويتغير بعض رجال الشرطة الذين يزورون البيت.

لكن ماذا أفعل مع حقدي وشهوت، كل آفة من إفاتي تزداد اشتعالا ورعبا في ممرات جسمي؟ أن أية جريمة ثانية ستكون السبب في كشف ما فعلت وأي قرار أصرخ به في البيت سيكون أحسن إشارة إلى (عقلي).

الذي قطعوه عني طوال وجودي.

ماذا أفعل؟

ذهبت إلى أفضل نجار في المحلة كلها، جاء معي إلى البيت، رأى غرفتي، ثم انقلبت تلك الغرفة بين ليلة وضحاها إلى جنة صغيرة..

اشتريت أغلى وأجمل فراش في الدنيا، غيرت صبغ الغرفة وبابها وتبدل قفلها ومفتاحها، جعلت هذا المكان البائس قطعة من الفردوس الذي كنت أحلم فيه.

كل هذا التعب الثمين لم يفعل أي شيء في أرخص بنات البيت.

قالت صباح:

إنه المسكين، لا يعرف أن كل ما يفعله لا يساوي ليلة واحدة مع (برغوث)

لم أكن أدري إن كان (برغوث) مجرد صفة أم هو اسم زبون يأتي في آخر الليل، لكننى عرفته عنه الذعر حقا، وأنا أصغي إلى كريمى التى قالت بصوت مسموم:

إنها نقود أمه، ومن حقه أن يفعل بها ما يشاء، مال الحرام يذهب إلى الحرام.

كنت أغرق في شبر من الماء.. ماذا يفعل إنسان مثلي، بلا تجربة وبلا حكمة وبلا قوة؟.. كان صوت إنعام يذبحني من الوريد وأنا أسمعها تقول بحنجرة داعرة:

لو أعطاني أموال قارون في أمواله من أجل ساعة واحدة لن أفعل.. ليس عندي أي شعور برجولته.

لم يكن موت أمي ولا إرهاق جسدي ولا الذعر الذي أعيش، يساوي حتى مجرد ليلة واحدة مع نورا أو شيماء أو ندى.. إنهن يكرهن وجهي واسمي ينتظرون الوقت الذي أموت أو أقتل فيه. في منتصف الليل كنت أسمع ثوت نورا – أحب من أحببت في هذا البيت – وهي تقول للرجل الثاني الذي تنام معه:

هذا البيت يملكه قرد أحمق اسمه بلال، كل واحدة منا تفكر في قتله، هل يمكنك قتله وأعطيك جسدي – سنة واحدة – مجانا؟

فى تلك الليلة بكيت، كان يكف نورا أن تعرف بعض أسرارى وبعض حبي حتى تسلب مني كل ثروتي.. لكنها اعترفت تحت جرم زبون عابر لهذه الرغبة الرخيصة في أن تراني مقتولا ومهملا مثل كلب أجرب.

لم يكن من شيء أفعله في آخر الليل، غير أن يصغي قلبي لكل عاهرة في البيت، لم يجرحني كلام شيماء وهى تضحك مني وتقول:

إنه مجرد إنسان بائس، لا ذنب له: فقد أهمله أهل البيت بلا سبب.

ولم ألتفت إلى همس ندى وهى تردد مرتين:

هذا مرجد ولد مخبول، لا أفكر فيه حتى وأنا في المرحاض.

بل أسعدني ما روته (إسراء) وهي تلهث:

من يدري سر هذا القرد المضحك، ربما كان رجلا يملك ما يملكه الرجال.

لكنني رغم البق الذي احتواني، والجراح التى ازداد عمقها في جسدي، جئت غرفى هيفاء – قديسة المنزل – وتمنيت أن أنام في فراشها، أن أبكي على يديها قبل أن أسمعها تقول:

ليس من السهل أن يفكر فينا، كل واحدة منا ضربته على رأسه وبصقت في عينيه، وحتى إن عقله عقل حمار، لا أظن بأنه سيفكر فينا مسكين، لا يعرف حتى كيف يختار البنطلون الذي يناسبه.

إنني (مذبوح) بهذا الكلام الذي أسمعه ليل نهار، لست أدري كيف أبدأ بين هذا النوع من النساء؟ أنا مجرد طفل مسوخ جاهز للضحك منه هذا ما سمعته من بلقيس وجها كمن تريد أن تقول لي: وماذا تعني أموال أمك إذا كنت أنت أقذر منها؟

ماجدة وحدها التي قالت:

لا أريد أن يموت كما ماتت أمة، كلاهما تعذب في حياته وليس من حق أحد أن يلوم هذا المسكين.

سبحان الله، كيف أبدا مع هذه الحفنة العجيبة من النساء؟ إنني – رغم الصفات كلها – مجرد إنسان تائه لا قيمة لي بينهت، وإذا كان لابد من بداية فهو يحتاج إلى بدايات عسيرة حتى أصل البداية التي أريد.

لكن المعجزات مازالت في يد البشر، أو هذا ما شعرت به وأنا أسمع صوت سناء، وهي تدور حول هيفاء وإنعام وكريمة وتقول بما يشبه السحر.

لماذا لم نفكر حتى الآن، إنه الوحيد الذي يملك هذا البيت، وإنه ليس مذنبا في أي شيء، لماذا لم نتقرب منه ونرحمه من الأمة بعد موت أمه؟ هل فكرنا بما يعانيه هذا المسكين أم أننا قررنا تركه ونكرانه حتى بدون سبب معقول؟

جمعت الكلام الذي سمعته من بنات البيت، ورميته في خندق مظلم من نفسي:

"مال الحرام يذهب في الحرام"، يرجع مثل صدى ويضرب رأسي "كل ما يفعله لا يساوي أجرة ليلة واحدة مع برغوث" يتكرر حرفا بعد حرف.

يأتي في الكواابيس ويمشي وراء زبائن البيت "ماذا تعني أموال أمك إذا كنت أذر منها؟ التهم الصبر على حقدي وشهوتي، كنت أسمع كل مسامة وهى تكرر مثلهن:

إنه مجرد إنسان بائس.

كيف أحارب هذا البؤس الذي زرعني وأثمر في عروقي؟ إنني، أفهم كل ما دور، وأعرف كل شيء، لكنني مهشم النفس والقلب معا، وهذا ما يجعلني دون ما يشتهن.

وقفت عند سناء بدأت أفكر في كلماتها، هي وحدها التي قالت (نرحمه من آلامه) وقالت: (ليس مذنبا) وقالت أشياء كثيرة ليس من السهل أن تسمعها النفس، نفسي.

هل تراها قادرة على مسك خيط واحد من خيوط عذابي، أم أنها مثل سواها لا ترى في وجودى غير حمار عليه بردعة من ذهب.

جئت إليها، اقتربت منها، وقلت لها:

هل يمكنك ترك عملك هذا اليوم؟ عندي كلام كثير وليس من أحد يصغي.

نظرت سناء إلى نصف وجهي، إلى حريق وجداني وقالت:

ماذا تريد أن تقول يا بلال؟

كررت عليها أن تترك العمل، نصف يوم أوربع يوم فقط – على حسابي – لكنها قالت بعهر لذيذ:

نصف يوم يا بلال، يساوي عشرة رجال، والرجل الواحد يعطي خمسة وعشرين دينارا، يعني نصف يوم يكلفك ثلاثمائة دينار (بس)..

قلت بسرعة:

خذي ألف دينار يا سناء، ألف دينار وتعالي نتكلم ربع يوم فقط.

مدت يدها وهى تهز جذعها وتردد:

إذا كنت تريدني في غرفتك يا بلال، أنا جاهزة، لكن هات الدنانير ولما تشاء.. و.. افعل ما تشاء.

اهتز جسدي، شعرت بحاجة غريبة إلى النوم، لقد قالت سناء كل ما أريد قوله، ولم يبق من شيء سوى توفير الفلوس – وهى بين يدي – وأنقذ نفسي من أخطر أفاقي.

جلست على أرض البيت..

لم يعد في جسمي من عصب حى سوى رغبة هذا الجسد المذبوح، كانت سناء تضحك مني وهي تمد يديها ترفعني وتقول:

إذهب إلى غرفتك، سأكون معك بعد نصف ساعة، أريد أن أرى ألف دينار على فراشك يا بلال..

مشيت – مثل جثة – إلى غرفتي، لم أكن أعرف ما سأفعل معها، لكنني غفوت على سريري وشيء مثل (الديب) يتسلل في غضاريفي كلها.

مرت سنوات وأنا نائم مثل بغل على فراشي، ليس من أثر أو شهيق في غرفتي، لا أعرف كيف يمر الزمان، لكن سناء لم تطرق بابي، نظرت من وراء

نافذتي ورأيت رجال الشرطة ينحشرون في لحوم طازجة لذيذة، لكنني لم أستطع الوقوف داخل هذا القبر الذي اسمه غرفتي..

رحت أدور في ممرات البيت..

أعرف أنهم يضحكون مني، تعلمت على هذا النوع من الضحك الممزوج بالحقد والقرف.. لكنني رحت أبحث عن سناء، حتى رأيتها في غرفتها، وحدها دون أنيس وبلا زبون.. كنت أريد الدخول عليها، لكنني سمعت من يقول:

هذه الحشرة بدأت تفكر في مغازلة النساء.

ماذا جرى؟

لم أعرف من كان يشتمني، لكنه صوت رجل، ونحن في البيت بلا رجال سوى من يأتي ويضاجع البنات ويمضي..

كيف بات البعض من هؤلاء الزبائن يقذفني بالشتائم، ولماذا؟

دخلت غرفة سناء كمن ينتحر، نظرت إليها وسألت:

ماذا حدث يا سناء؟

لكنني قبل أن أصل قرب فراشها، بل قبل أن تكون حروف اسمها قد جاءت على لساني كلها، رأيت نفسي مرميا مثل نعال خارج غرفتها، ولست أدري من الذي راح يضربني ويبصق في نصف وجهي وهو يصرخ بي:

يابن القبحة، إذا رأيتك معها ثانية، سترى نفسك في قبر أمك فورا.

فى تلك الدقيقة، انقلبت غرائزي على ركود نفسي، تضاعف جبروت الحقد في قلبي، حتى صار جلدي يتبرأ من جلدي، إنني أملك البيت ومن فيه، كيف يضربني مجرد رجل من خارج البيت مهما كانت قيمته وثروته ونفوذه وسلطانه؟

رفعت رأسي – لأول مرة في حياتي – ونظرت إليه، كنت أريد أن أفعل شيئا يجعلني أكبر من مجرد قرد وأكبر من حمار مذموم وأكبر من (ابن قحبة) يضربه من يشاء ويضحك منه أي عابر ثري.

هل حدث كل هذا صدفة؟ مطلقا.

إنني أهدم عمري إذا تهدمت هذه الشهوة التى خنقتني، كيف حد في وجه سناء وماذا سأقول؟ هل أعطيها المزيد من النقود حتى تقنع بهذا الجبان المركون مثل نفاية؟

وقفت على رجلي، يبدو أنني طويل، هذا ما انتبهت إليه، وأنا أضرب الرجل الذل كان يمشتمني ويهزأ مني.. ضربته برأسي على بطنه بكل ما يملكه جسدي من قوة، وبعد أقل من ثانية باهرة من عمر الزمان، كان هذا الرجل العنيف قد سقط أرضا وليس من أمل في نهوضه قبل يوم آخر.

عندها رأيت نفسي داخل حلقة من بنات البيت وزبائنه، وهم ينظرون إلى وجهي، لابد أن العالم تغير فجأة، فقد كانت (بلقيس) تبتسم في وجهي، أما سناء فقد خرجت من غرفتها وهى تردد بصوت قوي.

يستاهل، لا نريد أن يدخل ارنا بعد هذا اليوم.

ومثل طفل غبي رحت أنظر إلى سناء وأنا أقول:

هل أقتله يا سناء؟ هل أقتله يا سناء؟

من أين لي – وأنا المركون منذ بداية الزمان – أن أعرف الفرق بين من يضحك لي ومن يضحك مني؟ لست أفهم – حتى الآن – ما تعنيه ضحكة إنعام وهي تقول:

من أين أشرقت الشمس هذا الصباح؟

كذلك لا أدري لماذا ضربتني كريمة على يدي وماذا تعني بقولها:

هذه بداية جيدة للتشرد والبهذلة.

نظرت إلى إسراء وماجدة، ثم إلى هيفاء ونورا، وماذا جرى؟ أي لغز وراء هذه النفوس المغلقة التي تمارس الجنس ليل نهار؟

هل كنت على حق فيما فعلت؟ آلت شيماء بصوت داعر لذيذ يشبه صوت أمي أيام طفولتي:

بطل يا بلال، هذا جزاء الخونة.

كانت تهزأ مني، هي وحدها التي شعرت بما تريد أن تقول.. ثم عطفت في وجهي وأعطتني ظهرها بطرية ماجنة فهمت منها أن جميع من في البيت يسخرون مني الإ سناء التي كررت كلامها مرتين، وهي تبتسم ثانية في وجهي:

أنا سعيدة بما فعلت يا بلال، ربما يقتلك هذا الرجل غدا أو بعد شهر، لكن ما فعلته كان رائعا حقا.

من هو هذا الرجل الذي يشبه الفيل الذي صار رب أحذيتنا؟ وهل سيقتلني فعلا؟ أنا أملك البيت، فهل يملك هذا الرجل الحق في قتلي..

بدأت – فجأة – أحس بالخوف، وامتد الخوف حتى وصل إلى قلبي.. وأخذت أشعر بهذا النبض السريع.

رغم هذا، كان الشبق المجنون الذي تسلقني، يأخذ شكلا مختلفا أقرب ما يكون إلى السرطان الذي يسري من نقطة صغيرة ثم ينتهي بموت قذر.. هذا الرجل – الذي قد يقتلني غدا – ليس أكبر من رعب شهواتي وأنا لم أحقق منها أي شيء بعد.

في منتصف الليل، وهم ينقلون الرجل إلى بيته، ذهبت إلى سناء في غرفتها، لم تكن ليلة عهر كبقية الليالي، فقد أغلنا باب البيت وتركنا إشارة حمراء يعرفها الزبائن، يفهم من يراها: أنه لا عمل الليلة.

قالت سناء:

ماذا بك يا بلال؟

لا أدري لماذا تمنيت أن أبكي وأنا أقول:

الفلوس معي يا سناء..

انقلبت ملامحها وهي تسال:

ماذا تقول يا بلال؟

لم أصدق أنها نسيت، لكن احتراق جسدي جعلني أكرر ثانية:

ألف دينار يا سناء، كنت ستأتين إلى غرفتي بل يمنعني هذا الرجل، تعالي معي وخذي ما تريدين..

ماذا جرى في تلك الدقيقة؟ إن أعضائي لا تملك القدرة على أي نوع من المفجآت، كيف بي وأنا أسمع سناء تقولي لي:

حسنا سأكون في غرفتك بعد ربع ساعة.

شعرت أن العالم يفتح يدية مرة واحدة ويمسك جسدي، يباركه ويعلن عن رجولتي، لملمت الدنانير، كانت تلك الأوراق تحترق تحت أصابعي، لم يكن بها أية قيمة إزاء نصف ساعة مع هذه الصبية الطاغية مشيت على أطراف أصابعي، قلت لها: سناء، أنا الذي سيأتي إليك، كوني الملكة هذه الليلة، وأنا العبد المطيع.

مشيت على أطراف أصابعي، لم أطرق بابها، دخلت عليها بهدوء وبطء، ورأيت المعجزة!

يدهشني الرب إذا عصفت، وأخاف إذا أمطرت، ليس في جسدي ما يجعلني أصغي إلى الرعد دون رعشة تهدم جسمي..

كل هذا بسيط إزاء ما رأيت، وأنا أدخل غرفة هذه الفيروزة التي تعرت على فراشها وصار بريقها أكبر المعجزات..

هل يملك الجسد البشري كل هذه السحر الذي غطاني وصار يسلبني كل قواى؟ كيف اقترب منها، بل كيف اقترب الرجال منها؟ لكنها رفعت جسدها وجاءت تمشي، كان أول شيء فعلته (إنها أخذت حفنة الدنانير وتركتها تحت الفراش).. رأيت النصف الثاني من جسدها حين راحت تخفي الفلوس، وشعرت أنني أجبن خلق الله في هذه الدنيا.

فى أقل من دقية واحدة، كانت سناء أغفلت الباب، ومدت أصابعها إلى ثيابي، دون كلام، رأيت نفسي عاريا إلا من شهوتي التي اختفت من شدة نفورها، فتحت سناء فخذيها وقالت:

هل تملك الكثير من النقود يا بلال؟

لم أكن أفكر في شيء سوى انكساري وأنا أحاول أن أفعل معها ما يفعله الرجال، لكن الوقت يمر بلا فائدة.. تمنيت أن تبلعني الأرض، قبل أن تدفعني سناء وهي تصرخ:

ماذا دهاك؟ هل سأنتظرك حتى الصباح؟

كنت أعرف أنها لو انتظرت سنة أخرى، لن أفعل شيئا، فقد انطفأ في رأسي ذاك اللهيب الذي جئت به، وصارت كل مسامه في جلدي تشكو من عجزي.

هربت من بين عينيها ومن بين فخذيها، إلى غرفتي التي عشت فيها أحقر ليلة في حياتي.. ولم أعد أخاف أن يأتي هذا الرجل الفيل ويقتلني، إنني على أية حال لم أكن رجلا في أول مرة أنام فيها مع أنثى من لحم ودم في الصباح، ولم أخرج من غرفتي..

كنت أعتقد أن بنات البيت سينتظرون إلى وجهي باحتقار أكبر.. لكنني ما إن شعرت بالجوع حتى تسللت خارج البيت، ورجعت بعد ساعتين مثل فأر شعبان يبحث عن ثقب يدخل منه إلى حجرة حتى ينام.

ثانية، كنت في غرفتي، وعند الثالثة بعد الظهر سمعت طرقا على باب غرفتي، قلت: "إنها سناء".. واحترت في أمري.. ماذا أفعل؟
قلت: من هناك؟

لم يكن من جواب، ركبني هاجس آخر: أن يكون الرجل الفيل جاء يقتلني.. ومسني الخوف، اقتربت من خصاص نافذة عالية أبحث عن الطارق، كانت سناء هي التي تقف عند الباب، وبسرعة فتحت لها الباب ودخلت.. كان أجمل شيء أسمعه منها، أن تقول بضحكة طيبة:

لا أريدك أن تخجل، هذا يحصل مع كل الرجال في أول مرة.

لكن الحقد على نفسي كان يسري مع نهر أحقادي على إنعام ونورا وصباح، وعلى نساء الأرض منذ خلقن، ولم أفهم كيف السبيل – وأنا الذي عجزت إزاء لحم سناء – إلى بقية البنات وهن يكرهن وجهي وينظرن إلي كما ينظر إلى حمار مهجور مريض..

هل يمكن – في ليلة ما – أن أنام بين ضلوع بلقيس أو شيماء؟ هل أملك الحق في مغازلة إسراء وماجدة؟ إنني مجرد خادم رغم كل أموالي، أعني أموال أمي التي عافتها بين يدي.. لا هيفاء ولا ندى ولا كريمة ولا أية أنثى ستأتي إلى البيت يعنيها أمري.. إنني القرد الذي يضحكن إذا فات بينهن.

نظرت إلى وجه سناء.

تمنيت أن اقتلها رغم شهوتي التي مازالت تشتعل تحت جلدي، لكنني قلت لها:

أنا لا أحتاج إلى كلامك هذا.. أنا إنسان ميت.

لكنها اقتربت – فعلا – ومدت يدها إلى عضوي وهي تقول بشيء من الحنان لم أعرفه في حياتي كلها:

يالك من غبي، تعال معي، ومجانا بلا نقود، أنت تعرف ماذا يجري في هذه الحالات، تعال معي.. وتعلم.

ذهبت مثل خروف، ليست أدري ماذا جري، لكنني دخلت في عالم ملون ليس من لون ثابت فيه، كانت النجوم تقترب مني وتباركني، كانت سناء تلهث تحت عظامي، لم أصدق ما جرى، إنه مجرد حلم آخر سوف يمضي، لكن العالم الملون تكرر ثانية والنجوم صارت تباركني من جديد، وفى تلك الساعة شعرت أنني قادر على العيش بين مئات النساء بلا أي حرج وبلا أي خوف.

أعطيت سناء عقد أمي المرصع بالذهب، ثم رأيت نفسي أعطيها – ثانية – ألف دينار وأنا أرجوها أن تأخذها من يدي.. كان عندي من الفرح ما يكفي عشيرة من الرجال، أريد أن أصرخ وأرقص، لكن بلال الذي يكرهونه، مازال في نظرهم، ذاك الحمار المتروك رغم أكوام الدنانير وأكوام الذهب المكدسة في البنوك باسمي.

قلت لها:

أنا أحبك يا سناء.

ضحكت وهي تمد يديها فوق كتفي، قالت:

كل من ينام معي يقول أحبك، وينساني بعد ساعة واحدة.

لكنني أحبك فعلا.

سمعتها تقول بذكاء عجيب:

أنا أول بنت تنام معك، ستشبع من النساء بعد شهرين أو ثلاثة وعندها ستعرف الحقيقة.

وهل تراني سأعرف هذا الشبق الذي يطاردني الذي يمشي موازاة حقدي على البيت وساكنيه، كنت أريد أن أعترف لهذه الصبية اللذيذة بكل ما عندي من كنوز.. بل تمنيت أن أعترف لها بجريمتي، لكن الصدفة أنقذتني من غبائي حين راحت (صباح) تسأل عنها بصوت عالٍ.

نظرت إليها وهي تذهب، قلت في ذات نفسي.

ما هذه المتعة التى نزلت فوق رأسي من السماء؟

لكن المتعة التى نزلت فوق رأسي من السماء، صارت هي اللعنة التي تمزقني، اللعنة التى تبعثرني، فقد بدأت أراقب الرجال الذين يأتون البيت ويسرقون المتعة نفسها من جسد سناء وغيرها.. ماذا تراني أفعل معهم، وهم أقوى رجال المحلة ومن أبرز الرتب العسكرية؟!

كل هذا بسيط ومعقول، لكن ظهور الرجل الفيل في أول المساء، جعلني – دون وعي مني – أحمل سلاحين في وقت واحد، سكين أخفيتها بين ثيابي، وحقدي الذي صار أكبر آلاف المرات وأنا أفكر: إنه احتواها بين فخذيه ومر على مسامات جلدها كما فعلت أنا البارحة.

سمعته يسأل مثل ثور مجروح:

أين هذا الكلب الأجرب؟

امتد الصمت في زوايا وانحناءات البيت، لم يكن من جواب، لكنه اقترب من باب غرفتي وقال بصوت مخبول:

هذه غرفته.

أراد أن يكسرها، لكن كريمة – وهى أقوى بنات البيت – منعته وهي تقول:

ماذا تفعل؟ مهما كان السبب ليس من حقك أن تكسر أبواب الناس.

أراد أن يضربها، لكن الحظ كان معي حين اقترب منه زبائن البيت دفعة واحد منهم، ثم جاءت سناء تصرخ:

هذا بين بلال، وعليك أن تعرف أن البيت يحرسه ألف رجل مثلك وأكبر منك أيضا.

لست أدري كيف تأتي المعجزات، لكنها كانت من نصيبي هذه المرة أيضا، قلت في ذات نفسي وأنا أرقص طربا:

ماذا أفعل مع هذه الرائعة؟ ماذا أعطيها؟ إنها تستحي كل وريد في جسدي وكل شريان يمر بين لحمي.

نظرت من ثقب المفتاح إلى الرجل الفيل، وهو يخرج من بين الرجال والنساء يلتفت شمالا وشرقا، لا يصدق أن الدنيا الصغيرة التى تمتع فيها قد طردته بلا أي خوف ودون أي اهتمام.

فتحت باب غرفتي، كنت أريد أن أشكرهم، لكن كل واحد من الرجال دخل على واحدة من بنات البيت دون أي إحساس بوجودي..

أنقذوني من الموت، وعاقبوني بموت آخر، حتى سناء، كنت أصغي إلى هسيسها وهي تلهث تحت جرم حيواني مخبول، تقول بصوتها الذي أحبه:
أرجوك أنا مازلت صغيرة..
لكن الحيوان الذي كان يلتذذ بما تقول، يزداد سفالة ويجرح سنواتها تحت بكائي وأنا ألهث مثلها وأردد بخشوع:

ماذا أفعل مع هذا البيت وأنا وحدي؟ ليس لي وفي ولا صديق وليس من أحد يعنيه أمري.

هى الشرارة التي أشعلت البقية الباقية من ضلوعي، وجعلتني أطارد حدي وأستجير بشهوتي: أنا أصل الحل المناسب لهذا الموت البطيء الذي أنسل من بين نواته، وأرى نفسي في مرآته مثل جرذي محروق.

ماذا أفعل وحدي، وأنا دون رفيق ولا أنيس؟ إنني مجرد خادم غني يملك البيت والبنات والذهب المكدس في البنوك ولا أملك – حتى – حق اعتراض عابر بسيط.

أي انقلاب يجري إذا أقفلت البيت وطردت من فيه أو من لا يوافق فيه؟!

إنني رب هذا البيت ومالكه الشرعي وأوراق الكاتب العدل ليس فيها أي لبس ولا خطأ، من الذي سيتعترض على حقوقي إذا قررت هذا القرار الخطير؟

من تريد البقاء في هذا البيت، يمكنها العيش كما تشاء، لكن زبائن يطرقون الأبواب في آخر الليل، ومن تريد الزواج تتزوج وتعيش في غرفتها بلا ضرائب وبلا إيجار وبلا سؤال.

هل يمكنني تمزيق هوية البيت وتمزيق إرث أمي التي جعلت حياتي مجرد بيع وشراء؟ أنا أخاف هذا النوع الذي يأتي، كيف أقول (كلا) وماذا تعني بالنسبة لهذا الطابور المسلح من البطرين والقتلة والمخمورين؟

هو نوع من القتل، أن أجرب قتل نفسي بين هذه الحفنة الرهيبة من البشر.. وقت عند سلالم البيت رفعت جسمي مثل ممثل وقلت بصوت قوي.. خائف:

هذا البيت كما تعرفون، بيت أمي، صار بعد موتها "بيتي" وأنا حر فيه ولابد أن تفهم كل واحدة منكن أن البيت – منذ الليلة – محرم على الضيوف، من تريد البقاء أهلا بها، ومن ترى نفسها..

سمعت بلقيس تقول:

هذا كلام فارغ آخر زمن صار للصرصار لسان!

لكن هيفاء قالت بعدها:

إنه على حق، هو صاحب الملك..

ضحكت منها إنعام وهي تقول:

إنه يستحق الضرب كما كنا نفعل في الماضي، هل صرات الكلام تلبس البنطلون؟

صرخت بهن، وأنا أبكي في ذات نفسي:

لا مكان لك في هذا البيت يا بلقيس، وأنت أيضا يا إنعام، هذه المرة أنا الذي سأضرب الرؤس بحذائي.

لم أكن أعرف نفسي..

هذا الذي كان يصرخ ليس "بلال" الذي عشته أكثر من عشرين سنة، إنه رجل آخر لم أجلس معه ولم أشرب الشاي في حضرته.

اقتربت من بلقيس، سبحتها من يدها بعنف ورميتها خارج البيت، وما إن أتيت إلى "إنعام" حتى سمعتها تقول بخوف:

أنا أعتذر يا سيد بلال والله العظيم أعتذر.

لكنني رغم هذا مسكتها من رسغها وطردتها خارج البيت (بحذائي) ورجعت أحدق في بقية البنات.

فجأة، شعرت أن البيت صار (بيتي) فعلا، لكن الخوف كان يمسكني من داخل أعصابي، إن ما جرى لم يكن غير (نزوة) شريرة لا عمق لها وبعد أقل من عشر دقائق سأرى نفسي أجبن خلق الله على وجه الأرض.

قالت سناء بصوت لم يسمعه أحد غيري:

هذا معقول، معقول جدا.

نظرت إلى جدران البيت، إلى الغرف التي ازدحمت بالحيا من وأروا الكلينكس، تذكرت شبقي الذي انطفأ مرة واحدة في بحر سناء، وفجأة، كما إسطبل قذر، رحت أصهل مثل حصان.

لم يكن صهيلا، كان عواء كلبيا.. لم يكن عواء، كان بكاء بشريا، سقطت على أرض البيت، وأنا ألهث وأقول:

أنا مسكين، أنا مجرم، أنا أحبكم وليس من أحد يحبني.

رأيت نفسي مرميا على فراشي، ليس من أحد معي، رجعت بذاكرتي إلى ما جري، لم أتذكر أي شيء سوى وجه سناء.. خرجت من غرفتي، كنت أريد أن أراها، لكنها –كما رأيت – تلهث تحت هيكل عربيد، وتضحك مثل امرأة شريفة وتقول:

لم أعرف رجلا مثلك، سيدي.

رميت بريق عيني على غرفتها، لم أصدق هذا الصوت الذي عرفته على شاشة التليفزيون، يضحك مثل رحل شريف ويقول:

أنا أيضا، لم أعرف شهية مثلك أبدا.

من أحارب إذن، وأنا مزحوم بالحقد والشهوة معا؟ أذهب الرجل الفيل إلى غير رجعه، لكن رجال الشرطة الكبار يكسرون باب البيت ليل نهار، هل تراني أملك بعض ما يملكون حتى أمنع بنات البيت من هذا العهر العلني الذي صار ملصوقا بعائلتي واسمي.

فجأة، وكما الرعد حنين ينزل فو الكرة الأرضية، قررت أن أقتل المزيد حتى يستقر حال البيت وأعيش حياتي كما أريد.. إن موت وزير من الوزراء ليس مجرد موت عابر، ستحكمي عنه المجلات والجرائد والتليفزيون، ومهما كان حجم الكذب والتلفيق في إذاعته، فهو (قضية) من قضايا الموسم.. موسم البيت الذي سيموت فيه "الوزير" بعد إن ماتت فيه أمي.

هذا هو الحل، أو بعض الحل، حتى يكف الزبائن من دخول (بيتي) وأفعل بعدها ما أحب أن أفعل بلا منافسين وبلا وزراء.

لست أدري كيف تمكنت من قتل (أمي) ولماذا صار القتل – هذه المرة

مستحيلا على يدي وأعصابي؟.. إن من يقتل مرة واحدة يمكنه أن يقتل دائما، هذا ما سمعته ذات يوم، لكنني لا أشبه خلق الله وليس من صفة أمتاز بها عن الكلاب الحمير إلا أموالي وبيتي.

إنني إذا ما عثرت على إنسان يحبني، سأعطية كل شيء، أنا المذموم المركون في الزوايا، قلت ستقنعني دنانير أمي، وها هي كنوزها كلها في كفة لا توزايها كلمة حب واحدة.. سناء تنام معي من أجل الفلوس ولم تفتح فمها بكلمة طيبة، وبه البنات يضحكن مني ويسخرن من هذا القرد المصنوع من الذهب والفضة.

كيف سأقتل ثانية؟

من اختار، من هذه الجوفة التي تأتي وتذهب وتبصق على وجودي؟

كل واحد منهم يستحق القتل عشر مرات بدل المرة الواحدة، لكن كيف أقتله وأين؟

وإذا اختفت جريمتي يوم قتلت أمي، من يدري أية رائحة ستكون لهذه الجريمة الثانية؟.. لكن، ليس من حل غير هذا: أن أقتل أكبر واحد منهم، وزير، أو أي مسؤول معروف، المهم أن ينتشر خبر الموت في كل مكان.

سأقول بأني مسافر إلى الجنوب، أو إلى بر أمي، وأذهب فعلا، ثم أقتل – حين رجوعي – أي واحد منهم قبل إعلان عودتي بساعة أو ساعتين..

عندي من النقود ما يكفي لشراء الضمائر والسكوت إذا ما أخطأت في خططي، ماذا تنفعني دنانير أمي إذا كنت لا أعيش كما أحلم، أنا المركون منذ طفولتي وراء الحياة، بلا شهيق سوى شهيق الخوف والشبق المقتول.

لكنني بعد ليلة عاصفة ماطرة لم أقتنع بأية فكرة طرأت على رأسي، لن أذهب إلى الجنوب، لن أذهب إلى قبر أمي – لماذا أراهق نفس إلى هذا الحد – سأقتل آخر من يخرج من البيت، وإذا ما جاءت الشرطة، سترى أنه مقتول ومسروق وليس من دليل على هذا النوع من القتلة.

هذا يكفي، أو يكفي أن يخفف من لهيب جسدي واشتعالي، وحتما سيخفف من زيارات البعض إلى بيتي، إذا كانت الجثة مزحومة بالطعنات أو.. محروقة مثلا!

خرجت من غرفتي في آخر الليل، أصغي إلى لهاث البنات، لم تزل ثلاث غرف مضاءة حتى الآن: غرفة نورا وشيماء وماجدة.. اخترت السكين التي تنفذ بسرعة بين طيات اللحم والثياب، وأخفيتها تحت حزامي حتى خرج الأول من غرفة ماجدة، كانت الساعة قد مرت على الثانية صباحا، ليس إلا عشر دقائق وكان الثاني قد ترك غرفة نورا.. ولم تبق من غرفة (تشتغل) في بيتي سوى غرفة شيماء.

نظرت من ثقب المفتاح..

أريد أن أعرف شكل الضحية، لكنني لم أستطع، لم يكن ثمة صوت في الغرفة، ليس من أحد أمام ثقب المفتاح.. لابد أنه يعمل بصمت، وانتظرت ربع ساعة، لكنه لم يخرج، اقتربت من الغرفة الثانية، أريد أن أعرف ما يدور، لم أسمع أي لهاث أو كلام أو شهيق أو زفير..

ماذا جرى؟ هل تراها تركت نور الغرفة ونامت؟

كنت أعرف أي نوع من النساء، هذه الشيماء التي تحب الفلوس وتشتغل أكثر من سواها حتى تأخذ حصة أكبر من المال، لكن الوقت فات وتسرب في عروق النهار ولم يخرج الزبون من غرفتها.. ماذا جرى؟

قلت في ذات نفسي:

ماذا أخسر إذا طرقت الباب؟ ليس المهم قتل الرجل هذه الليلة، المهم أن أعرف ماذا يجري في غرفة شيماء وقد مر من الوقت ساعة ونصف دون حركة ودون كلام.

فجة، كنت أكتشفت الباب مفتوحا، ليس إلا حركة بسيطة وأيما يدور في غرفة شيماء.. فعلا، مددت يدي إلى أقصاها، كان صرير الباب يشبه أنين القبور، أي وهم يزاحم هذا الوهم، وأنا مازلت أبحث عن سر هذه الغرفة حتى فتحتها على آخرها، ورأيت..

ماذا رأيت في أحلك ساعات عمري؟

كان الرجل الفيل الذي صربته قبل يومين، مقتولا بالسكين، والدم الملوث والسكائر والدنانير والدخان يسري في ثقوب الغرفة، تماما كما قتلت أمي: جرح في القلب، وآخر في البطن وثالث في الرقبة.

نظرت إلى هذا الرجل المقتول، لم أكن أصدق نفسي، وأنا أجلس قرب رأسه ورغم غبائي وقله حيلتي، أبقيت أن هذه الجريمة ستهدم البيت كله، لكنها ستأخذني – أولا – إلى مصير شنيع.

هرب جلدي من جسدي، مشيت مثل طفل لقيط أبحث عن نفسي التي ضيعوها، هكذا فجأت، آمنت أن موت أمي لم يذهب تحت الرياح، هذا مصيري ونهايتي وعقابي، وليس من السهل إنقاذ "بلال" من هذه اللعبة الرهيبة التي رسموها بحكمة ودهاء.

فى طريقي إلى غرفتي، وقفت عند غرفة إسراء، كنت أصغي إلى حناجر هادئة ساخرة ذات جرس قذر مسموم، أعرف من قالت:

لكنه مسكين، سينام العمر كله في زنزانة مظلمة دون أي ذنب.

إنها ماجدة، ليس من هموم كبيرة سوى أنها تريد الزواج رغم هذا الزمن الطويل الذي تركته خلفها من العهر والبيع والشراء، كانت بقليس التي طردتها من البيت تضحك مثل عقرب يطارد عقربا:

البيت لا يناسبه هذا النوع من الطراطير.. إلى جهنم وبئس المصير، لقد طردني من البيت، هذا القبيح البليد.

كذلك قالت إنعام:

يستاهل.. إنه لا يريد سوى النوم والطعام، هذا ما سيعثر عليه في السجن، لماذا نحزن على هذا الحيوان الغبي؟

فى الصباح، لم يكن من أحد يدري، كيف نقلت جثة الرجل الفيل من "بيتي" إلى نهايات الحلة، لم يكن ثمة من يصدق أن الجثة التي كانت محروقة تماما هي جثة (الفيل) الذي تعلم على شراء اللذة بين يوم وآخر في بيت أمي.

نظرت إلى بلقيس، ثم إلى وجه إنعام، وأيضا، رحت أحدق في وجه ماجدة، صرخت مثل مخبول:

لا أريد أن أرى أية واحدة بعد اليوم، سأهدم هذا البيت، وربما أحرقة لكنني لا أريد أن أرى وجوهكن مطلقا.

نزعت فردة حذائي، رحت أضرب إنعام على ظهرها، وبعد دقيقة واحدة لم تكن في البيت سوى رائحة ذابلة وصرخة فقيرة مازلت أذكرها، تركتها بلقيس خلف ظهرها حين قالت:

ستموت يا بلال، ستموت يا بلال، أنت لن تعيش سوى أيام قليلة أيها القرد المسكين.

كانت كريمة وندى وشيماء وصباح وسناء ونورا يراقبن ما جرى، لم تتحرك أية واحدة منهن، وأيقنت في تلك الساعة بأنني بدأت أعيش بعض رجولتي وربما سأعيش حياتي كما أريد.

فى ليلة واحدة، بدأت – بالنسبة لي – من الساعة العاشرة حتى الثانية بعد منتصف الليل. تعيشت فيها مع شيماء ورميت فيها بعض حرماني.. ثم شربت الخمر في غرفة نورا حتى وقعت مثل بهلول.. أعطيتها نصف آفات جسمي وثلاثة آلاف دينار.

كنت أرى في السحب السود التي تمشي فوق الزقاق نهايات ذاك الجوع الذي شوهني.. في آخر الليل صحوت ثانية وذهبت إلى كريمة لكنها أعتذرت، وقبل أن يسري غضبي، اكتشفت أن ثمة ما يمنع النساء خمسة أيام من (الخيانة) و(الدعارة) و(الحب)..

هذا ما لم أعرفه أبدا، أنا ابن هذا الماخور وخادمه الذي نقل من كيمات العادة وأوراق الكلينكس أضعاف وزنه..

صار البيت (بيت بلال)!

لكن الزبائن لا تدري بما جرى، لم يسأل أي واحد منهم عن سر هذا النوم المبكر، فقد قررت غلق باب البيت في الثانية عشرة مهما كان نوع الزبون ومهما كانت خطورة المكان الذي يتعاش على سمعته.

نسيت بلقيس وإنعام وماجدة، لا أدري كيف نسيتهن بعد خدمة دامت أكثر من سبع سنين، وهن السبب في ثراء هذا البيت.. لكن ليلة الخميس، آحر أيام السنة، والدنيا كلها تحتفل بعام جديد، كانت تلك الليلة الماطرة آخر ليلة في حياتي فقد طرق الباب بعد الواحدة ليلا.. قلت بصوت وقح:

المكان مغلق، ماذا تريد؟

سمعت صوتها يبكي:

أنا بلقيس، أرجوك أن تفتح الباب.

فتحت الباب، رأيت بلقيس تغرق في ثيابها المبللة، قلت لها:

تعالي، هذا بيتك يا بلقيس.

قالت:

أدري، إنه بيتي.

دخلت، نزعت ثيابها في غرفتي، كانت عارية تماما، اقتربت منها صرت عاريا مثلها، لكنني ما إن رمتها على سريري حتى راحت تلهث مثل دب مذبوح، قالت:

افعل ما تشاء، لا بيت لي سوى هذا البيت، حرام عليك أن تطردني، أنا بلقيس التي صنعت هذا المكان.. بهذا!

وأشارت إلى ثغرة مثمرة بين فخذيها، اعتذرت منها. آسف والله يا بلقيس...

قالت بصوت مجروح:

ادخل يا بلال، ادخل بسرعة، أريد أن أرى، هل تعرف هذا الشيء حقا؟ كان غروري يسبقني إلى موتي..

نزعت ثيابي وجلدي ومساماتي ودخلت في بلقيس، كانت تضحك مني، تضحك بقوة لم أفهم سرها..

مدت يديها وراء ظهري، طوقتين بقوة ألف امرأة، كانت تصرخ:

أنا بلقيس أيها الكلب، كيف تطردني من بيتي؟ شعبت من الحياة القذرة والسفلس والمباهاة والكلام الفارغ والغزل الذي يشبه الخراء وتطردني يا بلال؟

لم أفهم، لم أسمع، لم ألتفت إلى شيء كنت أغرق في حرماني، أبكي هذا الوجع الذي لا ذنب لي فيه، لكن إنعام وماجدة – من أين جئت؟ – راح يضرب رأسي بأحذية مدببة ويبصقن في وجهي..

كل هذا بسيط ومعقول، لكن، وأنا أموت، مازلت أسأل نفسي:

لماذا جاءت إسراء وهيفاء ونورا وسناء وصباح وشيماء وندى وكريمة، ولماذا راحت كل واحدة منهن ترقص فو دموعي، ولماذا قتلوني بهذه السرعة وأنا أملك البيت وليس لي من وريث؟!

لماذا قتلوني بهذه السرعة؟

أنا لا وريث لي سوى طفل سيأتي، ربما من سناء، ربما من شيماء، ربما من نورا، لكنه – حتما – سيأتي ويعيش دون اسمي، كما عشت أنا، وربما سيموت بهذه الطريقة نفسها، مادام هذا البيت – منذ بداية الزمان – تعلم أن يعيش بلا رجال.

تموز ١٩٨٤

بئر في غابة

أعترف بأنني دخلت بيت الشيخوخة، ليس من شك في هذا، مع أني لم أزل في الأربعين (فقط)!
كنت أرتب حياتي – طوال عمري – في أرشيف منظم ليس من خطأ أو عيب في أوراقه وذاكرته، لكنني منذ أيام صرت أخلط (الحلم) الذي أراه ليلا بما يجري طوال النهار، ويأتي الكابوس حينما مثل بقية لمشكلة عشتها مع الناس فعلا.

مرة ذهبت إلى (هدى) أجمل بنات الوزارة وأكثر من إغراء وحلاوة، جلست قربها أقرأ الجرائد، بل، تجرأت أكثر وطلبت منها كوبا من الشاي، هكذا، بلا رجاء وبلا مناسبه، بل قلت بها: إن كلامك البارحة مزقني، لم أكن أظن يوما أنك تفكرين بي؟

بصراحة، لا أريد أن أحكي بقية ما جرى صباح ذاك اليوم، وما فعلته السيدة هدي بعد أن طردتني من غرفتها، سأقول: الحمد لله أنها لم تخير زوجها ولا المدير الذي نعمل بين يديه، ربما تمكنت من إقناعها أنني عشت

الحكاية في (حلم) جاءني ليلة أمس، وأنني لم أعد أفرق بين الواقع والحلم الذي أرى.

لم أعش (منحة) كهذه أبدا، كيف تراني أعرف الحال الذي أنا فيه كيف أتمكن من فرز حالات الحلم عن حالات الواع، وكلاهما – بالنسبة لي – شكل واحد؟

مرة جاء المدير يأمرني بتفتيش مخازن (سكانيا فابس) وأعطاني مهلة أسبوع واحد أختار فيه خمسة من العمال المهرة لجرد رفوق المخازن كلها...

لكنني لم أعفل أي شيء "أنا علي يقين أن المدير جاءني في واحد من كوابيسي، وخير دليل أنه يريد مني جرد المخاز كلها في أسبوع واحد!

ولهذا السبب، نقلوني طبعا، إلى هذه الوزارة، إذا جاء المدير بعد أسبوع ورأى الرفوف على حالها، كاد يضربني، لكنه سقط مغميا عليه عندما أخبرته أن (أوامرة) جاءتني في حلم عابر وأنه – شخصيا – لم يأمرني بأي شيء!

مضيت إلى طبيب عبقري مشهور، حكيت له (قصتي) مع المدير وهدى وغيرهما، وكيف أنني بدأت أخلط أوراقي بنفسي وليس من طوق نجاه للرجوع إلى ذاكراتي وسيطرتي على شعاب رأسي ونخاعي.

سأل الطبيب:

هل تشرب الخمر؟

قلت له: نعم.

أعطاني حفنة من الحبوب الزرق، ابتسم لي بعد أن منعني من الخمر – إلى إشعار آخر – وقال:

اريد أن تبتعد عن "اجاثا كريستي" و"هتشكوك" وعن السينما والتليفزيون والمسرح.

رحت أنفذ أوامر الطبيب – حرفيا – بكيت نفسي وأنا أعيش عزلة غريبة جدا، لا خمور ولا قراءة ولا تليفزيون.. معقول؟ كيف أفعل هذا بنفسي؟ ما شأن المسرح والسينما بهذا (المخ) الذي تخبط بين وريد ووريد؟

بل كيف تراني أجلس وحدي لئلا أحتسي العرق الجميل رفقه أصحابي؟

لكن الطبيب لم يمنعني من النساء.. هل تراه أغفله لعله أخر طعم الحياة كله مرة واحدة؟ ربما.. إنه طبيب عبقري سينقذني من هذه الشيخوخة المبكرة التي سقطت على شبابي وجلدي وغرائزي، تذكرت فجأة، بأنني لم أعطه أجرته، وأنه تركني على نسياني ولم يسألني أي شيء.

كم شعرت بالخجل، ربما فكر الطبيب: إنني أحتال عليه بذاكرة معطوبة؟ لهذا قررت الذهاب إليه فورا، أنه يعرفني منذ زمان بعيد، كان صديق أبي (رحمه الله) وهو أول من علمني كيف أنقذ جسدي من الخوف.

عند رصيف العمارة، نظرت إلى اسمه (المعلق) في الطابق الثاني، وقبل أن أقطع السلالم، فكرت، كم سأدفع له؟ أنا لا أعرف شيئا عن أجرة هذا

النوع من أطباء النفس، ورغم هذا قررت – مع نفسي – أن أترك القرار للطبيب نفسه.

كان الطابق الثاني كئيبا موحشا، طبيب باطنية هنا، وطبيب أطفال هناك، أما غرفة الطبيب العبقري المشهور، صديق أبي، فقد كانت مغلقة، قلت لنفسي إنه رجل كبير في السن، لابد أنه يرتاح الليلة في بيته، لكنني بعد نزولي سألت لواب العمارة عن الطبيب المشهور، فأخبرني البواب وهو ينتظر إلى بؤبؤ عيني بذهول:

– هل تسأل عن الدكتور مهدي فارس؟

– أجل يا عم، جثته البارحة، وكنت أريد أن أراه اليوم مرة ثانية..

قلت للبواب:

– هل رأيته البارحة؟

لم أفهم السؤال، لكن البواب يقول.. صوتي يأتي من زواية بعيدة في الكون:

– مهدي فارس مات منذ خمس سنين، ولم يبق منه سوى اسمه المعلق على هذه العمارة.

– لم أقع، كان ينبغي أن أسقط عند باب العمارة، لكنني مشيت مذهولا في شارع الرشيد.. من ترى يقول أن هذا هو شارع الرشيد؟

رأيت طفلا في التاسعة، سألته:

– ما اسم هذا الشارع يا بني؟

– إنه شارع الرشيد، هل أنت غريب؟

قلت للطفل الناعم الصغير وأنا أعطيه ربع دينار:

– نعم، أنا غريب عن بغداد.

في البيت، رأيت الحبوب الرزقاء التي تكرم بها الطبيب مهدي فارس، أفزعني الحال الذي أنا فيه، هل تراني ذهبت لاحقا إليه؟ أم كان حلما ما جرى بيني وبين بواب العمارة؟

حكيت القصة في كل شبر من بغداد، لم أترك رجلا ولا امرأة من أقاربي إلا ورميت عليهم أوجاعي وخراب عقلي وغرائب ما يمر بي تبرع أكثرهم بكلام طيب ورومانسي بعضهم بنظرة شك أفهم مغزاها.

بدأت أخاف من عملي وأقرأني في الوزارة، لا أدري أين الفيصل بين ما أرى في صحوي الذي سأراه في حلمي.. قطعت أجازاتي كلها لئلا أسطق في بئر من حماقات يقظتي وأخطاء نومي، تكورت على جسدي، مجرد قنفذ يلبس ثوبا من الرعب، أمشي قرب الحيطان خوف أن يرتطم نخاعي بشيء لا تفسير له عندي أو يلمسني بشر لا أفهم ماذا يريد مني.

صرت مجرد (شيء) خائف، لا أحد يصدق أقوالي ولا شأن للناس..

– فى ملحتنا – بأفعالي، أشتري الشاي والسكر زالرز، ورأي الرثاء مغمسا مع ذرات السكر، معجونا بالشاي، وتائها في أصابع الرز.
– مرة، قررت أن ألتفت إليهم، أرى: كيف يفكرون وماذا يقولون في غيابي؟ أجل، كانت الشفقة تسري تحت جفونهم، والخوف من مصيري على مصائرهم (أحس به فعلا) من يدري، الناس قد تسمع بمصائب الناس ولا تصدق أن تلك اللعنة قد تأتي فجأة إلى مساماتهم، وقد تنام في بيت أي واحد منهم على غلفة، كما جرى معهم.

اليوم، بات العابر والمقيم، البعيد والقريب، يعلم بما آلت إليه صحتي وعقلي وانقلاباتي، بين صحو غامض وحلم أكثر غموضا، أرى الشفقة في الوجوه، والرثاء لما أصبحته ولم أزل بعد في الأربعين من عمري.

تلك وحدها كانت خطتي في التخلص من (زوجتى).. ثلاثة أعوام من الصبر والتمثيل والمؤامرات واللعب العبقري على النفوس، تمكنت بعدها من سحب اعتراف الدنيا كلها بهذا التخبط المريع بين صحو غامض وأحلام أكثر غموضا، ولهذا تمكنت من قتل (سليمة) زوجتى، أنا الذي أعترف بالجريمة، أنا الذي صرخت – بقوة – أمام رجال الشرطة بأنني (قتلها).. لكنهم، كما رسمت لهم الخطة بنفسي، تركوني وشأني وهم يقولون: إنه حلم آخر من أحلامه العجيبة!

هل كان حلما: إنني قتلت زوجتي؟

وإذا كان الذي جرى، مجرد حلم كما يقولون، من أين جاء هذا الدم الغزير، على ثيابي وجلدي؟

تخلصت من جثة (سليمة) بعد منتصف الليل، رميتها بين بغداد والصويرة، في ساقية مهجورة لا أحد يدري بها سوى الكلاب السائبة، ورجعت إلى فراشي في الرابعه فجرا، حاولت النوم حتى يرتاح جسدي من المشوار السفاح الذي عشته بين الرغب والكلاب وجثة زوجتي سليمة، لكن النوم لم يصل أي جفن من جفوني، بل صحوت (فزعا) على حقيقة واحدة هي أنني أعيش وحدي منذ زمان بعيد وأنني – أبدا – لم أتزوج!

تمنيت في تلك الساعة من الليل أن أصرخ، بكيت على نفسي بحرقة لذيذة، هل تراني أصدق نفسي وأنا أبكي عليها؟ ألا يمكن أن يكون هذا البكاء مجرد حلم آخر؟ نظرت إلى دموعي تسقط في يدي، دمعة إثر دمعه، بكيت أكثر على عزلتي وانفرادي، أنا الذي أختار أن يعيش بلا زوجة وبلا أطفال، ربما أنني تزوجت مبكرا منذ زمان بعيد ما كان الحال المخيف الذي أعيش فيه.

مسحت دموعي، نظرت إلى السماء، استجير بالله أن يخلصني ورأيت أن الله تعالي كان أجابني – فورا – على رجائي عندما أيقظني صوتها من النوم وهي تردد:

– لقد تأخر الوقت عليك، أي نوم ثقيل تنام؟

ثم – وأنا أغسل وجهي – قالت زوجتي بصوت مجروح:

– تذكر أن تشتري الحليب للصغار.

ضحكت على حياتي كلها، نظرت بحب إلى زوجتي، لم أسال وأنا أغسل وجهي بهدوء، كم عدد الصغار.. أطفالي؟

الفهرس

المقدمة ٩

أخر أفلام شارلي شابلن ١١

المربع الضوئي ٣٩

قشور العنب ٦٣

صديق بابا ٧١

مدينة كاووش ٨٥

باب السيف ٩٣

السيد ١٠٥

الانسان والبحر ١٢٧

بعد خراب البصرة ١٥٧

قشور الثلج ١٦٥

من أي بلاد أتيت ١٧٩

أبواب مفتوحة ٢٤٣

بئر في غابة ٢٨٧